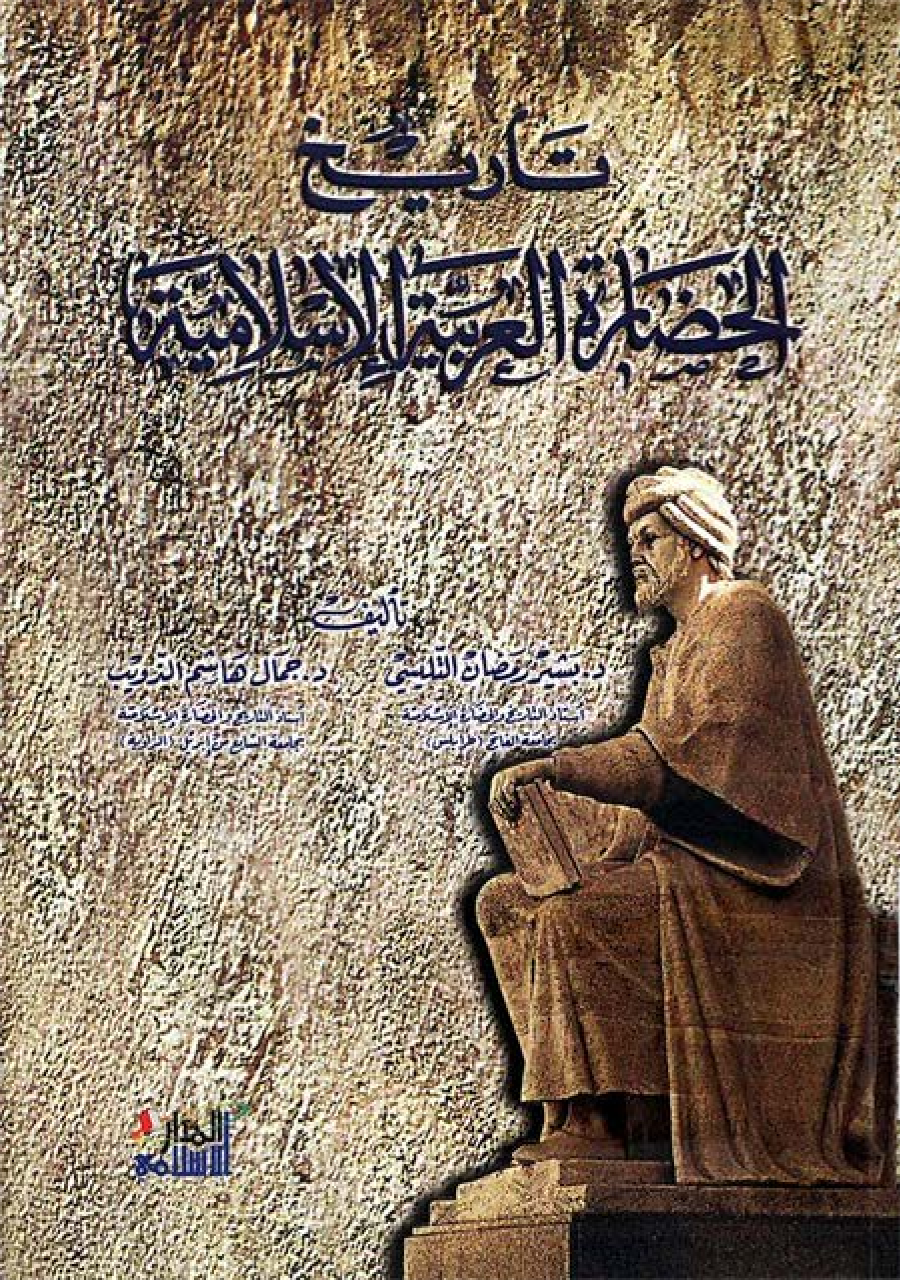

تاريخ
الحضارة العربية الإسلامية
تأليف
د. بشير رمضان التليسي
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة الفاتح (طرابلس)
د. جمال هاشم الذويب
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة السابع من أبريل (الزاوية)
المدار الإسلامي

تاريخ
الحضارة العربية الإسلامية

تاريخ الحضارة العربية الإسلامية

تأليف

د. بشير رمضان التليسي

د. جمال هاشم الذويب

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

أ/مارس/الربيع 2002 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4159/ 2001

ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-056-5

دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،

خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961

بيروت ـ لبنان

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498، هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

مقدمة

إن الحضارة هي تعبير عن كل منجزات أعمال الإنسان الفكرية والوجدانية والعمرانية ليحقق ذاته، ويحقق تقدم مجتمعه، ويسهم في المسيرة الإنسانية. وهي بهذا التعريف السهل تشمل مختلف نشاط الإنسان وعطائه، كما توضح مدى إسهام الأمم والشعوب في إغناء وتنمية المجتمعات الإنسانية والرقي بها، ولكنها بهذا التعريف السهل أيضاً ترتبط بعقيدة الإنسان ومبادئه وبيئته ورحلته التاريخية.

والحضارة في مفهومها الإسلامي تنطلق من رؤية مثالية للحياة، إذ يسعى كل مسلم، وكل مجتمع إسلامي أن يحقق هذه الرؤية ويعمل على إبرازها وتطويرها حتى تظل حية ماثلة في ضميره وتصرفاته ومعاناته، وحتى يجعل واقعه يسير على هديها. ولذلك فالحضارة هي مثل عليا وتجارب متنوعة، وإبداع وخلق، وما يصحبها من معاناة لتصويب وتصحيح سيرة الإنسان. كما إنها تبرز ثقافة المجتمع الإسلامي الكامنة في ضمير الفرد وسلوكه تحدياً منه للانحرافات المارقة، وهي محصلة واقع تاريخي يتصل بمختلف العلاقات الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والفكرية والاجتماعية.

وحضارتنا الإسلامية تدفع كل مواطن نحو الأمانة والمثالية في الابتكار والتقليد في عمله وسلوكه وفي اختياراته ومواقفه، وهذا ما يجعلها تنطبع بطابع الالتزام بالمبادىء الإسلامية. ويجعلها على اتصال بماضيها وتراثها لأنها امتداد غير محدود.

إن حَضارة الإسلام التي هي الوجه المشرق لتاريخنا الذي يتحرك بربط الأسباب بالمسببات على أساس السير في النهج الإسلامي الذي فيه ترتبط الحضارة بالتراث.

إن حضارتنا الإسلامية تراث مثالي، وواقع تعيشه الأمة الإسلامية بقيم

ومبادىء الدين الإسلامي الحنيف، وهي بهذا المنهج والأسلوب توحد بين المسلمين في جميع أنحاء الدنيا، أمماً كانوا أم أقليات أم أفراداً مهاجرين في أوطان غير أوطانهم، لأنها تتسم بخصوصيات وقيم مشتركة مميزة تبرز في الأعراف والعادات والتقاليد، وهذه الخصائص تبرز الانسجام والتكامل في حضرة الأمة الإسلامية دون استثناء.

وهذا الكتاب الذي بين يدي القارىء يعرض للحضارة العربية الإسلامية بشكل لم تأت عليه المؤلفات السابقة في كتب الحضارة العربية الإسلامية. فهو يعكف على إبراز السمات الحضارية للمجتمع الإسلامي في مشرق العالم الإسلامي ومغربه في وحدة تكاملية أسهم فيها المسلمون في المشرق والمغرب بنصيب وافر كان له الأثر العظيم في تطور الإنسانية بما اشتملت عليه الحضارة الإسلامية من قيم وأخلاق وضع لبنائها واستراتيجيتها العلم الأول محمد بن عبد الله ﷺ رسول الإنسانية جمعاء.

وقد راعينا في هذا الكتاب أيضاً دراسة الحضارة العربية قبل الإسلام. لأنه إذا قصدنا الحضارة العربية الإسلامية فترة ظهور الإسلام وحتى سقوط الخلافة العباسية، واستبعدنا منها العصور السابقة للإسلام، نكون قد تجاوزنا مرحلة أولية في الحضارة العربية الإسلامية.

ولهذا السبب لم يكن من السهل أن نتجاهل العصور السابقة على الإسلام لأنها تتضمن المنابت الأولى للحضارة العربية الإسلامية بحيث لا يمكننا أن نهتدي إلى تفسير مظاهر الحضارة العربية الإسلامية دون أن نلم إلماماً ولو جزئياً بتلك المنابت الأولى.

وقد ظهر هذا الكتاب بهذه الحلة الأنيقة وهذا العرض المبسّط، محاولين بذلك استكمال النقص الحاصل في الكتاب الجامعي، ولعلنا نكون بذلك قد أسهمنا بجهد متواضع في تذليل بعض الصعاب الناجمة عن عدم توفّر الكتاب الجامعي.

المؤلفان

تمهيد

جاء الإسلام بقيم ومبادىء، ومنهج عظيم الأثر، كبير المنفعة للبشرية اقتصادياً، واجتماعياً، وسياسياً، وثقافياً. واتخذته الأمة منهجاً وعقيدة، استطاعت أن تدافع عنه، وأن تنشره في كثير من الأقطار.

انتشر الإسلام بشكل سريع لم تشهده الديانات السابقة كاليهودية والمسيحية، لأنه كان ديناً عالمياً، وأن محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولقد تجاوزت الدعوة إلى الدين الإسلامي حدود شبه الجزيرة العربية حتى تجاوزت جبال زاجاروس شرقاً، والمحيط الأطلسي غرباً، وتكونت امبراطورية عربية إسلامية امتدت من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً وجنوباً.

وقد انتقل الدين إلى كثير من الأصقاع دون أن يرافقه حكم العرب المسلمين إلى أقطار متباعدة، كأندونيسيا، والصين، والفلبين ومناطق إفريقيا جنوب الصحراء.

وفي ظل الإسلام امتزجت شعوب كثيرة اختلفت ثقافاتها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها، ولكنها جميعاً ارتضت بغلبة اللغة العربية على إنتاجها وإبداعها الفكري، بما تميز به هذا الدين من حرية المعتقد. فكانت اللغة العربية لغة العبادة، ولغة القرآن، ولغة الإبداع والإنتاج الفكري تحت راية الإسلام.

لقد تظافرت على الحضارة العربية الإسلامية جهود لشعوب متعددة.

فماذا يمكن أن نسميها؟ هل هي حضارة عربية لأن العرب حملوا لواءها، ونشروا مبادئها التي جاء بها الدين الإسلامي، وهل يمكن أن نسميها إسلامية، وقد تأثرت بجوانب من حضارة الفرس والبيزنطيين والإغريق.

ومن ثم لم يتفق الباحثون حول تسمية معينة لهذه الحضارة، وإن كنا نرى تسميتها بالحضارة العربية الإسلامية مع عدم إنكار الدور الذي قدمته الشعوب غير العربية والإسلامية لبعض جوانب هذه الحضارة.

وقد حاولنا جاهدين تزويد الكتاب ببعض الصور والرسوم لمظاهر الحضارة المادية في ظل الإسلام. وهي لا تمثل إلاّ قليل من كثير مما أبدعه الفكر العربي الإسلامي. وأسهمت به الحضارة العربية الإسلامية في حياة البشرية جمعاء.

الفصل الأول

الحضارات العربية قبل الإسلام

الحضارة: تعريفها ومفهومها:

اختلف المؤرخون وعلماء الاجتماع الأوروبيون في تعريفهم للحضارة، إذ مزجوا بين مصطلحي الثقافة Culture والحضارة civilization، فورد في الموسوعة البريطانية تعريف للعالم البريطاني تايلور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بأن الحضارة بمعناها الأثنوغرافي (أي ذو الصلة بوصف شعوب العالم) هي كلّ مترابط يتضمن المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعرف وأية قدرات وعادات أخرى مكتسبة من الإنسان كعضو في المجتمع. وورد مفهوم الحضارة لدى العالم الأمريكي كيلي بأنها نظام مستنبط تاريخياً من أشكال للحياة التي تميل لأن تكون مشتركة من قبل أفراد أو مجموعة، أن يتضمن اللغة والتقاليد والعادات والمؤسسات والمعتقدات والقيم المحفّزة، وتجسيدها في أدوات مادية[1]. ونلاحظ عند مقارنة المفهومين السابقين أن المفكرين في أمريكا يميلون إلى تغليب الجانب

---

(1) The New Encyclopedia Britannica, 15 Th. Ed., Vol. 4, The University of Chicago, 1973 - 1974, P. 657.

المادي بسبب افتقارهم إلى حضارة وتاريخ.

من ناحية أخرى، لا يقتصر الخلط على مفهومي الحضارة والثقافة بل يتعدى ذلك إلى مصطلحي الحضارة والمدنية، ويظهر ذلك واضحاً من اشتقاق مصطلح الحضارة Civilization من المدنيّة Civilian. ونلاحظ أن ديورانت قد عرّف المدنية بصورة قريبة إلى الحضارة فاعتبر المدنية هي رقة المعاملة والسلوك المهذب الذي ابتدعه سكان المدن ويساعد على ذلك ما تقدمه الصناعة من وسائل الراحة والترف في الحياة، كذلك تفرغ بعض الناس للعلوم المختلفة والفلسفة في حين ينشغل الآخرون بالإنتاج المادي[1].

عرّف العالم العربي ابن خلدون الحضارة، بأنها: «تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله»[2].

ومن خلال هذا الاستعراض للمفاهيم المختلفة للحضارة يمكن أن نضع تعريفاً للحضارة بأنها الجهد المادي والمعنوي الذي خلفه لنا الإنسان في منطقة معينة من معتقدات دينية وأدب وفنون وعلوم وقوانين وعادات وتقاليد وآثار مادية من بناء وصناعات وغيرها. أما المدنية فيمكن القول إنها تركّز على المعرفة الحالية والتطور العلمي والمادي، لذلك يمكن القول إن أمريكا تمتلك المدنية لكنها تفتقر إلى الحضارة.

شروط ونظريات قيام الحضارة:

يستلزم قيام الحضارة توفر مجموعة من الشروط لا يمكن بغيرها أن تتطور أو حتى وجودها، وتتمثل بـ:

1 ـ **العوامل الجيولوجية**: تنشأ الحضارة في الفترة الفاصلة بين عصرين

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، ج1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1965، ص 5.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، (بلا)، ص 172.

جليديين حيث يعتدل المناخ وتتوفر الأمطار، أما في حالة قيام عصر جليدي فإن الحضارة القائمة في المنطقة ستنتهي بعد أن يغمرها الجليد.

2 ـ **العوامل الجغرافية**: ونعني بها أن المناخ الاستوائي شديد الحرارة لا يساعد على قيام حضارة مزدهرة، إذ يؤدي انتشار الأمراض والخمول إلى عرقلة جهود الإنسان في الإنتاج، على عكس المناخ المعتدل والتربة الخصبة والأمطار التي تشجع على ازدهار الحضارة.

3 ـ **العوامل الاقتصادية**: ينشّط التقدم الاقتصادي الحضارة، فربما وجدت حضارات بسيطة لشعوب بدائية لم تتقدم بسبب التأخر في المجال الاقتصادي، وأبرز الأمثلة على ذلك الهنود الحمر. ومن ناحية أخرى يساعد التقدم في الزراعة وصناعة الأدوات على إيجاد حضارة متقدمة.

4 ـ **العوامل الثقافية والاجتماعية**: ونقصد بذلك وجود سلوك اجتماعي متميز في المجتمع وخلق قاعدة من التقاليد والأعراف الاجتماعية وأنماط من الثقافة والإنتاج العلمي والفلسفي تؤدي إلى توحيد المجتمع.

يؤدي فقدان أي عامل من هذه العوامل إلى تدهور الحضارة واندثارها، فحلول الجليد في منطقة ما ينهي الحضارة، ويساعد التغير المناخي الحار أو انتشار الأمراض إلى ضرب الحضارة، وكذلك الحال بالنسبة لتغير الطرق التجارية[1].

من جهة أخرى، وضعت العديد من النظريات لتفسير قيام الحضارات، وأبرزها نظرية التحدي والاستجابة التي وضعها المؤرخ الشهير أرنولد توينبي والتي تتركز على التحديات الطبيعية والجغرافية التي وجدها الإنسان أمامه، فكانت استجابته أو رد فعله تجاه تلك التحديات قد خلقت الحضارات. وفسر توينبي قيام الحضارتين السومرية في وادي الرافدين والمصرية في وادي النيل بالجفاف الذي تعرضت له الصحراء الإفريقية الكبرى والصحارى

(1) ديورانت، قصة الحضارة، ج ، ص 3 ـ 8.

الآسيوية بعد نهاية العصر الجليدي إلى إجبار السكان على التحرك نحو سهول وادي الرافدين ووادي النيل وخلق الحضارات فيهما[1].

أما نظرية البيئة فقد أكدت على دور العامل الجغرافي في بناء الحضارة وشدّدت على أن الحضارات تقوم في المناطق المعتدلة واستبعدت المناطق المتجمدة والحارة.

وفسرت نظرية المادية التاريخية التي تبناها العديد من المفكرين أبرزهم كارل ماركس وإنجلز قيام الحضارات الدافع الاقتصادي وأن نتاج الحضارات البشرية من عادات وتقاليد وفنون ونظم يعود إلى دور العامل الاقتصادي وأنه وراء التغيرات الاجتماعية والحروب والهجرات وقيام الدول، وأن التناقض هو القوة الدافعة للتاريخ الطبيعي والإنساني بمعنى أن الصراع بين عاملين متناقضين قد أدى لتطور التاريخ الإنساني. وقسمت هذه النظرية التاريخ البشري إلى مراحل متعددة حسب النظام الاقتصادي السائد[2].

وهناك نظريات أخرى وضعت لتفسير قيام الحضارات منها النظرية العنصرية التي احتكرت قيام الحضارات على العنصر الأبيض.

---

(1) أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد سبل، ج 1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960، ص 101 ـ 117.

(2) رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، دار الثقافة، القاهرة، 1991، ص 149 ـ 164.

حضارات وادي الرافدين

يعود الاستيطان البشري في العراق إلى فترات زمنية بعيدة جداً حيث كان مستقراً للكثير من العناصر التي فضلت الهجرة من مواطنها الأصلية إليه. ومرّ العراق، الذي أطلق عليه بلاد ما بين النهرين أو بلاد الرافدين نسبة إلى نهري دجلة والفرات، بكافة العصور التي شهدها التاريخ البشري.

عصور ما قبل التاريخ:

استقر الإنسان في الكهوف في العصر الحجري القديم، ومن أهم ما عثر عليه آثار كهف شنايدر في الشمال. وعرفت المنطقة أول استيطان زراعي منظم في العالم وتجسّد ذلك في قرية جرمو التي تعود إلى منتصف الألف السابع قبل الميلاد. واحتوت القرية على منازل بسيطة وأدوات زراعية وبقايا الحبوب والحيوانات مما يدل على معرفة السكان بالزراعة وتدجين الحيوانات، وعثر أيضاً على تماثيل صلصالية فهم منها اعتناق السكان للديانة الوثنية القديمة[1].

وبتوالي عصور ما قبل التاريخ، ظهرت ملامح التطور بوضوح في مجال الزراعة والصيد وصنع الفخار وأدوات الصيد والزراعة. ومن أبرز الحضارات التي ظهرت هي حضارة حسونة في أواخر الألف السادس قبل الميلاد، وحضارة حلف التي شهدت تقدماً في مجال صناعة الأدوات

(1) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط 3، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص 331 ـ 332.

والتماثيل الدينية. وكانت حضارتا الوركاء وجمدة نصر (بحدود 3400 ق. م) من أواخر الحضارات التي ظهرت قبل اختراع الكتابة. ويبدو أن نمط الحضارة في الوركاء قد شهد تطوراً ملحوظاً من خلال نحت التماثيل والصناعات وبناء المعابد المتدرجة، التي أطلق عليها الزقورة[1].

ويعد اختراع الكتابة من أبرز الانقلابات الخطيرة التي غيّرت مسار التاريخ البشري، وسبق التدوين في العراق المناطق الأخرى في العالم وعرفت بالكتابة المسمارية لأنها كانت تكتب برؤوس مدببة تشبه المسامير، وظهرت في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد. ومرت الكتابة بعدة مراحل من التطور فابتدأت بالمرحلة الصورية حيث التجأ الإنسان القديم إلى رسم الشيء الذي يريد التعبير عنه على قطعة من الطين الطري. وتميزت هذه المرحلة بالتعقيد إذ تجاوز عدد العلامات الصورية الألفي علامة. وتقلصت هذه العلامات بمرور الزمن، وتغير اتجاه الكتابة فأصبح من اليسار إلى اليمين بدلاً من الأعلى إلى الأسفل. أما المرحلة الثانية فأطلق عليها الرمزية حيث استخدم الإنسان رموزاً للتعبير عن الأشياء لها علاقة بالشيء المادي، فاستخدم الشمس مثلاً للتعبير عن النهار. أما المرحلة الثالثة فتمثلت بالمقطعية الصوتية حيث تحولت الكتابة إلى مجموعة من المقاطع الصوتية[2].

السومريون:

برز مع بدء العصور التاريخية دور السومريين واضحاً في الحياة السياسية والحضارية في العراق ـ واختلف الباحثون في تحديد أصل السومريين أو المناطق التي جاءوا منها، ولكن يمكن القول إنهم سكان العراق الأصليون وأول من دوّن لغته بالخط المسماري. وبنى السومريون حضارة متقدمة آنذاك تركت بصماتها في المناطق الأخرى المأهولة في العالم.

(1) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق، ص 334 ـ 340.

(2) عامر سليمان وأحمد مالك القتيان، محاضرات في التاريخ القديم، ج 1، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، بلا، ص 63 ـ 64.

فعلى الصعيد السياسي، ظهرت أولى الحكومات المحلية التي أطلق عليها دويلات المدن حيث سيطرت كل أسرة حاكمة على مدينة رئيسية وما جاورها من أراضٍ، ومن أبرزها السلالات التي حكمت مدن أور ولكش وكيش وغيرها. وكان الصراع بين هذه الدويلات سمة أساسية من سمات ذلك العصر.

من الناحية الدينية، عبد السومريون آلهة مختلفة اعتقدوا أنها تتحكم في حياتهم، وكان للكهنة دور أساسي في الحياة الاجتماعية - وخلّف السومريون عدداً من المعابد المتدرجة (الزقورات) التي كانوا يمارسون عباداتهم فيها. وآمن السومريون بالحياة بعد الموت حيث دفنوا أدوات الميت معه.

أما على الصعيد الاقتصادي فقد ازدهرت الزراعة والتجارة في بلاد سومر وظهر الاهتمام واضحاً بإقامة مشاريع للري نظراً لقلة سقوط الأمطار، وأدى ذلك أيضاً إلى تطور علوم الهندسة والحساب والفلك بهدف التحكم في أوقات الفيضان ووضع تصور دقيق عن مشاريع الري. وتعدت التجارة نطاق الداخل إلى البلدان الأخرى مثل سوريا وآسيا الصغرى والخليج العربي والهند. وشهدت الصناعات اليدوية مثل الأدوات الزراعية والحلي والأواني والأسلحة تطوراً ملحوظاً.

وينطبق التطور الحضاري للسومريين أيضاً على النواحي الفنية والأدبية، حيث شهد النحت تطوراً كبيراً تمثل في المنحوتات البشرية والحيوانية وبناء المقابر والرسوم على جدران المعابد. وعرف السومريون أيضاً الموسيقى والأغاني، وخلّفوا نتاجاً غزيراً من الأدب يأتي في مقدمته ملحمة جلجامش التي تحدثت عن الطوفان والصراع بين آلهة الخير والشر والحياة بعد الموت[1].

الأكديون:

شهدت بلاد ما بين النهرين أول دولة موحدة في عهد الملك سرجون الآكدي بحدود 2400 ق. م مؤسساً امبراطورية دامت ما يقارب القرنين قبل

(1) سامي سعيد الأحمد، العراق القديم، ج 1، منشورات كلية الآداب، بغداد، 1978، ص 278 - 397.

أن تنهار على يد الكوتيين. والأكديون عناصر هاجرت من شبه الجزيرة العربية قبل قرون من إقامة دولتهم. وعاد السومريون مؤقتاً إلى الحكم مؤسسين سلالة أور الثالثة، وأبرز حكامها أورنمو الذي اشتهر بالإصلاحات في مختلف المجالات ووضع قانوناً سبق شريعة حمورابي بحوالى ثلاثة قرون.

على الرغم من استمرار جوانب عديدة من الحضارة السومرية في العهد الأكدي فإن تغييرات حضارية هامة قد حدثت في هذا العهد لعل أبرزها حلول اللغة الأكدية ـ ذات الأصول العربية القديمة ـ محل اللغة السومرية في التخاطب مع استمرار استخدام الخط المسماري. والتجأ الأكديون أيضاً إلى تعزيز سلطتهم السياسية بالإدعاء أنهم ممثلون للآلهة في الأرض. وأدت الفتوحات العسكرية الواسعة إلى نشر اللغة الأكدية والخط المسماري في أنحاء متعددة من العالم القديم[1].

البابليون:

قامت في بابل حضارة مزدهرة خلال العهدين البابليين القديم والحديث. وأقامت الدولة البابلية القديمة ـ بحدود بداية الألف الثاني ق. م إلى منتصف الألف الثاني ق. م ـ أقوام هاجرت من شبه الجزيرة العربية باتجاه سوريا والعراق أطلق عليها الأموريون وتعني الغرب إشارة إلى الجهة التي جاءوا منها. وتمكن الأموريون من السيطرة بالتدريج على المدن السومرية وطرد العيلاميين الذين أسقطوا سلالة أور الثالثة. وأبرز حكام البابليين الملك حمورابي الذي تمكن من توحيد العراق تحت سلطته والقضاء على الدويلات المنافسة ومد نفوذه إلى سوريا، إلاّ أن أبرز إنجازات حمورابي هي وضعه لما يُعد أقدم مجموعة متكاملة من القوانين بتوحيده للتشريعات القديمة[2].

---

(1) عامر سليمان، محاضرات في التاريخ القديم، ص 97 ـ 109.

(2) المرجع نفسه، ص 119 ـ 132.

احتوت شريعة حمورابي على حوالى 300 مادة ـ بما فيها المواد التي حذفت عمداً فيما بعد ـ تنظم شؤون الحياة المختلفة، وأبرز المبادىء التي وردت فيها مبدأ «العين بالعين والسن والسن» التي توخت العدالة في تطبيق العقوبة وفقاً لجسامة الجريمة. وقد وردت عقوبة الإعدام في حالات عديدة منها ممارسة السحر، وشهادة الزور في القضايا الجنائية، وسرقة المعابد، وتسهيل هروب الرقيق، وقطاع الطرق، وجرائم الاغتصاب، والمعماري الذي يبني منزلاً ثم ينهار بسبب الاهمال في البناء ويموت صاحبه. وفرضت عقوبة قطع اليد على الابن الذي يضرب أباه، وعلى الجرّاح الذي يفقأ عين المريض. وحدّدت مواد متعددة الغرامات والتعويضات على حالات معينة.

شهدت الدولة البابلية تقدماً حضارياً كبيراً في تلك الفترة حيث استمر الاهتمام بالري والزراعة التي كانت عصب الحياة آنذاك، وقام حمورابي بشق نهر لتوسيع الزراعة، وحفرت العديد من قنوات الري وانشأت السدود لتنظيم عملية الري.

أما على صعيد الصناعة فقد ظهر واضحاً من خلال تحديد أجور العمال، وتنظيم عملية تدريب وتعليم الصبيان للصناعات المختلفة، وشهدت بعض الصناعات مثل النسيج والأسلحة تقدماً بيّناً.

استمر الازدهار التجاري الذي عرفته المدن السومرية في العهد البابلي، وشهدت التجارة الخارجية مع البلدان المجاورة نمواً واضحاً فأصبحت بابل بفضل موقعها الجغرافي وأهميتها السياسية كعاصمة للدولة مركزاً أساسياً لتجارة الشرق، وانعكس هذا جليّاً في شريعة حمورابي التي خصصت العديد من المواد لتنظيم التجارة والعقود[1].

ومن الناحية الدينية، كان الملك نائباً للإله واستمرت عبادة العديد من الآلهة التي تجاوزت عشرات الألوف واختلفت أهميتها بين مدينة وأخرى.

---

(1) ل. دي بورت، بلاد ما بين النهرين الحضارتان البابلية والآشورية، ترجمة محرم كمال، سلسلة الألف كتاب، القاهرة، بلا، ص 119 ـ 143.

ومن أشهر تلك الآلهة أنو وأنيليل وأيا، ومجموعة أخرى ضمت سن (إله القمر) وشماش (إله الشمس) وعشتار (إلهة الجمال) ثم أصبح الإله مردوخ الإله الأعظم في بابل. وكان للمعبد أهمية كبرى في الحياة السياسية والاجتماعية حيث أدى كبار الكهنة دوراً هاماً في الحياة، وكانوا يقومون بإضفاء الشرعية على الملك. وعلى الرغم من إشارة بعض النصوص البابلية إلى الإله مردوخ بأنه «يحيي الموتى»، لكن يبدو أن البابليين لم يؤمنوا بصورة جدية في الحياة بعد الموت بل ركّزوا على الحياة الدنيا لذلك لم يعرفوا تحنيط الجثث[1].

شهدت الفنون ازدهاراً كبيراً، وأوضح الأمثلة على ذلك مدينة بابل وقصورها وشوارعها ومعابدها والتماثيل المنحوتة والنقوش وعرف البابليون أيضاً وحدات القياس والمساحة وتقسيم السنة إلى شهور وإطلاق التسميات عليها، والاهتمام بالطب والأدوية، وتقدماً في علم الفلك حيث راقبوا الكثير من الأجرام السماوية ووضعوا الملاحظات عنها[2].

الآشوريون:

الآشوريون عناصر هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى شمال وادي الرافدين منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وعرفوا بهذا الاسم نسبة إلى إلههم القومي آشور. وتمكن الآشوريون من إقامة دولة قوية عسكرياً بعد أن خضعت فترة طويلة لسلطة بابل. وامتدت سيطرة الدولة الآشورية من العراق باتجاه سوريا وجزء كبير من مصر. وأعقب الدولة الآشورية الدولة الكلدانية التي قامت في بابل، ومن أشهر ملوكها نبوخذنصر الذي اسقط مملكة يهوذا ودخل بيت المقدس وجاء بعدد كبير من اليهود أسرى إلى بابل فيما عرف بـ «السبي البابلي لليهود»، ويعود إليه أيضاً إقامة جنائن بابل المعلقة. وسقطت بابل عاصمة الكلدانيين عام 539 ق. م على يد الفرس لتخضع بلاد ما بين

---

(1) ديورانت، قصة الحضارة، ج 2، ص 211 ـ 228.

(2) ديلابورت، بلاد ما بين النهرين، ص 208 ـ 232؛ 272 ـ 284.

النهرين للسيطرة الأجنبية حتى الفتح العربي الإسلامي[1].

امتازت الحضارة الآشورية بالتفوق في ميدان الجيش والأسلحة حيث كان الآشوريون قوماً محاربين اهتموا بالجيش فوضعوا نظماً للتعبئة والقتال اعتمدت على السرعة، وعنوا بجنودهم فألبسوهم الخوذ والدروع الحديدية لحمايتهم، واخترعوا العربات لتسهيل حركتهم، واستخدموا آلات وأسلحة حربية متقدمة آنذاك.

أما الحياة الاقتصادية فكانت مشابهة إلى حد بعيد لبابل باستثناء التركيز على الزراعة في آشور أكثر من التجارة، لهذا برز الاهتمام بإقامة مشاريع الري وأهمها النهر الذي حفره الملك سنحاريب لإيصال المياه إلى العاصمة نينوى.

وفيما يخص الحياة الدينية فلم يكن للدين ذلك التأثير على الملوك الآشوريين مثلما كان الحال في بابل. وكان أبرز الآلهة هو الإله آشور.

وتركت بابل آثارها على الحياة العلمية لدى الآشوريين، الذين خلّفوا سجلات تاريخية دوّنوا فيها الفتوحات الآشورية، كما ترك آشور بانيبال مكتبة ضخمة ضمت عشرات الآلاف من الألواح الطينية منظمة ومفهرسة احتوت على الكثير من العلوم والآداب المعروفة آنذاك.

ازدهرت أيضاً الفنون في مملكة آشور تمثلت في القصور التي بنيت في العواصم الآشورية والنقوش والثيران المجنحة[2].

(1) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق، ص 372 ـ 386.

(2) ديورانت، قصة الحضارة، ج 2، ص 272 ـ 296.

حضارة وادي النيل

عصور ما قبل التاريخ:

يعود وجود الإنسان في مصر إلى عصور سحيقة في القدم، إذ عثر على الكثير من آثار الإنسان في العصر الحجري القديم من أدوات صيد ومعيشة، كما وجدت آثار تدل على ممارسة الإنسان للزراعة في بلدة البداري التي يعود تاريخها إلى حوالى 4000 ق. م. وعرف الإنسان في هذه الفترة، علاوة على الصيد والزراعة وصناعة الأدوات البسيطة، بعض المظاهر الأخرى مثل الرسم على الجدران.

عرفت الفترة التي سبقت العصور التاريخية في مصر وتوحيد البلاد وقيام الدولة فيها بعصر ما قبل السلالات. وأخذت تظهر في هذا العصر حكومات محلية في المدن الرئيسية إلى أن تجمعت في مملكتين إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب. وتمكن مينا من توحيد المملكتين في مملكة واحدة متخذاً من مدينة منف (منفيس) عاصمة له ليؤسس بذلك أول الأسر الحاكمة في مصر الموحدة[1].

المراحل التاريخية لمصر:

حكمت مصر بعد توحيدها إحدى وثلاثون أسرة في مراحل تاريخية

(1) سير ألف جاردنر، مصر الفرعونية، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص 420 ـ 444.

مختلفة يمكن تقسيمها إلى:

1 ـ عهد الدولة القديمة (حوالى 3200 ق. م ـ 2134 ق. م): ويشمل حكم الأسرة الأولى إلى الأسرة العاشرة. وتم في عصر الأسرة الرابعة بناء أهرامات الجيزة الثلاثة: خوفو وخفرع ومنقرع.

2 ـ عهد الدولة الوسطى (2134 ق. م ـ 1580 ق. م) ويشمل حكم الأسرة الحادية عشر إلى السابعة عشر. ومن أبرز الحوادث التي وقعت في هذا العهد استيلاء أقوام عرفوا بالهكسوس (أي الملوك الرعاة) على الحكم في مصر، ولا يعرف بالضبط أصلهم على الرغم من أن أقوى الاحتمالات ترجح أنهم جاءوا من الجزيرة العربية.

3 ـ عهد الدولة الحديثة (1580 ق. م ـ 1087 ق. م) من الأسرة الثامنة عشر إلى العشرين، ومن أبرز ملوكها أحمس الذي طرد الهكسوس من مصر، وامنحوتب الرابع (أخناتون) الذي قام بانقلاب ديني في مصر وحاول توحيد العبادات المختلفة في عبادة الإله آتون، وتوت غنخ آمون ورمسيس الثاني.

4 ـ عهد الضعف (1080 ق. م ـ 664 ق. م) من الأسرة الحادية والعشرين إلى الأسرة الخامسة والعشرين ـ وقد تمكن كبار الكهنة من الوصول إلى الحكم، ومع تفاقم حالة الضعف في البلاد سيطرت إحدى الأسر الليبية بزعامة شيشنق على الحكم ثم أعقبها النوبيون. وانتهى الأمر بالاحتلال الآشوري لمصر[1].

5 ـ عهد النهضة (664 ق. م ـ 525 ق. م) وشهد حكم الأسرة السادسة والعشرين التي تمكنت من طرد الآشوريين من مصر.

6 ـ عهد الفوضى الأخير (525 ق. م ـ 332 ق. م) وشمل حكم

(1) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق، ص 99 ـ 225.

الأسرة السابعة والعشرين إلى الأسرة الواحدة والثلاثين، وخضعت مصر معظم هذه الفترة للغزو الفارسي ثم لغزوات أجنبية أخرى حتى تحريرها من قبل العرب المسلمين[1].

جوانب الحضارة المصرية:

1 ـ **نظام الحكم والإدارة**: عرفت مصر نظاماً متطوراً للحكم والإدارة كان على رأسه الملك الفرعون، فعلاوة على سلطاته الدينية باعتباره من سلالة الآلهة، تمتع الفرعون بسلطات قضائية واسعة ـ وكان يساعد الفرعون الوزير وموظفون آخرون أشرفوا بدقة على إدارة البلاد وجباية الضرائب.

2 ـ **الحياة الاقتصادية**: كانت الأرض الزراعية في مصر مملوكة للفرعون أو كبار الأمراء ورجال الدولة ويعمل فيها الفلاحون لقاء نسبة من المحصول، كما كانوا مجبرين في أوقات معينة على العمل بالسخرة لصالح الفرعون لتطهير قنوات الري أو إنشاء الطرق أو العمل في أراضي الفرعون.

أما في مجال الصناعة فقد كانت مصر تستورد معظم المعادن من خارج البلاد علاوة على وجود بعض المناجم في الداخل حيث سخّر العبيد والسجناء والأسرى للعمل فيها. وتقدمت صناعة الأدوات البرونزية والأسلحة والمعدات الحربية والزجاجيات والفخار والمنسوجات، واستخدام نبات البردي في صناعة الورق والحبال والحصر ـ وشكّل كل عمال صناعة معينة فئة اجتماعية خاصة[2].

3 ـ **الحياة الدينية**: كعادة الديانات الوثنية الأخرى، كانت هناك أعداد كبيرة من الآلهة التي آمن بها المصريون القدماء، فنجد لكل مدينة، أو ربما لكل بيت، إلهه الخاص. ومن أشهر تلك الآلهة إله الشمس رع، وأوزيريس إله الموتى والخلود، وإيزيس آلهة السحر، وإله القمر آمون الذي كان إلهاً

(1) جاردنر، مصر الفرعونية، ص 384 ـ 411.

(2) ديورانت، قصة الحضارة، ج 2، ص 83 ـ 94.

لطيبة ثم فرض على جميع مصر[1].

حدث انقلاب خطير في الديانة المصرية بمحاولة الفرعون امنحوتب الرابع فرض عبادة قرص الشمس (آتون) وسمى نفسه أخناتون وغادر العاصمة طيبة وبنى مدينة جديدة سماها أفق آتون (وتدعى الآن تل العمارنة). وكان من الطبيعي أن يثير هذا التغيير الخطير حفيظة كهنة الآلهة الأخرى ـ ولم تستمر الديانة الجديدة طويلاً، فبعد وفاة أخناتون أعاد خلفه توت غنخ أمون عبادة الآلهة القديمة[2].

آمن المصريون القدماء بالحياة بعد الموت والخلود لهذا اهتموا بتحنيط أجساد الموتى لحفظها، وإقامة المقابر الفخمة، ودفن أدوات الميت معه للاستفادة منها في الحياة الأخرى[3].

4 ـ **الناحية التعليمية والثقافية**: قامت المدارس الملحقة بالمعابد بدور بارز في التعليم، وكان من أبرز أهداف التعليم إعداد الكتبة للقيام بوظائف الدولة. وعرف المصريون القدماء صناعة الورق من نبات البردي للكتابة عليه، وكان من الجودة والإتقان بحيث لم ينله التلف لأكثر من خمسة آلاف عام. وقد وصلتنا الكثير من القطع الأدبية والحوادث التاريخية المدوّنة باللغة الهيروغليفية المصرية.

تميزت العلوم عند المصريين بأنها كانت متقدمة مثل الرياضيات التي كانوا بأمس الحاجة إليها لعمل قياسات دقيقة للأهرامات وقياس ارتفاع وانخفاض مياه نهر النيل، أما الفلك فكان أقل تقدماً من حضارة وادي الرافدين لا سيما في مجال الكواكب والنجوم ورصد حركتها حيث اعتبرها

---

(1) واليس بدج، الديانة الفرعونية، ترجمة نهاد خياطة، دار العربي، دمشق، 1986، ص 93 ـ 100.

(2) جيمس هنري برستد، العصور القديمة، ترجمة دار قربان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 99 ـ 103.

(3) بدج، الديانة الفرعونية، ص 167 ـ 170.

الكهنة من العلوم الخفية. وقسم المصريون السنة إلى ثلاثة فصول حسب فيضان نهر النيل وانخفاض مياهه. وشهد الطب تقدماً بارزاً حيث عرف المصريون القدماء الكثير من الأمراض ووضعوا العلاج لها، على الرغم من إيمانهم بفوائد التمائم والسحر في علاج بعض الأمراض. ويرجع جانب مهم من اهتمام المصريين القدماء بالطب إلى كونه أساساً لعملية تحنيط أجساد الموتى ذات الأهمية الدينية.

5 ـ **الناحية الفنية**: يعد الفن من أهم المخلفات الحضارية التي تركتها مصر القديمة، ويأتي في المقدمة فن العمارة المتمثل ببناء المعابد والمقابر الفخمة والقصور بالحجر ونقشها، وأبرزها أهرامات الجيزة الثلاثة وتمثال أبو الهول ومعبد الكرنك ـ وكان الدين الموحي الأول بالكنوز المعمارية والفنية المصرية[1].

(1) ديورانت، قصة الحضارة، ج 2، ص 104 ـ 148.

الحضارة السورية*

عصور ما قبل التاريخ:

عثر على آثار تدل على وجود الإنسان في العصر الحجري القديم في أماكن عدة من سوريا أبرزها رأس شمرا (أوجاريت) وبعض كهوف الكرمل وطبرية وأنطلياس. واتخذ الإنسان في العصر الحجري الوسيط المنازل للسكن، وظهرت بدايات الزراعة والعبادات وصناعة الأواني المنزلية. وتم العثور على أقدم المساكن في أريحا ورأس شمرا، لكن الأدوات المستخدمة في الزراعة والأواني الفخارية المتأثرة بحضارة وادي الرافدين لم تظهر إلاّ في العصر الحجري الحديث[1].

ومن أهم الشعوب التي أقامت الدول أثناء العصور التاريخية، هي:

الأموريون:

هم أحد الشعوب الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية بحدود منتصف الألف الثالث قبل الميلاد واستقروا في المناطق الداخلية من سوريا، وأقاموا عدداً من الدول في العراق وسوريا، وتعني كلمة أمورو في اللغة الأكدية الغرب للإشارة إلى سوريا التي تقع إلى الغرب من العراق.

(*) نقصد بسوريا هنا سوريا الطبيعية التاريخية أو بلاد الشام وهي سوريا ولبنان والأردن وفلسطين.

(1) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق، ص 264 ـ 269.

وتعد مملكة ماري أهم دولة أقامها الأموريون في سوريا، إلاّ أن الدول الأمورية قد تعرضت إلى التوسع المصري والحيثي والبابلي والآشوري. وقد تأثر الأموريون بحضارة وادي الرافدين وانعكس ذلك على مناحي الحياة المختلفة. وتعد اللغة الأمورية إحدى اللهجات العربية القديمة التي كتبت بالخط المسماري. ومن الناحية الدينية، عبد الأموريون العديد من الآلهة أهمها الإله أمورو إله الحرب، والإله إدد، والإلهة عشتار. وأتقن الأموريون صناعات عديدة منها صناعة النسيج والأسلحة[1].

الكنعانيون (الفينيقيون):

هم إحدى الشعوب التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية في الوقت نفسه الذي هاجر فيه الأموريون، واستقروا في المناطق الساحلية لسوريا. وعرف الكنعانيون أيضاً بالفينيقيين وهي كلمة يونانية تعني الأحمر الأرجواني وأطلقت على سكان الساحل السوري لشهرتهم بصناعة الألوان والملابس الأرجوانية اللون.

ولم تظهر دولة موحدة للكنعانيين بل أسسوا عدداً من الدويلات ضمت كل واحدة منها مدينة رئيسية[2]. وتمكن الآشوريون عبر حملات متعددة من احتلال المدن الفينيقية الساحلية، وتداول على المنطقة حكام العراق ومصر وفارس قبل أن تخضع أخيراً للسيطرة الرومانية حتى الفتح العربي الإسلامي[3].

وأقام الفينيقيون حضارة مزدهرة، وجاءت شهرة حضارتهم بشكل أساسي من ممارستهم للتجارة وارتياد البحار. وكان الفينيقيون قد استخدموا أخشاب لبنان لصناعة السفن، واحتكروا أسرار الملاحة البحرية فداروا حول

---

(1) عامر سليمان، محاضرات في التاريخ القديم، ص 373 ـ 342.

(2) أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط 4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1984، ص 107 ـ 108.

(3) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق، ص 279 ـ 282.

أفريقيا واكتشفوا طرقاً بحرية جديدة، واستعانوا بالنجم القطبي في الملاحة ليلاً، وكانوا أول من استخدم المحيط الأطلسي للملاحة. وأسس الفينيقيون مستوطنات في قبرص وسردينيا وقادس وقرطاجة وصقلية، ووصلت تجارتهم إلى بريطانيا ومناطق بعيدة أخرى[1].

واهتم الفينيقيون أيضاً بالزراعة وطرق الري، كما عرفوا أيضاً تعدين النحاس والبرونز واستخدام الحديد، وتفننوا في صناعة الحلي الذهبية والفضية وأدوات الزينة والصناعات العاجية والزجاجية والمنسوجات التي كانت تُعد من أفضل الصناعات المعروفة آنذاك لإتقان الفينيقيين الأصباغ الزاهية. ومن الأدلة الراسخة على تقدم الصناعة الفينيقية أن الكثير من منتوجاتها قد عثر عليه في مناطق عديدة ونائية في العالم، علاوة على منتوجات مصر التي كانوا يتاجرون فيها[2].

ومن أبرز الإنجازات الثقافية للفينيقيين هي توصلهم إلى الحروف الهجائية التي أحدثت إنقلاباً خطيراً في تطور الكتابة، ونقلوا هذه الحروف إلى اليونان ثم أوروبا وكانت أساساً لظهور الكتابة اللاتينية. كما قام الفينيقيون بنقل علوم حضارة وادي الرافدين لا سيما في الرياضيات والفلك إلى اليونان وكانت أساساً للعلوم التي عرفت عن الإغريق وادعى الأوروبيون أنهم نقلوها إلى العرب فيما بعد[3].

وعبد الفينيقيون ـ كحال الأقوام الوثنية الأخرى، العديد من الآلهة من أشهرها إله السماء بعل، وإلهة الأرض عشتار، والشجرة المقدسة، وأقاموا المعابد لتلك الآلهة. واعتقد الفينيقيون بالحياة بعد الموت لذلك كانوا يدفنون أدوات الميت معه، لكنهم لم يستخدموا التحنيط إلاّ للملوك مما يدل على تأثرهم بالديانة المصرية القديمة فيما يختص بحياة ما بعد الموت، والديانة

---

(1) عامر سليمان، محاضرات في التاريخ القديم، ص 347 ـ 348.

(2) أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق، ص 117 ـ 118.

(3) جورج عطية، من حضارتنا، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1956، ص 30.

العراقية فيما يخص الآلهة[1].

الآراميون:

هم أقوام هاجرت من شبه الجزيرة العربية حوالى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد واجتاحت وسط وشمال سوريا مؤسسين عدداً من الدول أبرزها دمشق. وكانت دولة الآراميين في دمشق في عداء مستحكم مع الدولة العبرانية التي أقامها اليهود في فلسطين، ودخلت في سلسلة من الحروب ضدها. وانتهت الدولة الآرامية على يد الآشوريين عام 732 ق. م[2].

وتعد اللغة الآرامية وخطها المشتق من الأبجدية الفينيقية من أبرز المظاهر الحضارية للآراميين حيث تحولت إلى لغة عالمية آنذاك فاستخدمها الآشوريون والفرس والأنباط، وتفرع الخط النبطي الذي اشتق منه الخط العربي من الكتابة الآرامية.

واشتهر الآراميون أيضاً بالنشاط التجاري، وكان هذا النشاط وسيلة مهمة في نقل ثقافتهم إلى مناطق واسعة من العالم. وكان الآراميون وسطاء في نقل التجارة نظراً لموقع بلادهم الجغرافي المهم، فقاموا بالنشاط التجاري البري وأسسوا عدداً من المحطات التجارية[3].

وفيما يتعلق بالديانة الآرامية فإنها لم تختلف كثيراً عن ديانة الكنعانيين أو الأموريين، وكان الإله الرئيسي هو إدد إله الرعد والأمطار، وإلهة الخصب عشتار. ويعتقد أن المسجد الأموي في دمشق قد أقيم على أنقاض معبد الإله إدد[4].

---

(1) عامر سليمان، محاضرات في التاريخ القديم، ص 352 ـ 353.
(2) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق، ص 382 ـ 383.
(3) عامر سليمان، محاضرات في التاريخ القديم، ص 357 ـ 358.
(4) أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق، ص 106.

حضارة المغرب العربي

عصور ما قبل التاريخ:

استوطن الإنسان في المغرب العربي منذ عصور سحيقة في القدم، وقد وجدت أدلة على ذلك من خلال الرسوم التي خلّفها الأقدمون على الصخور في فزان وجبل العوينات في ليبيا، وصوّرت أشكالاً آدمية وحيوانية. وصنع الإنسان في العصر الحجري القديم أدوات حجرية بسيطة عثر عليها في توكره ووادي الكوف ـ وعرفت مناطق من ليبيا الاستيطان الزراعي بحدود بداية الألف الخامس قبل الميلاد[1].

وفي مناطق أخرى من المغرب العربي، عثر على أقدم الأماكن التي تمثل العصر الحجري القديم في موقع عين حنش شرقي مدينة سطيف في الجزائر، وعرباوه غربي المغرب الأقصى ووجدت في تلك المواقع بعض الأدوات الحجرية التي استخدمها الإنسان آنذاك.

ظهرت في أواخر العصر الحجري القديم حضارة قفصه في تونس بحدود الألف السابع قبل الميلاد، وانتشرت في شرقي الجزائر والمناطق الأخرى شمالاً وجنوباً. وسعى الإنسان في هذه المرحلة إلى تطوير أدوات معيشته، والتعبير عن أفكاره بالرسوم والمنحوتات البسيطة، وبدايات ظهور

---

(1) عبد اللطيف محمود البرغوتي، التاريخ الليبي القديم، دار صادر، بيروت، 1971، ص 29 ـ 59.

الديانة الوثنية[1].

أما في شرقي ليبيا، فقد امتزج تاريخ المنطقة مع تاريخ وادي النيل وتبادل الطرفان الغزوات والتأثيرات الحضارية منذ عصر ما قبل السلالات، إلى حد تمكنت فيه إحدى القبائل الليبية من الاستيلاء على الحكم في مصر. وأخذت المناطق الشرقية تفقد استقلالها وتخضع للحكم الإغريقي منذ تأسيسهم لمدينة قورينا (شحات) عام 631 ق. م، ثم للسيطرة الرومانية والبيزنطية[2].

أما في فزان فشهدت ظهور الجرامنتيون بحدود القرن الثامن قبل الميلاد وتركزوا في واحات وادي الآجال، وانتشروا حتى جبل نفوسه وغدامس والكفرة. وكوّن الجرامنتيون دولة حكمت فزان والمناطق المجاورة متخذين من جرما عاصمة لهم.

وتميزت حضارة الجرامنتيين بالاهتمام بالزراعة والتجارة، وقد اتخذوا العديد من الطرق الصحراوية في التجارة وشيّدوا الحصون لحمايتها، واستخدموا النجم للسير ليلاً وأصبحت جرما آنذاك من أبرز المراكز التجارية للقوافل القادمة من أواسط أفريقيا والتي كانت تربطها بالساحل. واشتهرت جرما أيضاً بصناعة الحلي الذهبية بالإضافة إلى بعض الصناعات الأخرى. وازدهرت الفنون حيث عثر على رسوم منقوشة على الصخور، وأعدادٍ كبيرة من المقابر والأضرحة الهرمية الشكل. أما الحياة الدينية فتمثلت بعبادة العديد من الآلهة منها الإلهة تانيت الليبية، والإله زيوس آمون.

وعرف الليبيون في عصر ما قبل التاريخ لغة خاصة بهم، وفي نهاية تلك العصور دوّنت هذه اللغة بالحروف الأبجدية، وعثر على أقدم نص مكتوب بالحروف الأبجدية يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، كما عثر على

---

(1) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ج 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 75 ـ 121.

(2) عبد اللطيف محمود البرغوتي، التاريخ الليبي القديم، ص 103 ـ 130.

نقوش مكتوبة بهذه اللغة في مصر والجزائر وتونس[1].

عهد الفينيقيين:

يؤشر العديد من المؤرخين بداية العصور التاريخية في المغرب العربي مع وصول نفوذ الفينيقيين إلى المنطقة، ويمكن استثناء ليبيا من هذا التحديد حيث ظهرت ملامح العصور التاريخية قبل هذا العهد.

تناولنا في صفحات سابقة هجرة الفينيقيين إلى ساحل سوريا وتأسيسهم لعدد من الدول أبرزها صور وصيدا، والتي توسعت بدورها فأسست كل واحدة منها عدداً من المراكز التي أسسها الفينيقيون كقرطاجة على الساحل التونسي، التي تحولت إلى قوة عظيمة آنذاك فاقت المستوطنات الفينيقية الأخرى على الساحلين المغربي والأسباني، وازدادت أهمية دولة قرطاجة في القرن السادس قبل الميلاد بعد سقوط المراكز الفينيقية في المشرق، وسيطرتها على عدد من المستوطنات والجزر في البحر المتوسط وسواحله الجنوبية. ولم يكن بإمكان الرومان المتاجرة في البحر المتوسط بدون إذن الفينيقيين، إلى حد أن البعض ذكر أن الرومان كانوا حذرين من غسل أيديهم في البحر المتوسط بغير موافقة قرطاجة.

أدى التنافس الفينيقي ـ الروماني إلى قيام حروب طويلة بينهما استغرقت أكثر من قرن، وعرفت هذه بالحروب البونية (نسبة إلى اسم الفينيقيين) وآخرها الحرب التي قادها هانيبال حيث عبر جبال الألب ووصل روما، لكنه اضطر للعودة مرة أخرى إلى قرطاجة التي لم تسلم من هجوم الرومان. وسقطت قرطاجة بيد الرومان، الذين قاموا بتدميرها وحرقها عام 146 ق. م لتخضع المنطقة لسيطرة الرومان[2].

ولم تقتصر السيطرة الفينيقية على ساحل تونس بل أقاموا محطات

(1) عبد اللطيف محمود البرغوتي، التاريخ الليبي القديم، ص 314 ـ 322.

(2) عامر سليمان، محاضرات في التاريخ القديم، ص 349 ـ 350.

تجارية في صبراته وأويا (طرابلس) ولبده ومناطق أخرى على الساحل الليبي، وذكر بعض المؤرخين أن عددها في تلك المنطقة قد وصل إلى عشر مستوطنات. وكان لهذه المستوطنات حرية واسعة في إدارة شؤونها الداخلية مع احتفاظها بالتبعية لقرطاجة. وتمتعت المستوطنات الفينيقية في ليبيا بالاستقلال بعد سقوط قرطاجة على أيدي الرومان قبل أن تفرض نوميديا سيطرتها، ثم خضعت للاحتلال الروماني عام 46 ق. م حتى تحرير العرب المسلمين لها[1].

وإذا انتقلنا إلى الحضارة الفينيقية في المغرب العربي، نجد أن نظام الحكم والإدارة قد تمثل بالملك يساعده موظفون من العائلات النبيلة، علاوة على مجلس للشيوخ مسؤول عن إصدار التشريعات وفرض الضرائب. وتعد التجارة أبرز مظاهر الحضارة القرطاجية، حيث انتشر التجار في سواحل آسيا وأوروبا وأفريقيا، وقاموا باستيراد وتصدير معظم أنواع السلع المعروفة آنذاك. وفي الوقت ذاته تميزت الصناعة الفينيقية بالتقدم حيث أقاموا العديد من المصانع، واشتهروا بصناعة المنسوجات وتلوينها وصناعة الأدوات الزجاجية والحلي، ولم يهمل الفينيقيون الزراعة والري، حيث زرعوا غابات الزيتون وأقاموا المعاصر لاستغلالها علاوة على المنتوجات الزراعية الأخرى.

أما على الصعيد المعماري والفني فإن أهم ما خلفه الفينيقيون هو المدن التي أبدعوا في بنائها مثل قرطاجة ولبده وغيرهما، علاوة على النقوش والتماثيل[2]. ولم تختلف الحياة الدينية كثيراً عن نظيرتها في المشرق حيث سادت عبادة عدد من الآلهة الفينيقية المشرقية والبابلية مثل بعل وعشتار، وآمنوا بوجود حياة أخرى بعد الموت حيث دفنوا حاجيات الموتى معهم[3].

---

(1) عبد اللطيف محمود البرغوتي، التاريخ الليبي القديم، ص 305 ـ 313.

(2) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط 2، ج 1، دار الرشاد، الدار البيضاء، 1984، ص 37 ـ 40.

(3) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص 207 ـ 214.

حضارات شبه الجزيرة العربية

أقام العرب في الجزيرة العربية العديد من الدول الحضارية التي خلّفت تأثيرات مهمة على المناطق المجاورة والبعيدة، وبذلك لم تكن الجزيرة العربية صحراء قاحلة تضم مجموعات من البدو الرحل كما حاول بعض المغرضين تصويرها، بل قدّمت إلى البشرية جمعاء حضارات عريقة. وقبل تناول هذا الموضوع لا بد من التطرق أولاً إلى أصل العرب وأسباب تسميتهم بهذا الاسم.

ذكر المؤرخون والنسابة العرب القدماء أن العرب ينتسبون إلى سام بن نوح ويجمعهم بالعناصر السامية الأخرى مثل الأموريين والآشوريين والآراميين وغيرهم رابطة النسب إلى سام. وانقسم العرب إلى ثلاثة أقسام هم العرب العاربة أو القحطانيون واستوطنوا جنوبي الجزيرة في اليمن، والعرب المستعربة أو العدنانيون وسكنوا في الحجاز ونجد، والعرب البائدة مثل عاد وثمود الذين تعرضوا إلى العقاب الإلهي وانتهى ذكرهم من الوجود.

ويعتقد علماء العربية أن أول من نطق باللغة العربية هو يعرب وإليه تنسب، في حين أشار آخرون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وقد وردت الإشارات الأولى إلى العرب بمعنى البدو الرحل، وأقدمها نص آشوري من عهد الملك شلمنصر الثالث في القرن التاسع قبل الميلاد وكان يعني بها إحدى الإمارات البدوية المتاخمة لحدود الدولة الآشورية. وورد نص بابلي عن «أرض العرب»، وآخر فارسي في عهد الدولة الأخمينية. وجاء ذكر العرب في التوراة بمعنى الأعراب أو البدو، كما أشارت إلى وادي عربه

للإشارة إلى الوادي المعروف بجفافه وهو جزء من بلاد العرب. أما لفظة العرب عند اليونانيين في القرن السادس قبل الميلاد فقصدوا منها سكان الجزيرة العربية وسيناء.

أما العرب أنفسهم، فإن أقدم نص لدى العرب الشماليين يعود إلى عام 328 ق. م وعثر عليه في نقش على قبر الشاعر امرىء القيس ذكر فيه أنه ملك العرب، غير أن كلمة العرب بمعناها الحالي الذي يعطي مفهوماً قومياً لا يميز بين الحضر والبدو يعود إلى الإسلام[1].

دول شمال شبه الجزيرة العربية:

ظهرت عدد من الدول في الأطراف الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وأسسها أقوام عربية. وكانت معظم هذه الدول قد بدأت كمحطات للقوافل التجارية بسبب توفر المياه فيها، ثم تحولت إلى دول قوية توسعت على حساب المناطق المجاورة وأخذت تمارس التجارة بنفسها، ومن أبرزها الأنباط وتدمر والحفر وغيرها. وقامت دول أخرى على أساس مناطق حاجزة بين الأمبراطوريات الكبرى والصحراء، وأبرزها دولتا الغساسنة والمناذرة.

الأنباط:

الأنباط هم أحد الشعوب التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى الشمال الغربي، وكوّنوا دولة اتخذت من البتراء عاصمة لها وذلك بحدود القرن السادس قبل الميلاد. وأخذت هذه الدولة بالتوسع في المناطق المجاورة حتى وصلت سيطرتها إلى دمشق والبقاع. وسقطت هذه الدولة على يد الامبراطور الروماني تراجان عام 106 ميلادية.

وقامت حضارة الأنباط على أساس التجارة، حيث كانت البتراء مركزاً

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط 2، ج 1، بيروت، 1976، ص 14 ـ 23.

تجارياً رئيسياً وملتقى للطرق والقوافل في بلاد الشام وامتدت حتى مصر. وساعد ذلك بعض الصناعات التي اشتهرت بها، لا سيما صناعة الخزف والأواني الفخارية.

وتعد لغة الأنباط من اللغات العربية الشمالية التي كتبت بالخط الآرامي، واستخدم الملوك والسكان الأسماء العربية المعروفة آنذاك. أما الديانة النبطية فكانت تعتمد على تعدد الأصنام وأشهرها ذي شرن وهبل.

وخلّفت الحضارة النبطية تراثاً معمارياً جميلاً تمثّل في مدينة البتراء التي نحتت بناياتها في الصخور، وأبرزها خزنة فرعون والمسرح علاوة على قوس النصر والهياكل والقبور[1].

تدمر:

تقع تدمر في بادية الشام في منتصف المسافة بين نهر الفرات من جهة، ودمشق وحمص من جهة أخرى. وقد نشأت هذه المدينة حول منبع ماء، واستوطنها عدد من القبائل العربية. وجاء أول ذكر لهذه المدينة في إحدى النقوش القديمة بحدود 1100 ق. م، لكنها كانت موجودة بهذا الاسم قبل سبعة قرون من ذلك التاريخ.

واستفادت تدمر من الصراعات الخارجية للمحافظة على استقلالها السياسي، لكنها اضطرت فيما بعد للخضوع للحماية الرومانية الاسمية مع تمتعها بقدر كبير من الاستقلال. ومن أشهر الملوك الذين حكموا المدينة أذينة وزنوبيا التي اشتهرت بالحزم والفتوحات حتى وصلت جيوشها إلى مصر وآسيا الصغرى، وقد أثار هذا قلق الرومان ودفعهم لإرسال حملة قوية بقيادة الامبراطور أورليان عام 272 احتلت تدمر، وأخذت زنوبيا أسيرة إلى روما.

من أهم المعالم الحضارية لتدمر قيامها بالتجارة، التي لم تقتصر على

(1) مصطفى أبو ضيف أحمد، دراسات في تاريخ العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1982، ص 44 - 46.

المنطقة بل امتدت إلى أوروبا. وازدهرت الصناعة أيضاً، وذكرت إحدى النصوص التاريخية أن عمال صياغة الذهب والفضة قد أسسوا نقابة لهم. واهتم التدمريون بالزراعة وأقاموا سداً لجمع المياه والاستفادة منها.

وأما من الناحية السياسية والإدارية، فقد أقام التدمريون مجلسين أحدهما للشيوخ والآخر للعشائر، كما تولى عدد من كبار الموظفين الشؤون الإدارية والمالية. وعند تولي الملك أذينة فإنه جمع السلطات بيده مما أدى إلى إضعاف سلطة المجلسين. وأوجدت قوة للشرطة تحمي القوافل التجارية من قطاع الطرق وغزوات البدو.

وعلى الصعيد الديني، عبد التدمريون آلهة متعددة أبرزها الإله بعل، والإله بعل سمين أي بعل السماء، والإله يرحبول وهو إله القمر وعدداً من الآلهة البابلية. وازدهر كذلك الفن في تدمر من خلال المنحوتات والمعابد، والتي مزجت بين الفن المحلي والتأثيرات اليونانية والرومانية[1].

الغساسنة والمناذرة:

الغساسنة والمناذرة قبيلتان عربيتان هاجرتا من اليمن، واستقرت الأولى في جنوب بلاد الشام عند حدود الجزيرة العربية، في حين فضّلت الثانية الهجرة إلى العراق. وهناك ظروف متشابهة جمعت بينهما، فهما من اليمن وهاجرتا منه، واعتنقت كلتاهما الديانة المسيحية، واستوطنتا على أطراف الصحراء وأصبحتا بمثابة حاجز بين الجزيرة العربية وكلاً من الدولة الرومانية التي كانت تحكم سوريا والدولة الفارسية المسيطرة على العراق. ونظراً للعداء المستحكم بين الرومان والفرس، فقد دخل الغساسنة والمناذرة في صراعات مستمرة بينهما.

من أشهر الملوك الذين حكموا دولة الغساسنة الحارث بن جبلة،

---

(1) نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ط 3، دار الفكر، بيروت، 1975، ص 125 ـ 145.

وجبلة بن الأيهم الذي دخل الإسلام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ثم ارتد عنه. ومن أبرز ملوك المناذرة النعمان بن المنذر الذي حاول التصدي للنفوذ الفارسي فذهب ضحية عمله، وكان السبب في حدوث موقعة ذي قار التي انتصرت فيها القبائل العربية على الجيش الفارسي.

وتميزت حضارة الغساسنة بالاهتمام بالأدب والشعر والبناء الفخم في المدن. أما الحيرة عاصمة المناذرة فإليها ينسب الخط الحيري الذي عدّه بعض المؤرخين أساس الخط العربي. وكانت الحيرة أيضاً مركزاً ثقافياً بارزاً احتوت على المدارس والمعاهد العلمية، واشتهرت بتقدم العلوم الطبية واستمر ذلك في الفترة التي تلت الحكم الإسلامي. وازدهرت التجارة لدى المناذرة بسبب موقع بلادهم وتميز منتجاتهم بالدقة ومهارة الصنع، وخلّف المناذرة العديد من القصور أبرزها السدير والخورنق، علاوة على الكنائس والأديرة[1].

دول جنوبي الجزيرة العربية (اليمن):

تقع اليمن في جنوبي الجزيرة العربية، وتميزت بأن سكانها كانوا من الحضر المقيمين في المدن على العكس من عرب الشمال الذين كانوا من البدو الرحل المتنقلين من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء والكلأ، باستثناء مدن قليلة تركزت بالذات في الحجاز.

وساعد على تكون الدول في اليمن وظهور حضارة مزدهرة فيها خصوبة التربة وتوفر الأمطار الموسمية الصيفية، ودفع هذا بالتالي إلى شيوع حالة الاستقرار وبناء الدول. ويتمثل العامل الآخر في الموقع الجغرافي لليمن على البحرين العربي والأحمر، ومعرفة سكانه للرياح الموسمية التي كانت تسيّر السفن الشراعية مما أدى إلى احتكارهم التجارة ووصول سفنهم إلى مناطق نائية من العالم.

---

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج 3، ص 155 ـ 448.

أقام اليمنيون عدداً من الدول منذ عصور بعيدة في التاريخ، يمكن تقسيمها إلى ثلاث دول:

الدول المعينية:

وهي أولى الدول التي ظهرت في اليمن بحدود القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد حتى القرن السابع قبل الميلاد، وانهارت على يد السبئيين ـ ويبدو أن هذه الدولة لم تكن مركزية إذ أعطت صلاحيات إدارية واسعة للمدن لإدارة شؤونها، وكان لشيوخ القبائل نفوذاً واسعاً فيها. وأبرز ما اشتهرت به هذه الدولة هي التجارة، حيث عثر على آثار في مصر واليونان وغيرهما تدل على متاجرة المعينيين معها واستقرار بعضهم فيها. وسيطر المعينيون على الطرق البرية والبحرية التي كانت تحمل التجارة الشرقية عبرها. وتميزت اللغة القديمة للمعينيين باستخدام الحروف الأبجدية[1].

الدولة السبئية:

ظهرت هذه الدولة حوالي القرن التاسع قبل الميلاد واستمرت حتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد واتخذوا من صرواح عاصمة لهم، وورد ذكر السبئيين في النقوش الآشورية والكتب السماوية المقدسة. وقد تمكن السبئيون من التوسع على حساب المعينيين إلى أن تمكنوا في النهاية من إسقاط دولتهم. واتخذ ملوك سبأ ألقاباً متعددة، فأطلق عليهم في البداية لقب مكرب، ثم ملوك سبأ، ثم ملوك سبأ وريدان وذلك حسب توسع دولتهم.

وتم في عهد هذه الدولة بناء سد مأرب الشهير الذي كان أكبر سد في الجزيرة العربية، وأقيم هذا السد بين جبلين بهدف تجميع مياه الأمطار. واشتهر السبئيون، مثلما كان الحال بالنسبة للمعينيين، بالتجارة لا سيما مع الهند، حيث احتكروا معرفة أوقات الرياح الموسمية التي كانت تسيّر السفن الشراعية، لكن منافسة المصريين والإغريق لهذه الدولة في التجارة قد أدى

(1) مصطفى أبو ضيف أحمد، دراسات في تاريخ العرب، ص 25 ـ 28.

إلى إضعافها، وتمكن الحميريون بالتالي من إقامة دولتهم في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد[1].

الدولة الحميرية:

اتخذت هذه الدولة من ظفار عاصمة لها ومدّت سيطرتها على منطقة واسعة من سواحل البحر الأحمر في جهتيه الآسيوية والأفريقية. وتعرضت هذه الدولة إلى محاولة رومانية لاحتلال اليمن عام 24 ق. م بهدف القضاء على مركزها التجاري، وباءت هذه الحملة بالفشل التام. وتمكن الأحباش من احتلال اليمن عام 340 ميلادية. لكنهم لم يمكثوا طويلاً. وأخذت الديانات المسيحية واليهودية بالانتشار خلال هذه الفترة على حساب الوثنية. وحاول الملك ذو النواس الذي اعتنق اليهودية إعادة المسيحيين عن ديانتهم، وعندما رفضوا حفر لهم أخدوداً وحرقهم فيه كما ورد في القرآن الكريم. ودفع هذا العمل الأحباش إلى تجهيز حملة لاحتلال اليمن بقيادة أرياط وخليفته أبرهة الحبشي، الذي حاول احتلال مكة وهدم الكعبة ففشل في ذلك.

ساء اليمنيون احتلال الأحباش لبلادهم فاستنجد زعيمهم سيف بن ذي يزن بالساسانيين الفرس، وتمكنت حملة فارسية بالتعاون مع اليمنيين من طرد الأحباش. وخضعت اليمن للحكم الفارسي حتى دخولها تحت سيطرة العرب المسلمين.

على أية حال، استمرت الحضارة اليمنية بالازدهار في عهد الدولة الحميرية من حيث التجارة وبناء السدود والقصور، وأبرزها قصر غمدان في صنعاء. ومن الناحية الدينية، دخلت المسيحية واليهودية إلى جانب الوثنية، التي استمرت حتى ظهور الإسلام[2].

---

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج 2، ص 258 ـ 497.

(2) نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، ص 98 ـ 105.

دولة كنده (أواسط شبه الجزيرة العربية):

هي أول دولة عربية قامت في وسط شبه الجزيرة العربية ووحدت القبائل تحت سلطتها. وذكر بعض المؤرخين العرب أن أصل قبيلة كنده يعود إلى اليمن، وأنها نزحت من حضرموت إلى نجد فيما بعد. وتمكنت هذه القبيلة من التوسع حتى امتد نفوذها إلى الخليج العربي، ودولة المناذرة في العراق.

تعاقب على الحكم في دولة كنده عددٌ من الملوك، لكنها انقسمت بين أولاد الحارث بن عمرو، وعندما قتل حجر بن الحارث حاول ابنه الشاعر المشهور امرىء القيس الانتقام له وإعادة توحيد دولة كنده، لكنه فشل في ذلك وانهارت تلك الدولة بسبب الصراعات بين القبائل المنضوية تحت لوائها.

لم تبلغ حضارة كنده ما بلغته حضارات الدول الأخرى في أطراف الجزيرة العربية مثل الأنباط أو المناذرة لأنها قامت أصلاً في وسط الصحراء، وأبرز ما خلفته الأدب والشعر. أما الديانات التي سادت في تلك الدولة فأبرزها الوثنية، علاوة على انتشار اليهودية والمسيحية بين بعض القبائل[1].

ملامح الحضارة في شبه الجزيرة العربية:

بنى العرب قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية حضارة تناسبت وظروف بلادهم الجغرافية، وحياتهم التي كانت تعتمد على عدم الاستقرار. وأوجد العرب قيماً وتقاليداً فريدة تميزوا بها عن الأقوام الأخرى التي حكمت المناطق المجاورة لهم، وأقر الإسلام فيما بعد الكثير منها.

حياة العرب الاجتماعية:

1 ـ القبيلة: وهي الوحدة الاجتماعية ـ السياسية لدى العرب قبل

(1) جواد على، المفصل في تاريخ العرب، ج 3، ص 315 ـ 382.

الإسلام، والقبيلة عبارة عن تجمع مجموعة من الأفراد في منطقة معينة يرجعون إلى نسب واحد، أو يعتقدون أنهم يعودون إلى أصل واحد. وتميزت القبائل العربية بعدم الاستقرار، بل كانت تنتقل من منطقة إلى أخرى وراء الكلأ والماء. أما القانون السائد في القبيلة فهو العرف الذي تكوّن وتعارف عليه الناس خلال فترة طويلة من الزمن.

وتعود قيادة القبيلة إلى الشيخ الذي يتم انتخابه حيث لم يؤمن العرب بالوراثة في تولي هذا المنصب. وكان على المرشح التمتع بالصفات الحميدة مثل الكرم والشجاعة والحلم، ولشيخ القبيلة واجبات متعددة أبرزها حل الخلافات بين أفراد القبيلة أو مع القبائل الأخرى، وقيادة القبيلة أثناء الصراعات مع القبائل الأخرى.

وإلى جانب الشيخ، كان هناك مجلس القبيلة الذي يضم الرجال البالغين ويجتمع عادة في المساء حيث يتم فيه تداول الأمور التي تهم القبيلة، واتخاذ القرارات التي توافق عليها الأكثرية. ولم تقتصر مهمة المجلس على تداول الأمور العامة، بل كان منتدى ثقافياً يلقى فيه الشعر والخطابة.

2 ـ العادات والتقاليد: لم يعرف العرب قبل الإسلام قانوناً مكتوباً، بل سادت لديهم مجموعة من الأعراف والتقاليد التي تمسكوا بها. ولم تظهر سلطة قضائية تقتص من الظالم، لذلك التجأ الناس إلى تنفيذ ما يعتقدون أنه حق لهم بأنفسهم ومن ذلك حالات القتل، إذ التجأ أقارب القتلى إما إلى الثأر من القاتل أو أخذ الدية عن القتيل. وبخصوص الميراث، حرمت المرأة من الإرث واقتصر ذلك على الرجال فقط. ولم تكن الأعراف والتقاليد موحدة، بل كانت تختلف من قبيلة إلى أخرى.

أما العادات العربية، فقد تمسك العرب بالعديد من الصفات الحميدة التي أشاد بها الإسلام فيما بعد وأقرّها، لكن هذا لا ينفي ظهور بعض العادات السيئة التي تصدى لها الإسلام وحاربها، ومن أبرز العادات العربية التي كانت سائدة قبل الإسلام:

المروءة: ويقصد بها تقديم المساعدة لمن يحتاجها، وتمسك بها العرب حفاظاً على سمعتهم.

الوفاء: وشدّد العرب على هذه الصفة واعتبروا الغدر عاراً يصيب صاحبه، وشهّروا بالغادر في مجالسهم العامة. وهناك العديد من الأمثلة على تمسك العرب بالوفاء وحفظ الأمانة منها قصة السموأل الذي أمّنه الشاعر أمرؤ القيس على دروع له ورفض تسليمها إلى الحارث الغساني على الرغم من تهديده بقتل ابنه. ورأى السموأل ابنه يقتل أمامه بسبب تمسكه بالأمانة ورفضه تسليم الدروع.

الحرية والإباء: كان العربي مولعاً بالحرية ويرفض الاستكانة لأي سلطة خارجية عليه. وأدت البيئة الصحراوية دوراً كبيراً في ذلك حيث وجد العربي في الفضاء الواسع حوله الحافز على التمسك بالحرية، ورفض الحياة الذليلة، وتفضيل الموت عليها.

الشجاعة: وهي أيضاً من صفات العرب الأساسية التي كانوا يفتخرون بها في الدفاع عن ديارهم وأهاليهم، ونظر إلى الفارس الشجاع في القبيلة بنظرة احترام كبيرة باعتباره حامي الديار والأهل.

العفة: تمسك العرب بالحياء والعفة والغيرة على العرض والشرف، وتغنوا في أشعارهم بالرجال والنساء المتمسكين بالعفة، وكانوا شديدي الغيرة على النساء.

الكرم: تفاخر العرب بإكرام الضيف وكانوا يرحبون به ويكرمونه لمدة ثلاثة أيام دون أن يسألوه عن شيء، واعتادوا إيقاد النار ليلاً لإرشاد الضيوف إلى منازلهم ـ ومن أبرز الأمثلة التي ظلت تروى عن كرم العرب نموذج حاتم الطائي.

الثأر : شدّد العرب على عادة الأخذ بالثأر، ولم يكن يهدأ لهم بال إلا بعد الانتقام، وكانوا يبتعدون عن مباهج الحياة إن قتل لهم أحد حتى يأخذوا بثأره. ودخلت الخرافات والأوهام حين اعتقد العرب بأنه يخرج من جسم القتيل هامة تصرخ طالبة الثأر حتى يؤخذ بحقه.

3 ـ **مكانة المرأة**: تمتعت المرأة بمكانة مهمة لدى العرب قبل الإسلام، حيث كانت تؤدي مهاماً عديدة سواءً في الأعمال المنزلية أو الاهتمام بالماشية، وكان من العار على الرجل إهانة زوجته. ومارست بعض النساء التجارة واستثمار الأموال وخير دليل على ذلك السيدة خديجة بنت خويلد، في حين تقلدت نساءٌ أخريات مراكز بارزة في المجتمع وصلت إلى حد تولي الحكم مثل زنوبيا ملكة تدمر وبلقيس ملكة اليمن، وظهرت شاعرات بارزات مثل الخنساء. ومع ذلك سادت بعض الأعراف السيئة مثل وأد النبات، أي دفنهن وهنّ أحياء خوفاً من الفقر أو العار[1].

حياة العرب الاقتصادية:

1 ـ **التجارة**: اشتهرت بلاد العرب بالتجارة مثل اليمن وسواحل الخليج العربي التي كانت تنقل عبرها تجارة الهند والصين إلى مصر والشام وأفريقيا وغيرها. وتعد مكة من أبرز المراكز التجارية في أواسط شبه الجزيرة العربية حيث تلتقي فيها تجارة الشام واليمن. ونظم المكيون رحلتين في السنة إحداهما إلى الشام والأخرى إلى اليمن عرفتا برحلة الشتاء والصيف، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ * إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ * فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾. وازداد ازدهار مكة التجاري بعد سقوط دولة سبأ في اليمن. وكان للتجارة أهمية كبيرة في حياة مكة، حيث أدّت إلى ثراء سكانها ودفع زعمائها إلى توقيع اتفاقيات مع القبائل التي كانت تمر القوافل التجارية عبر أراضيها لحمايتها عرفت بالإيلافات[2].

2 ـ **الأسواق**: أقام العرب أسواقاً موسمية متعددة مثل سوق هجر في البحرين ودومة الجندل وذي المجاز وبدر، إلاّ أن أبرز الأسواق التي عرفها

---

(1) حسين الحاج حسن، حضارة العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1984، ص 67 ـ 134.

(2) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج 7، ص 285 ـ 304.

العرب هو سوق عكاظ قرب الطائف حيث كان يتم فيه تبادل السلع بحضور تجار من مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية وأطرافها. ولم يقتصر دور هذا السوق على الناحية السياسية بل تعداه إلى الاهتمام بالنواحي الأدبية والثقافية، إذ كان الشعراء ينشدون قصائدهم، ويلقي الخطباء خطبهم.

3 ـ **الزراعة**: وكانت مهنة محدودة اقتصرت على بعض الواحات التي تتوفر فيها المياه ومنها مدينة الطائف التي اشتهرت بزراعة الفواكه ومؤنت مكة بها، ويثرب التي اشتهرت بزراعة النخيل[1].

الحياة الدينية:

سادت العديد من الديانات الوثنية والسماوية في شبه الجزيرة العربية، ويمكن إجمالها:

1 ـ **الوثنية**: وهي عبادة الأوثان والأصنام، وكانت الديانة الرئيسية لمعظم العرب قبل الإسلام. ومن أشهر الأصنام التي عبدها العرب: هبل واللات والعزى ومناة وغيرها، واعتقد العرب أن هذه الأصنام والأوثان تقربهم إلى الله زلفى. ومع ذلك ظلت للكعبة المشرفة قدسية عظيمة منذ أن رفع النبي إبراهيم الخليل عليه السلام قواعدها، واعتاد العرب الحج إليها في مواسم معينة وتقديم القرابين للأصنام التي نصبت حولها.

2 ـ **المسيحية**: انتشرت المسيحية في شمال شبه الجزيرة وشرقها بين الغساسنة والمناذرة، وعدد قليل من عرب الجزيرة لا سيما في نجران.

3 ـ **اليهودية**: وكان انتشارها محدوداً بين العرب بسبب انغلاق اليهود على أنفسهم، وعدم تحمسهم لنشر ديانتهم باعتبارها خاصة لبني إسرائيل. وانحسر وجود اليهود في بعض مناطق الحجاز مثل يثرب وخيبر وتيماء وفدك ووادي القرى.

(1) حسين الحاج حسن، حضارة العرب، ص 195 ـ 197.

4 ـ **الحنيفية**: وهي ديانة إبراهيم الخليل التي استمر بعض العرب في الإيمان بها ورفض عبادة الأصنام، ومن أبرزهم ورقة بن نوفل، ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد[1].

وظائف مكة الدينية:

سبق أن ذكرنا أهمية مكة الدينية، وجموع العرب التي كانت تحج إليها من شبه الجزيرة العربية في مواسم معينة، واستلزم هذا الأمر إيجاد بعض الوظائف لخدمة الحجاج، وأهمها:

1 ـ **الحجابة**: وكان صاحبها مسؤولاً عن حمل مفاتيح الكعبة والسماح للناس بالدخول إليها، وكانت بيد بني عبد الدار بن قصي.

2 ـ **السقاية**: وتعني بتوفير المياه للحجاج في مكة ومنى وعرفه، وكانت بيد العباس بن عبد المطلب.

3 ـ **الرفادة**: وهي مختصة بتوفير الطعام لغير القادرين من الحجاج، وكانت تفرض ضريبة على قريش كل عام لتغطية نفقات الطعام.

4 ـ **النسيء**: وهي تحديد الأشهر الحرم الأربعة التي حرّم فيها القتال ويتفرغ الناس للعبادة. ونظراً لاستخدام العرب الأشهر القمرية فإنهم كانوا يضيفون شهراً كل ثلاث سنوات للأشهر الحرم حتى يتقارب مع الأشهر الشمسية ولا يؤثر على رحلة الشتاء والصيف، وسميت هذه العملية النسيء. وقد حرم الإسلام النسيء والتغيير في الأشهر الحرم[2].

دار الندوة: وموقعها إلى جانب الكعبة، وكان يجتمع فيها الملأ وهم زعماء قريش للتداول في جميع الأمور التي تخص مكة سواء تنظيم الحج أو القوافل التجارية أو دخول العرب وعقد الصلح وغيرها. وكان يحق لكل من

---

(1) للتفصيل عن حياة العرب الدينية، انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج 6.

(2) نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، ص 240 ـ 244.

بلغ الأربعين من العمر الاشتراك في المناقشات التي تدور فيها[1].

إن هذا التخبط في العبادات والأديان والإشراك لم يستمر، إذ شاءت إرادة الله أن ينبثق نور الإسلام من البقعة ذاتها التي حفلت بالجهالة في الدين، مما مهَّد لبناء الحضارة العربية الإسلامية.

(1) حسين الحاج حسن، حضارة العرب، ص 191.

الفصل الثاني

ظهور الإسلام
وانطلاق الحضارة العربية الإسلامية

ظهور الدعوة الإسلامية:

ولد محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم في مدينة مكة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول في عام الفيل، وهي السنة التي غزا فيها أبرهة الحبشي مكة بهدف هدم الكعبة، لكن شاءت الإرادة الإلهية حماية البيت الحرام وإبادة أبرهة وحملته. وينتسب النبي الكريم إلى قبيلة قريش فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي إلى أن يصل نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل، ويعود نسب والدته آمنة بنت وهب إلى قريش أيضاً، وبذلك فإن شرف بيوت العرب نسبا من جهة الأب والأم قد تمثلت به.

تميزت حياة النبي الكريم بالمصاعب منذ بدايتها، وكان ذلك اختباراً وإعداداً لتحمل أمانة حمل الرسالة الإسلامية، فقد ولد يتيما إذ توفي والده عبدالله قبل أن يبصر نور الدنيا. وعاش بعد ولادته في البادية تحت رعاية مرضعته حليمة السعدية، ولم يهنأ طويلاً بمصاحبة أمه إذ توفيت وعمره ست سنوات ليكفله جده عبد المطلب سيد قريش ويغمره بعناية أبوية فاقت

اهتمامه بأولاده. ولم يطل المقام بعبد المطلب إذ توفي بعد أعوام قليلة موصياً ابنه أبا طالب بكفالة ابن أخيه.

مارس الرسول الكريم العديد من الأعمال منذ طفولته، فرافق عمه أبا طالب في تجارة إلى الشام حيث حذره الراهب بحيرى من غدر اليهود به لأنه توسم فيه علامات النبوة. ومن الأعمال الأخرى رعي الأغنام كحال الأنبياء الآخرين الذين اشتهروا بالقيام بهذا العمل. ومع السمعة العطرة التي اكتسبها من خلال أخلاقه الكريمة واتصافه بالأمانة والعفة والصدق والابتعاد عن عبادة الأصنام، ازدادت ثقة أهل مكة به وبأمانته ودفع إحدى سيدات المجتمع المكي وهي السيدة خديجة بنت خويلد أن تبعثه بتجارة لها ثم تطلبه للزواج. فتزوج منها وهو ابن خمس وعشرين سنة في حين بلغ عمرها آنذاك أربعين سنة.

وعندما بلغ الرسول الكريم الأربعين من عمره نزل عليه الوحي في غار حراء حيث كان يتعبد هناك كعادته شهراً كل عام ويخلو إلى نفسه للتفكير في خالق الكون، لتبدأ بذلك الدعوة إلى الدين الإسلامي. ومرت الدعوة الإسلامية بمرحلتين: المرحلة السرية التي استمرت ثلاث سنوات، وتمت فيها الدعوة إلى الدين الجديد وترك عبادة الأصنام والأوثان سراً. وآمن في هذه المرحلة أهل بيت الرسول صلّى الله عليه وسلم وفي مقدمتهم زوجته خديجة بنت خويلد، وابن عمه علي بن أبي طالب، ومولاه زيد بن حارثة، أما المرحلة العلنية فانطلقت فيها الدعوة عامة نحو قريش والقبائل الأخرى، والتي واجهت المسلمين باستخدام أنواع الاضطهاد والعذاب. فبعد فشل محاولات قريش في إغراء النبي بالأموال والمناصب، عمد المشركون إلى التشكيك بقدراته العقلية، وإيذائه بالكلام مروراً بالتعذيب الجسدي للمسلمين، وحصارهم في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات وقاطعوهم مقاطعة تامة. واضطر الكثير من المسلمين للهجرة إلى الحبشة تخلصاً من الأذى الذي ألحقته بهم قريش حفاظاً على دينهم، إلاّ أن دخول عدد من أفراد قبيلتي الأوس والخزرج في الإسلام ومبايعتهم للرسول الكريم في بيعتي

العقبة الأولى والثانية قد غيّر الموازين لصالح المسلمين.

وحدث انقلاب خطير في حياة الإسلام والمسلمين عندما بدأ المسلمون بالهجرة من مكة إلى يثرب، فانتقل الإسلام من مرحلة الدعوة إلى الدولة، وفسح المجال لتطبيق مبادىء الإسلام عملياً وبناء نواة الدولة الإسلامية. وقد حفلت السنوات الباقية من حياة الرسول الكريم بأحداث جسام، فقام بالعديد من الخطوات لبناء المجتمع الإسلامي في يثرب - التي تحول اسمها إلى المدينة المنورة - فبني المسجد، وأعلنت المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، وتم تحديد العلاقة بين المسلمين واليهود. وتصدى - من جهة أخرى - إلى المخاطر التي مثلتها قبيلة قريش، واشتبك معها بالعديد من الحروب ابتداء من معركة بدر الكبرى مروراً بمعارك أحد والخندق حتى تم فتح مكة في العام الثامن للهجرة.

ولم يهمل النبي الكريم دعوة حكام المناطق المجاورة إلى الإسلام، فاستجاب القليل منهم ورفض أكثرهم، ولكن دخل معظم شبه الجزيرة العربية في الإسلام. وبعد أن أكمل الرسول إبلاغ رسالته، ونزلت الآية الكريمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، وخطبته الجامعة في حجة الوداع عام 10 للهجرة التي حدّد فيها أركان الإسلام وحقوق المسلمين وواجباتهم، اختاره الله تعالى إلى جواره عام 10 هجرية بعد أن وصلت تعاليم الإسلام إلى معظم شبه الجزيرة العربية وطرقت أبواب المناطق المجاورة[2].

مصادر التشريع في الإسلام:

1 - القرآن الكريم: وهو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي

(1) سورة المائدة، الآية 3.

(2) انظر تفاصيل وافية عن السيرة النبوية الشريفة في أبو محمد عبد الملك ابن هشام، السيرة النبوية، دار الجيل، بيروت، 1975؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد، ط 13، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1968.

أنزل باللغة العربية على النبي محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم منجماً، أي متدرجاً وليس دفعة واحدة لمدة ثلاث وعشرين عاماً. وكانت آيات القرآن تنزل إجابة عن سؤال، أو شرح لواقعة معينة، أو إقرار لتشريع. وأول آية أنزلت هي ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[1]، وختم بآية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[2].

احتوى القرآن الكريم على الأطر العامة للتشريعات الإسلامية فجاءت أحكامه في بعض الأحيان قاطعة لا تقبل الاجتهاد مثل تحريم الخمر والميسر ولحم الخنزير والحدود (العقوبات)، في حين تُرِك باب الاجتهاد مفتوحاً في أمور أخرى. ومن ناحية أخرى، أقر القرآن بعض العادات والتقاليد والأعراف التي كانت سائدة في فترة ما قبل الإسلام إذا لم تكن مخالفة للأحكام الإسلامية أو منافية للأخلاق الفاضلة. وروى القرآن الكريم بعض قصص الأنبياء والشعوب القديمة لأخذ العبرة والتذكرة منها.

لم يدوّن القرآن الكريم في العهد النبوي بل حفظ الصحابة آياته وسوره، على الرغم من قيام بعضهم بتدوين الآيات بشكل متفرق على سعف النخيل أو الحجارة أو الجلد وغيرها. وبعد استشهاد عدد لا يستهان به من حفظة القرآن أثناء حروب الردة، أمر الخليفة أبو بكر الصديق بجمع القرآن وكتابته، فدوّن زيد بن ثابت نسخة فيه وكثرت في عهد الخليفة عثمان بن عفان نسخ القرآن في الولايات المختلفة فأمر الخليفة بدراسة النسخة المحفوظة لدى أم المؤمنين حفصة بنت عمر واستنساخها سبع نسخ، أرسلت لكل ولاية نسخة منها عرفت بمصحف عثمان وحرقت النسخ المخالفة لها[3]. وهكذا تمت المحافظة على القرآن الكريم خالياً من التلاعب والتزوير

---

(1) سورة العلق، آية 1.

(2) سورة المائدة، آية 3.

(3) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، المجلد الأول، دار المعرفة، بيروت، بلا، ص 20 ـ 22.

الذي طال الكتب السماوية السابقة.

لا يقتصر أثر القرآن الكريم على كونه كتاباً دينياً مخصصاً للعبادات فحسب، وإنما تعدى ذلك بكثير فهو المرشد الأول للمسلمين أرسى من خلال تعاليمه أسس بناء مجتمع فاضل تسود فيه الأخلاق والتعاون والمساواة بين الناس، ودعا إلى التحصيل العلمي فوردت مفردات اقرأ والعلم مرات عديدة، فكان انطلاق الحضارة العربية الإسلامية وما احتوته من تقدم في جميع المجالات العلمية والعمرانية والنظم إحدى ثمرات الدعوة القرآنية.

2 ـ **السنة النبوية**: وهي كل ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، أو فعله، أو رأى فعلاً وأقرّه. وقد أمر الله تعالى في القرآن الكريم المسلمين بآتباع أوامر النبي، فهي إذاً واجبة الاتباع على المسلمين[1]. وبذلك أصبحت السنة النبوية المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم، ومن الطبيعي أن تجد العناية من قبل المسلمين لفهم أركان دينهم.

اعتمد الصحابة على حفظ السنة عن ظهر قلب ولم يلجأوا إلى تدوينها خوفاً من اختلاطها بالقرآن الكريم. ولكن ظهرت الحاجة في المراحل الزمنية التالية لتدوين السنة وحفظها بعد وفاة عدد كبير من حفظة السنة من الصحابة والتابعين، وظهور الفرق والأهواء السياسية التي حاولت الدس فيها خدمة لمصالحها. وقد بدأ التدوين في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الذي أمر والي المدينة المنورة بجمع السنة، لكنها دوّنت عملياً في القرن الثالث للهجرة حيث ظهرت كتب الحديث وأبرزها الصحاح الستة وهي صحيح البخاري ومسلم وسنن النسائي والترمذي وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد بن حنبل. وقد تشدّد العلماء في جمع الأحاديث وتنقيتها من الأحاديث الموضوعة فوضعوا علم الجرح والتعديل، الذي يتناول سلسلة رواة الحديث ومتنه، وفيما إذا كان الحديث متناقضاً مع الأحكام الإسلامية أو النص القرآني. وقسمت الأحاديث إلى متواتر ومشهور وآحاد، ووضعت

---

(1) الهادي كرو، أصول التشريع الإسلامي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1976، ص 41.

القواعد لاستخدام كل صنف من هذه الأحاديث[1] وبذلك أثمرت جهود علماء الحديث المضنية في تنقية الأحاديث النبوية إلى الحفاظ على هذا المصدر المهم من مصادر التشريع.

3 ـ الإجماع: ونعني به إجماع المجتهدين من المسلمين في عصر ما على حكم شرعي لم يرد صراحة في القرآن الكريم أو السنة النبوية. وللإجماع شروط عديدة فيجب توفر شروط الفقيه والمجتهد في الأشخاص الذين يصورون الحكم، وأن لا يتنافى الحكم الذي يتفق عليه المجتهدون مع القرآن أو السنة النبوية. وإجماع المجتهدين واجب النفاذ على المسلمين ولا يجوز مخالفته لأن القرآن الكريم والسنة النبوية قد أكدا على ضرورة عدم الاختلاف بين المسلمين، وأن الأمة لا تجتمع على ضلالة[2].

4 ـ القياس: القياس في اللغة تقدير الشيء بشيء آخر أو تسويته، ويقصد به شرعاً الحكم في أمر لم يرد ذكره في القرآن الكريم أو السنة النبوية أو الإجماع استناداً إلى حكم آخر ورد في القرآن أو السنة ويشتركان في العلة. فقد ورد مثلاً في القرآن الكريم حكم تحريم الخمر، وهو اسم لمسكر يستخرج من عصير العنب غير المطبوخ بالنار. ولم تتناول الآية المسكرات الأخرى التي تشترك مع الخمر في علة التحريم من مفاسد ورجس وتغييب للعقل، لذلك حرمت الأنواع الأخرى من المسكرات بالقياس إلى آية تحريم الخمر. وكذلك ورد في الحديث النبوي تحريم قيام شخص بخطبته امرأة سبقه إليها شخص آخر لأن هذا التصرف يؤدي إلى الإيذاء والعداوة والبغضاء، وقياساً عليه حرم على الأشخاص استئجار منزل أو محل سبقه شخص آخر إليه للعلة نفسها[3].

---

(1) عبد المجيد عبد الحميد الديباني، المدخل إلى دراسة الفقه الإسلامي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1994، ص 180 ـ 185.

(2) زكي الدين شعبان، أصول الفقه الإسلامي، ط 4، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1979، ص 88 ـ 95.

(3) زكي الدين شعبان، أصول الفقه الإسلامي، ص 113 ـ 116.

يمثل هذا المصدر من مصادر التشريع أهمية كبيرة لأنه يجنب الإسلام الانغلاق والجمود، ويؤدي إلى تجدده الدائم ومسايرته لتطور الزمن وما يستجد من مشاكل وقضايا باعتبار الإسلام خاتمة الأديان السماوية.

أثر الإسلام على العرب:

من الصعب حصر الآثار الخطيرة التي خلّفها الإسلام على حياة العرب بسبب شموليتها لمختلف أوجه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والفكرية. فكان عرب ما قبل الإسلام عبارة عن قبائل متفرقة يغزو بعضها بعضاً، ولولا الصحراء القاسية التي كانت بمثابة مانع طبيعي مسخّر لحمايتهم لنالوا نصيباً وافراً من الغزو الخارجي مثلما كان الحال لأطراف شبه الجزيرة العربية. وتحولت هذه القبائل المتفرقة، بفضل الإسلام الذي ألف بين قلوب معتنقيه، إلى قوة ضاربة جعلت من شبه الجزيرة العربية نواة لامبراطورية واسعة امتدت خلال قرن من الزمن من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وإسبانيا وجنوب فرنسا شمالاً.

لم يقتصر فضل الإسلام في توحيد العرب على الجزيرة فقط بل أنقذ العرب في المناطق الأخرى من سيطرة القوى الأجنبية، فحطّم وإلى الأبد الامبراطورية الساسانية الفارسية التي كانت تهيمن على العراق واليمن، وطرد الروم البيزنطيين من سوريا ومصر وشمال أفريقيا فحقق بذلك وحدة الناطقين باللغة العربية لأول مرة، ورسّخ وجودهم من خلال الهجرات التي انطلقت شرقاً وغرباً حملت معها المجاهدين وأسرهم.

من جهة أخرى، أرسى الإسلام قيماً اجتماعية جديدة ومبادىء خلقية فاضلة، فعلى الرغم من تمتع العرب قبل الإسلام بالكثير من القيم الأخلاقية السامية ولكن شابتها بعض الممارسات والأنماط السلوكية الخاطئة فجاء الإسلام ليقضي عليها مثل وأد البنات والعصبية القبلية والثأر وغيرها. وقد أكد الإسلام على مبادىء الحرية والمساواة بين الأفراد في الحقوق والواجبات والمكانة الاجتماعية، وأحل الأخوة الإسلامية محل النسب

للقبيلة، والولاء للإسلام محل الولاء للقبيلة، والشريعة الإسلامية العادلة محل الأعراف القبلية. ومنح الإسلام المرأة حقوقاً واسعة وحرّم إلحاق الأذى بها، وأوجب عليها التعليم، وأمر بحسن معاملتها.

وأحدث الإسلام انقلاباً شاملاً في الحياة الاقتصادية للعرب فحقّق نظامه الاقتصادي العدالة في توزيع الموارد والثروة، إذ منع تكدس الثروات وتضخمها من خلال تحريمه للربا والربح الفاحش والاحتكار، وتشريعه للزكاة والتقسيم العادل للإرث. وبذلك لم يعد في المجتمع العربي بعد الإسلام فوارق حادة بين طبقة تتمتع بالغنى الفاحش، وأخرى لا تجد ما يسد رمقها.

أما على الصعيد الديني، فقد أزال الإسلام الفوضى والجهالة الدينية التي عمت العرب من خلال تعدد عبادة الأصنام والأوثان، وأبدلها بعبادة الله الواحد الأحد. وبذلك أدت وحدة العبادة والدين إلى تماسك العرب وتقاربهم وضعف عوامل الفرقة والاختلاف بعد أن جمعهم عامل مشترك. وأدى التخلص من عبادة الأصنام أيضاً إلى انطلاق أفق الإنسان العربي الذي كان محدداً بالوثنية إلى مجالات واسعة قدمها له الإسلام، ووفّر له الطمأنينة والأجواء الروحية ففتح هذا الأمر المجال واسعاً أمام التطور الفكري الكبير الذي جسّدته الحضارة العربية الإسلامية.

إن الإسلام بمصادره التشريعية، وفي مقدمتها القرآن الكريم والسنة النبوية، هو الأساس الذي فتح آفاق النهضة الفكرية أمام العرب، فبدأت العلوم المختلفة التي ابتدعها العرب أو طوروها من دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية، مع عدم إهمال الأثر الذي تركته حضارات المنطقة وتمكنت الحضارة العربية الإسلامية من استيعابها وإعادة صياغتها وفقاً للأسس الإسلامية بدون أن تلجأ إلى الاقتباس التام أو النقل الأعمى.

ونقل الإسلام اللغة والخط العربي من الصعيد المحلي الذي كان يقتصر على شبه الجزيرة العربية وأطرافها إلى لغة عالمية لأكثر من نصف

العالم المعروف آنذاك، فقراءة القرآن الكريم وفهم أحكامه يتطلب بلا ريب اتقان اللغة التي نزل بها، فدفع هذا الأمر المسلمين من غير العرب إلى تعلم اللغة العربية لفهم واجباتهم الدينية، وبالتالي فإن التراث الفكري الكبير الذي خلفته الحضارة الإسلامية قد كتب باللغة العربية ـ ومن هنا أطلق على هذه الحضارة، الحضارة العربية الإسلامية لأن الإسلام ملهمها وظلت داخل إطار فلسفته، وكانت لغتها العربية. وساعد على تبوأ اللغة العربية هذه المكانة الرفيعة وتحولها إلى لغة للثقافة والحكم مميزاتها التي تتمثل بكثرة مفرداتها ومترادفاتها، وغنى الاشتقاقات فيها، وبلاغتها، ومخارج الحروف فيها.

وينطبق الأمر ذاته على الخط العربي الذي انتشر مع اللغة العربية، وزاد الإسلام من إبداع العرب في استنباط أنواع جديدة في كتابته فظهر الخط الكوفي والبصري والأندلسي والنسخ وغيرها. ومن شدة تأثر الشعوب الإسلامية بهذا الخط أخذت تكتب لغاتها به مثل اللغة الأوردية في الباكستان، واللغة التركية حتى أوائل القرن العشرين، واللغة الكردية وغيرها.

وخلاصة القول أن الإسلام أحدث ثورة شاملة في حياة العرب شملت مناحيها كافة، ونقلتهم من حالة التردي والضياع إلى أمة متميزة أدت أعظم الأدوار وأخطرها في مصير العالم والحضارات الإنسانية لقرون طويلة من الزمن.

حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم:

تولى النبي محمد صلى الله عليه وسلم السلطات التنفيذية والقضائية والدينية، أما السلطة التشريعية فتمثلت بالشريعة الإسلامية عن طريق الوحي فكان القرآن الكريم أساساً للتشريع في المجتمع، وتولى الرسول الكريم مهمة تفسير هذا التشريع وتفصيله. أما قيادة الدولة، وإعلان الحرب، وإقرار الصلح، والفصل في القضاء فكان يعود إلى الرسول ذاته.

اتسمت حكومة النبي صلى الله عليه وسلم بإرساء عددٍ من القيم يأتي في مقدمتها اعتمادها على الشورى، فعلى الرغم من المكانة العظيمة للرسول

والقدر اللامتناهي من الطاعة التي قدمها المسلمون له، إلاّ أنه لم ينفرد برأيه في الأمور الدنيوية التي لم يرد فيها نص قرآني وكان يلتجأ إلى الصحابة لاستشارتهم والأخذ برأيهم، وكان لرأي كبار الصحابة مثل أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي عبيدة بن الجراح وغيرهم احترام خاص لديه. وهناك أمثلة متعددة منها استشارته للمسلمين في الخروج لمقاتلة مشر كي قريش في معركة بدر[1]، والأخذ بنصيحة سلمان الفارسي في حفر خندق حول المدينة المنورة والتحصن خلفه وعدم الخروج لمقاتلة الأحزاب[2].

ومن المبادىء الأخرى إرساء العدالة والمساواة بين المسلمين جميعاً لا فرق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتقوى، وبذلك لم يؤمن الإسلام بالفروق الطبقية أو القومية بين المسلمين. وكان لبعض الصحابة من غير العرب مكانة كبيرة فاقت الكثير من الصحابة ذوي الأصول العربية والقرشية، مثال ذلك بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي. وشملت هذه المساواة الحقوق والواجبات وتنفيذ الأحكام أمام القضاء. ومن الأمثلة الخالدة التي ظلت تروى هي وساطة أسامة بن زيد، الذي كان من أحب الأشخاص عند الرسول صلى الله عليه وسلم، لتعطيل تنفيذ حكم قطع اليد على إحدى السارقات فكان رد رسول الله: **«أيها الناس، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**[3].

وساد في دولة الرسول مبدأ احترام حرية الإنسان لا سيما في تبني

---

(1) أبي الحسن علي ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط 3، ج 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980، ص 120.

(2) أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج 2، دار سويدان، بيروت، بلا، ص 566.

(3) الإمام مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق عبدالله أحمد أبو زينه، ج 4، دار الشعب، القاهرة، بلا، ص 363.

العقيدة، حيث لم يفرض الإسلام بقوة السيف على أيٍّ من أهل الكتاب، وتم معاملة اليهود معاملة حسنة باعتبارهم أهل ذمة واحترمت عقائدهم ومنحوا الكثير من الحقوق التي نصت عليها صحيفة المدينة مقابل التزامهم بالواجبات المفروضة على السكان.

ولم يتصرف الرسول الكريم كملك وابتعد عن امتيازات الملوك والتعالي، بل كانت أخلاقه التي أشاد بها القرآن الكريم وراء دخول الكثير من الناس في الإسلام، فقد اتصف بالأدب الجم والتواضع وحسن الخلق. وعلى الرغم من مكانته السامية، فإنه كان يعيش كأي شخص اعتيادي، فيمشي في الأسواق، ويزور المرضى، ويصلي على الموتى، ولم يؤمن بحاجات الدنيا الزائلة مثل القصور والملابس الفاخرة والحرس. وأرست هذه البساطة في التعامل تقليداً سار عليه الخلفاء الراشدون فيما بعد.

أما أهم التنظيمات التي أقامها الرسول الكريم في المدينة، فهي:

أولاً: بناء المسجد: حرص الرسول صلّى الله عليه وسلم حال وصوله إلى المدينة على اختيار موقع مناسب لبناء المسجد عليه، وبادر في سبيل ذلك إلى شراء قطعة أرض من أصحابها. وقد عمل الرسول الكريم بيده مع المسلمين في بناء هذا المسجد[1]، مجسّداً الروح الجماعية الجديدة التي رسخها الإسلام. وكان بناء المسجد متواضعاً فاقتصر على الآجر، وسقّف بعضه بسعف النخيل، وبنيت حجرات الرسول حوله.

ولم يقتصر دور المسجد في تلك الفترة على كونه مكاناً للعبادات فحسب، وإنما أصبح مكاناً للاجتماعات العامة تتم فيه مناقشة الأمور التي تهم المسلمين، وكان محوراً للنشاطات السياسية والاجتماعية في المدينة. وقد أصبح تقليداً لدى المسلمين عند بنائهم لمدينة جديدة أن يختطوا أولاً المسجد في وسط المدينة، ثم تبنى المنازل وتشق الطرق المتفرعة منه.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 109 ـ 110.

ثانياً: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار: وتعد هذه الخطوة الفريدة سابقة في التاريخ لم يرد ذكر مثيل لها، فقد دعا الرسول الكريم إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بمعنى أن يقوم كل مهاجر من مكة بالتآخي مع أحد الأنصار في المدينة، فتآخى النبي مع علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب مع زيد بن حارثة، وأبو بكر الصديق مع خارجة بن زيد. وهناك دافعين رئيسيين وراء هذه الخطوة يتمثل الأول بالجانب المعنوي واستهدف بناء وحدة المجتمع الإسلامي على أسس جديدة تتجاوز الرابطة القبلية وتعمّق من حالة الإخاء والمودة بين المسلمين. أما الدافع الثاني فهو الجانب المادي حيث ترك المهاجرون أموالهم وممتلكاتهم في مكة للحفاظ على دينهم، فكانوا بأمسّ الحاجة إلى من يعينهم. لذلك ألغيت هذه الخطوة بعد انتصار المسلمين في معركة بدر التي أثبتت وحدة المجتمع الإسلامي، وزال الهدف المادي بحصول المسلمين على غنائم وافرة، كما مارس البعض العمل في الزراعة والتجارة.

نجحت هذه الخطوة نجاحاً باهراً وعمّقت من حالة الأخوة بين المسلمين، وأزالت عن المهاجرين المصاعب المادية التي عانوا منها عقب الهجرة من مكة بعد استجابة الأنصار بصدق وحماسة حيث بادروا إلى تقاسم أموالهم وممتلكاتهم مع إخوانهم الجدد في الإسلام[1].

ثالثاً: صحيفة المدينة: لم يكن مجتمع المدينة مقتصراً على المسلمين من الأوس والخزرج وقريش فقط، بل كانت هناك العديد من القبائل اليهودية التي أقامت فيها. وحاول الرسول الكريم بناء علاقات طيبة مع اليهود انطلاقاً من مبادىء الدين الإسلامي التي كانت تحث على المودة مع أهل الكتاب، ورغبة في تحقيق وحدة المجتمع وعدم إيجاد أية ثغرة يتسلل منها أعداء المسلمين إلى الداخل. وكتب الرسول الكريم وثيقة سياسية على جانب كبير

(1) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط 7، ج 1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1964، ص 150.

من الأهمية حدّد فيها العلاقات بين المسلمين أنفسهم من المهاجرين والأنصار، وبينهم وبين اليهود، وأوضح فيها الحقوق والواجبات الملقاة على عاتق كل فرد في المجتمع الجديد. وأطلق على هذه الوثيقة «الصحيفة»، وسماها المؤرخون المعاصرون دستور المدينة لأنها حدّدت بوضوح المرجعية لأفراد المجتمع.

ابتدأت الوثيقة بالتأكيد على أن المسلمين أمة واحدة لا يجوز لأي مسلم الخروج على ثوابت الأمة أو التحالف مع أعداء المسلمين، وجاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس... وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى وسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن».

أكدت الوثيقة أيضاً على المساواة في التعامل مع اليهود، وقد أعطى هذا للإسلام مصداقية كبيرة لأنه أرسى مبدأ حرية العقيدة في زمن ساد فيه التعصب الأعمى، ومنحت اليهود أيضاً حقوقاً واسعة لم تقل عن الحقوق التي نالها المسلمون بشرط تنفيذ الواجبات الملقاة عليهم، «وأنه من تبعنا من يهود فإنه له النصر والأسوة (أي المساواة) غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلاّ من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلاّ نفسه وأهل بيته»[1].

كان من الممكن أن تحقّق هذه الوثيقة الأمن والاطمئنان في مجتمع المدينة لولا سلوك اليهود المعهود في الغدر والخيانة، حيث تحالفوا مع أعداء المسلمين فأصبح مصيرهم الطرد من دولة المدينة.

(1) للاطلاع على نص صحيفة المدينة، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 110.

ومع بناء الدولة الإسلامية الجديدة وانتصاراتها المتلاحقة على المشركين حتى توّج ذلك بفتح مكة، واعتناق معظم قبائل الجزيرة العربية الإسلام، أصبح الدين الجديد سيّداً في المنطقة. وبوفاة الرسول الأعظم وجد المسلمون أنفسهم أمام واقع جديد كان عليهم التصرف في شكل النظام السياسي، فظهر نظام الخلافة.

الفصل الثالث

الخلافـــة

ظهور نظام الخلافة

الخلافة في اللغة جاءت من المصدر خَلَفَ، والخليفة الذي يستخلف ممن قبله ومن يقوم مقام الذاهب ويسدُّ مسده، وخلف فلان فلاناً إذا كان خليفته[1]، وجاء في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾[2].

وذكر الماوردي في تعريف الخلافة كمصطلح، إنها: «خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[3]. وعرّفها ابن خلدون، بأنها: «خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[4]. ويتضح من هذين

---

(1) جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج 9، دار صادر، بيروت، بلا، ص 83؛ 89.

(2) سورة الأعراف، الآية 142.

(3) أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، ص 5.

(4) ابن خلدون، المقدمة، ص 191.

التعريفين أن المسلمين نظروا إلى الخلافة باعتبارها مؤسسة دينية ـ سياسية، وينوب القائم بها عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الحفاظ على الشريعة الإسلامية من جهة، وقيادة الدولة الإسلامية من جهة أخرى.

ولم يؤثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه استخلف أحداً لقيادة المسلمين من بعده، ويبدو أنه فضّل ترك الأمر لهم لاختيار من يجدوه مناسباً لهم وتطبيق المفهوم القرآني للشورى، على الرغم من إشارة بعض المصادر إلى أن الرسول الكريم أعطى انطباعاً لدى المسلمين بتفضيله أبا بكر من خلال تقديمه لإمامة الصلاة أثناء فترة مرضه.

ومع ذلك، فإن الخلافة نظام فريد ابتدعه المسلمون عندما ظهرت الحاجة إليه بسبب الفراغ الذي سببه وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، بدون أن يكون هناك أية تفصيلات مسبقة عن شكل نظام الحكم، أو مواصفات الحاكم.

اجتمع الأنصار بعد وفاة الرسول صلى اله عليه وسلم في سقيفة بني ساعدة لانتخاب زعيم الخزرج سعد بن عبادة، لكن المهاجرين لحقوا بهم وجرت مناقشة حول أحقية كل طرف بالخلافة. ورفض قادة المهاجرين أن يتم اختيار أمير من الأنصار وآخر من المهاجرين لأنه كان يؤدي عملياً إلى الفوضى والنزاع في قيادة المسلمين. وتم أخيراً الاتفاق على مبايعة أبي بكر الصديق لسبقه في الإسلام، وتوفر الخصال الحميدة فيه[1] وقد وضع المسلمون للخلافة شروطاً، وواجبات، ورسوماً.

الخلافة: شروطها وواجباتها ورسومها

شروط تولي الخلافة:

1 ـ العدالة وفقاً لشروطها الجامعة لأن هذا المنصب أساسي يشرف

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 205 ـ 206.

على المناصب الأخرى ويقيم حدود الله فلا بد من توفر العدالة.

2 ـ أن يكون فقيهاً عالماً بالقرآن والسنة والأحكام الدينية بما يمكنه من الاجتهاد.

3 ـ أن يتمتع بسلامة الحواس من سمع وبصر ونطق وخالياً من علامات الجنون والعته.

4 ـ التمتع بسلامة أعضاء الجسم من أي نقص.

5 ـ أن يكون ذا رأي وفكر وسرعة تصرف تمكنه من مباشرة عمله في قيادة الأمة.

6 ـ اتصافه بالشجاعة والحسم تمكنه من إعداد الأمة للجهاد والدفاع ضد أي اعتداء خارجي.

7 ـ أن تتحقق في الخليفة شروط الولاية العامة وهي أن يكون رجلاً وحراً وبالغاً وعاقلاً ومسلماً.

8 ـ اشترط بعض الفقهاء انتساب الخليفة لقبيلة قريش مستندين إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**الأئمة من قريش**». ويبدو أن السبب وراء هذا الشرط تمتع قريش آنذاك بمكانة قوية بين القبائل، مما يلبي حاجة الخليفة إلى عصبية تسنده[1].

واجبات الخليفة:

1 ـ «حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة»، بمعنى أن من أهم واجبات الخليفة بصفته الدينية كخليفة لرسول الله الحفاظ على الدين الإسلامي من أي انحراف، والتصدي للفرق المنحرفة التي تحاول تشويهه بما يلزم من إقناع أو قوة.

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 6؛ ابن خلدون، المقدمة، ص 193 ـ 194.

2 ـ «تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة»، ويعني هذا ممارسة الخليفة لسلطاته القضائية في تنفيذ الأحكام الشرعية، والتي يحولها عادة إلى القضاة.

3 ـ حماية طرق المواصلات وتأمينها حتى يتاح للناس التنقل بأمان، وبالتالي يعم الازدهار التجاري. ويستلزم هذا الأمر انتشار الحاميات في الطرق ومكافحة اللصوص وقطاع الطرق.

4 ـ تطبيق الحدود الشرعية بكل نزاهة وإخلاص حتى يعم الأمن والمساواة بين الأفراد كافة بدون اعتبار لأي عامل يتعلق بالمكانة والنسب والثراء.

5 ـ الاهتمام بالثغور الإسلامية وتحصينها لصد أي محاولة للأعداء لانتهاك سيادة الدولة الإسلامية.

6 ـ قيادة حركة الجهاد ضد أعداء المسلمين بصفته القائد العام لقوات المسلمين.

7 ـ الإشراف على جباية الأموال العامة المستحقة للدولة ولبيت مال المسلمين من ضرائب وزكاة وفقاً للشريعة الإسلامية بدون التعسف في جبايتها.

8 ـ توزيع أموال بيت المال على المستحقين من المسلمين بعدالة وحسب الأوجه الشرعية.

9 ـ تعيين من يثق بكفاءته ونزاهته لمساعدته في إدارة شؤون الدولة.

10 ـ أن يقوم بنفسه بالإشراف على تسيير أمور الدولة وعدم الانشغال عن ذلك لأي سبب باعتبار أنها أمانة ملقاة على عاتقه[1].

ألقاب الخلافة:

اتخذ الخلفاء العديد من الألقاب وحسب نظام الخلافة، فقد تلقب أبو

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 16.

بكر الصديق بـ «خليفة رسول الله» على أساس أنه أعقبه في المسؤولية عن الأمة الإسلامية مباشرة، ثم اقتصر الخلفاء اللاحقون على لقب الخليفة فقط. أما لقب خليفة الله فجوّزه البعض، في حين رفضه آخرون على أساس أن الذي يستخلف معرض للموت في حين أن الله تعالى حي لا يموت[1].

تبنى الخلفاء لقباً آخر منذ عهد عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين ويقال إن هذا اللقب قد أعجب عمر لأنه كان يلقب بخليفة خليفة رسول الله، وأن الاستمرار بهذه السلسلة بإضافة لقب خليفة كلما تولى خليفة جديد سيكون طويلاً[2]. ومع ذلك يبدو واضحاً طغيان الجانب السياسي على لقب أمير المؤمنين بعد توسع الدولة العربية الإسلامية، وترسيخ السلطة السياسية للخليفة.

تلقب الخلفاء أيضاً بلقب الإمام وهو ذو مدلول ديني واضح باعتبار الخليفة إمام لجميع المسلمين في أداء الواجبات الدينية والسهر على مصالح الدين الإسلامي وتولي السلطة القضائية. وأضاف العباسيون إلى أسمائهم ألقاباً مثل الهادي والرشيد والمهدي والمعتصم بالله والناصر لدين الله وغيرها.

رسوم الخلافة:

اتخذ العباسيون من الرايات السود شعاراً لهم، وكتب على الراية باللون الأبيض محمد رسول الله. وخالف الفاطميون في مصر بسبب اعتناقهم لمذهب التشيع فاتخذوا من الرايات البيض شعاراً لهم. ومن ناحية أخرى، حرص الخلفاء العبّاسيون على عادة قرع الطبول على أبواب قصورهم أثناء الصلوات الخمس وعدوا ذلك من معالم السيادة[3].

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 15.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 227.

(3) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده، ط 4، ج 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، ص 256 ـ 258.

ومن مظاهر الترف التي اتخذها الخلفاء المنبر أو السرير والتخت الذي كان محلاً لجلوس الخليفة مرتفعاً عن الجالسين معه، واتخذ أول مرة في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. وهناك بعض الشارات التي اقتصرت على الخليفة مثل السكة وهي ختم العملة المعدنية بكتابات قرآنية وأسماء الخلفاء مع ضبط أوزانها. أما الخاتم فكان يختم به على الرسائل الرسمية، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من أتخذه وكتب عليه محمد رسول الله وتداوله الخلفاء من بعده حتى سقط من الخليفة عثمان بن عفان في البئر. وقد حرص الخلفاء جميعاً على اتخاذ خاتم خاص بهم[1].

أما الطراز الذي اتخذه الخلفاء فتمثل في كتابة اسمائهم أو علامات تخصهم على الثياب الحريرية التي كانوا يرتدونها. هذا وقد اتجه الخلفاء منذ عهد معاوية بن أبي سفيان إلى وضع مقصورة خاصة لهم في المسجد للصلاة فيها خوفاً من التعرض إلى محاولة اغتيال كما جرى لمعاوية. وأصبح الدعاء للخليفة على منابر المساجد إحدى حقوق الخليفة[2]، واعتاد الخلفاء العباسيون على ارتداء البردة النبوية في المناسبات[3]. وأثناء عهود الضعف التي مرت بها الخلافة، أخذت القوى المسيطرة على الدولة والوزراء في منافسة الخلفاء في مراسيمهم وشاراتهم.

الخلافة في العصر الراشدي
11 ـ 41 هـ

بعد أن تمت مبايعة أبي بكر الصديق في السقيفة بيعة خاصة من قبل زعماء المسلمين، جلس في المسجد النبوي في اليوم التالي لتلقي البيعة من عامة المسلمين فدعيت هذه بالبيعة العامة. وحدّد أبو بكر الصديق السياسة العامة لحكمه في خطبة ألقاها بجموع المسلمين، وأصبحت أساساً للسياسة

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 260 ـ 264.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 266 ـ 269.

(3) متز، الحضارة الإسلامية، ص 255.

التي سار عليها الخلفاء الراشدون من بعده، وجاء فيها: «إني قد وليّت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والقوى ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحدٌ منكم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا يَدعُه قوم إلاّ ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلاّ عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم...»[1].

ومن أبرز الأحداث التي شهدها عهد أبي بكر الصديق هو التصدي لحركة الردة التي قامت بها الكثير من القبائل العربية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم واقترنت بظهور عدد من مدّعي النبوة. وبعد الموقف الشجاع للخليفة أبي بكر الصديق ضد هذه الحركة وتحقيقه لوحدة المسلمين داخل الجزيرة العربية، انطلقت الفتوحات الإسلامية نحو أطراف الجزيرة العربية، لا سيما العراق والشام حيث تحققت انتصارات مهمة ضد الدولتين الساسانية والبيزنطية.

وأوصى أبو بكر الصديق قبل وفاته في جمادى الآخرة عام 13 هـ وهو في الثالثة والستين من العمر بعد خلافة استمرت سنتين وثلاثة أشهر، بأن يكون عمر بن الخطاب خليفة بعد أن استثار زعماء الصحابة في صلاحية عمر لهذا المنصب. وكتب عهداً بذلك قرأ على المسلمين، واستدعى عمراً وزوده بالنصائح والوصايا في السياسة التي يسير عليها[2]. وربما أراد الخليفة أبو بكر الصديق بهذه الخطوة تجنيب المسلمين الاختلاف الذي ظهر أثناء بيعة السقيفة، لا سيما وأن الظروف الصعبة كانت تحيط بالدولة الإسلامية الناشئة التي اشتبكت آنذاك بحروب مع دولتين كبيرتين هما الدولة الساسانية والدولة البيزنطية.

تولى عمر بن الخطاب الخلافة وتحققت في عهده الذي امتد عشر

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 210.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 418 ـ 426.

سنوات ونصف الكثير من الإنجازات، إذ استمرت الفتوحات التي بدأها أبو بكر الصديق واستكمل تحرير العراق والشام وحررت مصر وبلاد فارس وبعض مناطق المشرق مما أدى إلى توسع الدولة الإسلامية وفرض قوتها على الساحة الدولية آنذاك. وقام الخليفة عمر بن الخطاب أيضاً بإجراء العديد من التنظيمات الإدارية والمالية التي استجدت بعد الفتوحات، وأبرزها إنشاؤه لديوان الجند وتنظيم توزيع العطاء على المسلمين. واشتهر الخليفة عمر أيضاً بعدالته ونزاهته وابتعاده عن مغريات الحياة والاكتفاء بأبسط مقوّمات المعيشة. ولقي عمر بن الخطاب مصرعه على يد غلام فارسي يدعى أبا لؤلؤة في شهر ذي الحجة عام 23هـ عن عمر ناهز 63 عاماً انتقاماً من هزيمة قومه على يد المسلمين.

قرر عمر بن الخطاب، بعد إصابته بطعنة أبي لؤلؤة، تشكيل مجلس للشورى من ستة من كبار الصحابة الذين مات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو راضٍ عنهم لاختيار أحدهم للخلافة وهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف. ونظم عمر بن الخطاب طريقة عقد المجلس والانتخاب حيث وضع حرساً من الأنصار، وجعل بعض الصحابة مستشارين في المجلس دون أن يكون لهم حق التصويت، وأن تكون مدة المجلس ثلاثة أيام، وإذا تساوت الأصوات أي لكل مرشح ثلاثة أصوات فينتخب المرشح الذي يكون عبد الرحمن بن عوف إلى جانبه. وانتهت المداولات باختيار عثمان بن عفان للخلافة[1].

تولى عثمان بن عفان الخلافة وقد تجاوز عمره السبعين عاماً، واتبع خلال الاثنتي عشر عاماً التي قاد المسلمين فيها سياسة ليّنة اختلفت عن سياسة سلفه فاستغل البعض، ومنهم أقارب للخليفة، تسامحه لتحقيق

(1) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، التنبيه والاشراف، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص 267 ـ 269.

مصالحهم فأثار ذلك نقمة بعض المسلمين. ومن ناحية أخرى بدأت الفرق السياسية والفكرية بالعمل ضد الخليفة وتحريض الناس عليه فأدى ذلك إلى حدوث ما سمي بالفتنة الكبرى التي انتهت باغتيال الخليفة في أواخر عام 35 هـ وقد تجاوز عمره الثمانين بسنوات عديدة، وكان معتكفاً على قراءة القرآن الكريم[1].

وأدى استشهاد الخليفة عثمان بن عفان إلى شيوع حالة من الفوضى والاضطراب والفراغ السياسي في منصب الخلافة، فالتجأ المسلمون إلى مبايعة علي بن أبي طالب بصورة مباشرة. وشهد عهد الخليفة علي بن أبي طالب الذي استمر حوالى خمس سنوات صعوبات جمة مع الخلافات والانقسامات التي عمّت المسلمين إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان، حيث حدثت العديد من المعارك أبرزها الجمل وصفين، وظهرت فرقة الخوارج التي نفذ أحد أعضائها وهو عبد الرحمن بن ملجم عملية اغتيال الخليفة علي ابن أبي طالب بينما كان يؤدي صلاة الفجر في مسجد الكوفة في رمضان عام 40 للهجرة. وتولى الحسن بن علي الخلافة بعد مبايعة أنصار والده له في الكوفة، إلاّ أنه لم يستمر سوى ستة أشهر وتنازل عن الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان ليبدأ بذلك عهد جديد في تاريخ الخلافة الإسلامية وهو عهد الدولة الأموية[2].

خصائص الخلافة في العهد الراشدي:

1 ـ اعتمدت الخلافة الراشدة على مبدأ الشورى الذي اختلفت أساليب تطبيقه بين خليفة وآخر، فكان اختياراً مباشراً من المسلمين في انتخاب أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، وعن طريق التوصية بعد استشارة زعماء المسلمين كما جرى في حالة توصية أبي بكر الصديق بالخلافة لعمر بن

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، م 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968، ص 1052.

(2) ابن خلدون، كتاب العبر، م 2، ص 1133 ـ 1138.

الخطاب، أو عن طريق مجلس للشورى من كبار الصحابة الذي انتخب عثمان بن عفان خليفة للمسلمين. وتأكيداً لهذا المبدأ، رفض الخلفاء الراشدون التوصية بالخلافة لأحد أبنائهم أو أقاربهم حيث ردَّ عمر بن الخطاب على الذين اقترحوا تولية ابنه عبد الله الخلافة من بعده، بقوله: «حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد»[1]. ورد علي بن أبي طالب على الذين سألوه بمبايعة ابنه الحسن من بعده، بقوله: «ما أمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر»[2].

2 ـ اعتمدت الخلافة في العصر الراشدي على الشريعة الإسلامية في شؤون الحكم، ووضعت مقياساً لمدى طاعة المسلمين للخليفة بدرجة التزامه بالسير وفقاً للقرآن الكريم والسنة النبوية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما جاء في الخطبة الجامعة لأبي بكر الصديق، السابقة الذكر، بداية توليه الخلافة والتي جاء فيها: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». وبالتالي مثّل عامة المسلمين الرقابة الشعبية على تصرفات الخليفة وعدم تجاوز سلطاته.

3 ـ امتزجت التقاليد العربية القديمة في اختيار شيخ القبيلة مع التقاليد الإسلامية لا سيما مع رفض الاثنين لفكرة الوراثة، والتأكيد على بعض الصفات التي كانت تستلزمها التقاليد العربية في المرشح مثل السن المناسب، والمكانة الاجتماعية، والنسب، والصفات الشخصية مثل الشجاعة والحلم والكرم وغيرها. وتمثلت التقاليد الإسلامية في القرب من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبته، والسابقة في الإسلام، والجهاد وغيرها.

4 ـ أرست الخلافة الراشدة بعض المبادىء التي استمرت طيلة عهود الخلافة الإسلا مية مثل ضرورة تلقي البيعة الخاصة من زعماء المسلمين، والبيعة العامة التي كانت تجري بعدها في المسجد لعامة الناس، وإلقاء

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 34.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 5، ص 146.

الخليفة خطبة يحدّد فيها سياسته في إدارة الدولة. وعلى الرغم من تحول هذه المراسم في العهود الوراثية إلى شكليات، فإن الخلفاء تمسكوا بها.

5 ـ امتاز الخلفاء الراشدون بالبساطة في التعامل مع عامة الناس والالتقاء بهم في الأماكن العامة مثل المساجد والأسواق، والابتعاد عن الترف واتخاذ الحرس والقصور، والزهد في الحياة والاكتفاء بأبسط متطلبات المعيشة، وعدم محاباة الأقارب وتمييزهم عن الناس، والعدالة في توزيع الموارد على الجميع. وقد أدى ذلك كله إلى جعل احترامهم عظيماً في أوساط الناس.

الخلافة في العصر الأموي
41 ـ 132هـ

ابتدأ العصر الأموي بتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان وفقاً لشروط معينة. وأدخل معاوية بن أبي سفيان مبدأ الوراثة في الحكم، وكان هذا غريباً عن العادات والتقاليد العربية التي اعتمدت على الانتخاب والتقاليد الإسلامية القائمة على أساس الشورى. ولم يتمكن معاوية من تمرير هذا العمل بسهولة مع المعارضة الواسعة التي أبداها العرب المسلمين فابتدأت بالاستنكار وانتهت بعد وفاة معاوية وتولى يزيد بسلسلة من الثورات والحركات المسلحة.

مرت الدولة الأموية بمرحلة من الاضطراب السياسي عقب ارتقاء معاوية بن يزيد وتنازله عن الخلافة، حيث استمرت حركات المعارضة ضد الحكم الوراثي، وتنازع بنو أمية على الخلافة إلى أن تمكن مروان بن الحكم من حشد التأييد له، فانتقل الحكم بذلك من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني من بني أمية عام 64 للهجرة. واستمر تداول الحكم بين بني مروان حتى سقوط الدولة الأموية على يد أسرة جديدة هي الأسرة العباسية عام 132هـ في عهد آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد.

شهدت الدولة الأموية الكثير من الأحداث الجسام التي أثرت على

مسيرة الدولة العربية الإسلامية، ويأتي في مقدمتها حمل راية الإسلام تجاه المشرق والمغرب فاقتحمت الجيوش الإسلامية بلاد ما وراء النهرين والهند والصين شرقاً، وثبت حكم الإسلام في شمال أفريقيا، وافتتحت الأندلس وجنوب فرنسا.

وفي الوقت ذاته، ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية في هذا العهد مع الاتجاه إلى تعريب مؤسسات الدولة من دواوين وعملة والانفصال نهائياً عن نفوذ أنظمة الحكم الأجنبية السابقة.

خصائص الخلافة في العصر الأموي:

1 ـ تبنى الأمويون الوراثة في الحكم فأدخلوا بذلك مبدأ غريباً على العرب والمسلمين، ويبدو أن الأمويين قد تأثروا بالدول التي كانت قائمة قبل الإسلام مثل الساسانية الفارسية والبيزنطية والتي كانت تتبنى مبدأ الوراثة في الحكم.

2 ـ لم يتقبل العرب المسلمون مبدأ الوراثة بسهولة فاستمر الصراع طيلة العصر الأموي بين تيار الوراثة الذي مثله بنو أمية، وتيار العودة إلى الشورى الذي تبناه كبار الصحابة والتابعين وتمثل بالعديد من الثورات مثل ثورة الحسين بن علي في كربلاء وعبدالله بن الزبير في الحجاز.

3 ـ امتد الصراع بين مبدأي الوراثة والشورى إلى داخل الأسرة الأموية، فقد تنازل معاوية الثاني بن يزيد عن الخلافة بعد أربعين يوماً من مبايعته ودعا المسلمين إلى اختيار من يجدونه مناسباً[1]، وهذا دليل على مدى قوة تيار الشورى في المجتمع.

4 ـ على الرغم من تمسك الأمويين بمبدأ الوراثة، إلاّ أنهم أصروا على التمسك ببعض المراسم التي ارتبطت بانتخاب الخليفة ومنها تقبل البيعة من المسلمين، وإلقاء الخطبة حال تولي منصب الخلافة.

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 319.

5 ـ أرسى الأمويون بعض الشروط لتولي منصب الخلافة أهمها أن يكون المرشح من البيت الأموي بالغاً لسن الرشد، وأن لا يقتصر نسبه العربي من جهة الأب فحسب بل حتى من جهة الأم، لذلك لم يحصل بعض البارزين من الأسرة الأموية على التأييد لتولي الخلافة لكونهم أبناء جاريات ومنهم القائد العسكري مسلمة بن عبد الملك بن مروان. ولم تكن الوراثة مباشرة أي من الأب إلى الابن فقط، ولكن هناك حالات انتقلت فيها الخلافة من الأخ إلى أخيه مثل تولي سليمان بن عبد الملك بعد أخيه الوليد، ومن يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام. كما انتقلت الخلافة في بعض الأحيان إلى أبناء العم مثل انتقالها من سليمان بن عبد الملك إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم إلى ابن عمه يزيد بن عبد الملك، وكذلك إلى أبناء الأخ عندما انتقلت من هشام بن عبد الملك إلى ابن أخيه الوليد بن يزيد.

6 ـ ابتعدت الخلافة الأموية عن البساطة التي تميزت بها الخلافة الراشدة، إذ أدخل الخلفاء الأمويون الترف والبذخ ومظاهر السلطة التي اشتهر بها القياصرة الروم مثل اتخاذ الحرس والحجاب، والسكن في القصور، والتصرف في الأموال العامة لخدمة أهداف السلطة الأموية.

7 ـ اعتمدت الخلافة الأموية على العصبية القبلية التي أثيرت بعد أن أبدلها الإسلام بالأخوة الإسلامية، وكان الهدف من ذلك خلق قاعدة مؤيدة للأمويين بعد فقدانهم السند الشرعي القائم على الشورى. وقرّب الأمويون، لهذا الغرض، قبائل بلاد الشام وقلّدوا بعض زعمائها مناصب إدارية وعسكرية في الدولة.

8 ـ تعدّ الدولة الأموية دولة عربية خالصة حيث اعتمد الخلفاء الأمويون على العنصر العربي فقط في إدارة الدولة والولايات، واستبعدوا آيّة مشاركة للمسلمين من غير العرب (الذين عرفوا بالموالي) مما أثار نقمة العناصر غير العربية ودفعها للتآمر لإسقاط الدولة الأموية من خلال الوقوف بقوة مع العباسيين في إنجاز هذه المهمة.

الخلافة في العصر العباسي
132 ـ 656هـ

ابتدأت الخلافة العباسية بتولي أبي العباس السفاح الحكم عام 132 هـ، واستمرت هذه الخلافة فترة طويلة تجاوزت الخمسة قرون حتى سقوطها على يد المغول في عهد الخليفة المستعصم بالله عام 656 للهجرة. وشهدت هذه المدة الطويلة أحداثاً متباينة، وتراوحت قوة الخلفاء بين الضعف والقوة. ولتسهيل دراسة هذه الدولة، قسّم المؤرخون الخلافة العباسية إلى خمسة عصور استناداً لمدى قوة وسيطرة الخلفاء العباسيين، والقوى التي تحكمت في العاصمة.

أمتد العصر العباسي الأول بين 132 ـ 247هـ وتميز بقوة الخلفاء وسيطرتهم التامة على الحكم، وكانت أبرز خصائص الخلافة فيه:

1 ـ استمرت الخلافة العباسية في الأخذ بمبدأ الوراثة في الحكم، ووضع العباسيون نظرية لهذه الوراثة اعتمدت على قرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم باعتبارهم أحفاد عمه العباس وأنهم الأحق بوراثته، وأن الأمويين اغتصبوا حقهم. وجاء في خطبة أبي العباس السفاح بعد تلقي البيعة: «زعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منّا فشاهت وجوههم... ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فأبتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا...». وقال عمه داود بن علي: «الحمد لله شكراً الذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلّى الله عليه وسلم»[1].

2 ـ أكد خلفاء بني العباس على النواحي الدينية في حكمهم من خلال

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 7، ص 425 ـ 426.

تقريب العلماء والفقهاء، واتخاذ الألقاب الدينية مثل المعتصم بالله والمنتصر بالله وغيرها، علاوة على تفضيل لقب الإمام وأمير المؤمنين. وأشاع العباسيون بين الناس أن خلافتهم باقية أمد الدهر، وأنهم لن يسلموا الحكم إلاّ بعد ظهور المسيح عيسى بن مريم. وقال داود بن عيسى عم الخليفة في خطبة البيعة: «وأن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم»[1].

3 ـ لم يقتصر الخلفاء العباسيون على العنصر العربي فقط في إدارة الدولة كما فعل الأمويون بل استخدموا عناصر من الشعوب الإسلامية غير العربية في المناصب العليا، وربما جاء هذا للإيحاء بإيمانهم بالمساواة بين جميع المسلمين، ووقوف الشعوب غير العربية معهم أثناء صراعهم مع الأمويين.

4 ـ امتاز الخلفاء العباسيون في هذا العصر بالقوة والسيطرة التامة على الأوضاع داخل الدولة، وبرزت أسماء الخلفاء الأوائل مثل أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون وغيرهم ممن أوصلوا الحضارة العربية إلى قمتها.

5 ـ ظهرت في هذا العهد مشاكل ولاية العهد بسبب التوصية لأكثر من شخص واحد، ووصلت هذه المشاكل إلى تفجر الصراعات المسلحة مثلما حدث بين ابني هارون الرشيد الأمين والمأمون، والذي انتهى بانتصار المأمون ومقتل الأمين. وأسهم هذا في إضعاف الخلافة العباسية.

أعقب هذه الفترة المزدهرة العصر العباسي الثاني الذي امتد بين 247 ـ 334 للهجرة. وتميز هذا العصر بسيطرة الجند الأتراك على مقدرات الخلافة. وكان الخليفة المعتصم قد استعان بجند جديد بدلاً عن الجند العرب والفرس، واضطر لبناء عاصمة جديدة في سامراء ليقيم فيها مع جنده بعد أن

---

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، م 3، ص 277.

تضايق الناس في بغداد من الجند الجديد[1]. وازدادت قوة هذا الجند بمرور الزمن وتعاظم تدخلهم في شؤون الحكم حتى أصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيديهم.

ومن أبرز خصائص الخلافة في العصر العباسي الثاني:

1 ـ أصبحت القوة الحقيقية بيد قواد الجند الأتراك فتدخلوا في تعيين الوزراء وأمراء الأقاليم وخلعهم، وكانوا يفرضون على الخليفة تنفيذ رغباتهم بحيث لم تعد له سوى السلطة الإسمية.

2 ـ تدخل الجند الأتراك في تعيين وعزل الخلفاء وانتهى مصير معظم الخلفاء في عهدهم بالقتل ابتداءً من الخليفة المتوكل، أو بإفقاد الخليفة إحدى شروط تولي الخلافة من خلال سمل عينيه.

أخذت سيطرة الدولة المركزية على أقاليمها بالضعف وبدأت تظهر إمارات مستقلة أو شبه مستقلة مثل الدولتين الصفارية والسامانية في المشرق، والطولونية في مصر. وظهرت في الوقت ذاته حركات معارضة قوية مثل القرامطة الذين عاثوا في الدولة الإسلامية فساداً واقتحموا مكة وسرقوا الحجر الأسود ونقلوه إلى البحرين، وحركة الزنج في البصرة[2].

4 ـ انقسمت الخلافة الإسلامية في هذا العصر بعد أن كانت موحدة، فقد أعلنت الخلافة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر، وانفصلت شمال أفريقيا ثم مصر فيما بعد بسيطرة الفاطميين وآدعائهم بأحقيتهم في الخلافة.

انتهى هذا العصر على يد البويهيين عام 334 هـ ليبدأ بذلك العصر العباسي الثالث الذي امتد حتى عام 447هـ. والبويهيون عناصر فارسية من إقليم الديلم كوّنوا لهم إمارة صغيرة توسعت بالتدريج في بلاد فارس حتى

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 236.
(2) للتفصيل، انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج و.

سنحت الفرصة لأحمد بن بويه من دخول بغداد في عهد الخليفة المستكفي، وتولي منصب أمير الأمراء.

وأبرز الخصائص التي تميزت بها الخلافة، في العصر العباسي الثالث:

1 ـ استولى البويهيون على السلطة الفعلية في الدولة العباسية ولم يبقوا للخليفة العباسي سوى السلطة الإسمية والدينية، أما إدارة الدولة وتعيين الموظفين وجباية الأموال فانتقلت إلى أمراء بني بويه، ووصلت الاستهانة بالخليفة إلى حد تحديد مرتب له من قبل الأمير البويهي[1].

2 ـ نظراً للاختلاف المذهبي بين العباسيين والبويهيين واعتقادهم بأن العباسيين مغتصبون للخلافة من آل البيت، فكّر الأمير معز الدولة البويهي بنقل الخلافة إلى العلويين لإيمانه بأنهم أحق بالخلافة لكنه تراجع عن ذلك لأن وصول العلويين إلى الخلافة سيؤدي حتماً إلى القضاء على دور البويهيين السياسي. وتذكر إحدى الروايات أن أحدهم قال لمعز الدولة: «ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه»[2].

3 ـ وبسبب اعتقاد البويهيين باغتصاب العباسيين للخلافة فإنهم عاملوا الخلفاء بمنتهى السوء، وانتهى المصير السياسي لمعظم الخلفاء بالعزل على يد البويهيين والتجأوا إلى سمل عيون الكثير منهم حتى يفقدوا إحدى شروط الولاية. ولم يبد البويهيون أي مظاهر احترام للخلفاء، بل وشاركوهم حتى في مراسم الخلافة، وكثيراً ما التجأوا إلى مطالبتهم بمبالغ كبيرة ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم[3].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 314.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 315.

(3) ابن خلدون، كتاب العبر، م 4، ص 928.

4 ـ على الرغم من تدهور المكانة السياسية للخلفاء العباسيين فإنهم حافظوا على نفوذهم الديني باعتبارهم أمراء للمؤمنين، وتمسك الناس بالخلافة العباسية التي اعتقدوا أن الأرض لن تخلو منها. لذلك تشدّد الخلفاء العباسيين في ممارسة ولايتهم الدينية من خلال تعيين القضاة، والدعوة لهم على المنابر في صلاة الجماعة، ومنح الألقاب.

5 ـ حرص البويهيون، لإظهار شرعية حكمهم، أن يوقِّع الخليفة العباسي على القرارات التي يصدروها في خلع وتعيين كبار الموظفين وتولي منصب أمير الأمراء، وفي الحصول على الألقاب الضخمة مثل معز الدولة وركن الدولة وبهاء الدولة وغيرها[1].

6 ـ لم تتعد سلطة الخليفة العباسي في أواخر العهد البويهي أسوار مدينة بغداد، وسيطرت عصابات من اللصوص على أحياء العاصمة ومارست عمليات سلب الأموال جهاراً بدون تدخل من أجهزة الدولة[2].

تخلص العباسيون من السيطرة البويهية بعد استنجاد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بالسلطان السلجوقي طغرل بك ـ وكان السلاجقة قد توسعوا في المشرق حيث استولوا على خراسان وبلاد فارس ثم دخلوا بغداد عام 447 هـ ليقضوا على السيطرة البويهية ويفرضوا نفوذهم على الخلافة ليبدأ بذلك العصر العباسي الرابع، ومن أهم خصائص الخلافة فيه:

1 ـ سيطر السلاجقة على معظم السلطات في دولة الخلافة كما فعل البويهيون من قبل، لكنهم تركوا للخلفاء بعض الصلاحيات التي لم يتمتعوا بها في ظل حكم البويهيين مثل تعيين وزير لهم.

2 ـ نظراً للتقارب المذهبي بين العباسيين والسلاجقة فقد تحسنت معاملتهم للخلفاء العباسيين على النقيض من معاملة البويهيين لهم، حيث

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 138.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 8.

أظهروا الاحترام لهم في المجالس العامة مثل تقبيل الأرض أمامهم وتقبيل أيديهم[1].

3 ـ استمرت محاولة الخلفاء العباسيين في التخلص من السيطرة السلجوقية، لا سيما في عهد الخليفة المسترشد الذي تصدى للسلطان محمود السلجوقي واستعد لحربه ثم دخل في حرب مع السلطان مسعود لكنه هزم وقتل فيما بعد. كما حاول الخليفة الراشد التخلص من السيطرة السلجوقية فعزل ولقي مصرعه بعدها. وواجه الخليفة المقتفي محاولة السلطان محمد بن محمود السلجوقي احتلال بغداد ودافع عنها رافضاً إقامة الخطبة له[2]. وبذلك مهدت محاولات المسترشد والراشد الطريق للمقتفي ثم للخليفة الناصر القضاء على النفوذ السلجوقي.

4 ـ وكعادة الخلفاء العباسيين منذ أوائل قيام دولتهم فإنهم استغلوا مكانتهم الدينية الرفيعة بين الناس للتخلص من النفوذ السلجوقي، ووقف الأهالي فعلاً مع الخلفاء وساندوهم في ذلك الصراع.

وبانتهاء عصر السيطرة السلجوقية أثناء حكم الخليفة الناصر لدين الله، ابتدأ عصر الانتعاش المؤقت للخلافة العباسية الذي استمر أقل من سبعة عقود. ويعد الخليفة الناصر لدين الله أبرز خلفاء هذه المرحلة حيث بادر إلى التخلص نهائياً من السيطرة السلجوقية وتصفية نفوذهم في العراق وملاحقتهم في بلاد فارس وآسيا الصغرى[3]. وبادر الخليفة، للحيلولة دون تكرار مأساة السيطرة البويهية والسلاجقة، إلى خلق نظام دفاع شعبي عرف بالفتوة يتولى حماية الدين والدولة أثناء الخطر.

لم يكن عهد الناصر سوى نهضة مؤقتة لم يتمكن خلفائه من متابعة نهجه، وعادت الخلافة إلى ضعفها مما مكّن المغول من اقتحام بغداد عام

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 80.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 321؛ 354؛ ج 9، ص 51.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 9، ص 150.

656 هـ وتدميرها وتحطيم الرموز الحضارية للحضارة العربية الإسلامية وقتل آخر الخلفاء العباسيين. وبعد سنوات بايع المماليك في القاهرة أحد أفراد الأسرة العباسية بالخلافة لإضفاء الشرعية على حكمهم. وبعد سيطرة العثمانيين على مصر عام 1517م اختفت أخبار الخليفة وقيل إنه تنازل عن الخلافة للسلطان سليم الأول العثماني[1]. وأهمل لقب الخليفة حتى القرن التاسع عشر حين تلقب السلاطين العثمانيّون بلقب الخليفة حتى أعلن مصطفى كمال أتاتورك إلغاء منصب الخلافة عام 1924م.

(1) إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة 1382 ـ 1517، القاهرة، 1960، ص 208.

الـــوزارة

التطور التاريخي لمنصب الوزارة

معنى كلمة الوزير:

الوزير كلمة عربية جاءت من المصدر وزر الذي يعطي العديد من المعاني، وبالتالي فإن العرب لم يقتبسوا هذا المصطلح من أمم أخرى كما حاول بعض المغرضين تصويره، وسنورد بعض الأدلة على ذلك:

1 ـ وردت لفظة الوزير في القرآن الكريم ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[1].

2 ـ جاء في المعاجم اللغوية ذكر لهذا المصطلح، عرفَّه ابن منظور، بأنه: «حَبأ الملك الذي يحمل ثقله ويعينه برأيه». ووازره على الأمر أعانه وقوّاه. وقال إن معنى الوزر الجبل الذي يعتصم به الإنسان لينجيه من الهلاك، فالسلطان يعتمد على رأي الوزير في تسيير أمور الدولة ويلتجأ إليه،

---

(1) سورة طه، الآية 29.

وأنه يزر (يحمل) عن السلطان أثقال الدولة[1].

أما الوزارة كمصطلح فعرّفها ابن خلدون، بأنها: «أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة أو من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع مفاعله أوزاره وأثقاله وهو راجع إلى المعاونة المطلقة»[2]. ويضيف الماوردي معنى ثالثاً لما أورده ابن خلدون وهو الأزر أي الظهر، لأن الخليفة يقوى بوزيره مثلما يقوى الجسد بالظهر[3].

مما تقدم يمكن القول إن الوزارة منصب سياسي يأتي في الأهمية بعد الخلافة، ويتولى صاحبه معاونة الخليفة في تحمل المسؤولية في إدارة الدولة، وأن أصل الكلمة عربي حسب ما ورد أعلاه.

الوزارة حتى نهاية العصر الأموي:

لم يظهر منصب الوزارة حتى قيام الدولة العباسية على الرغم من معرفة العرب بمعنى هذا المصطلح والمنصب حيث عهدوه في بعض الدول التي كانت تحكم المنطقة قبل الإسلام، وكذلك في القرآن الكريم كما سبق ذكره.

عرف عن الرسول صلى الله وعليه وسلم التزامه بالشورى في الأمور الدنيوية، واتجاهه إلى مشاورة كبار الصحابة في حالات وقضايا تخص الدولة والحرب. وكان أقرب أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم إليه أبو بكر الصديق الذي خصه دائماً بالمشورة حتى أطلق عليه بعض المسلمين المطلعين على أخبار دول ما قبل الإسلام وزير الرسول[4].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج ، ص 283.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 236.

(3) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 24.

(4) ابن خلدون، المقدمة، ص 237.

على الرغم من عدم ظهور منصب الوزير في عهد الخلافة الراشدة، فقد تكرر استخدام هذا المصطلح للإشارة إلى بعض كبار الصحابة الذين قدموا مشورتهم للخلفاء الراشدين. وفي هذا الصدد، ردّ أبو بكر الصديق على بعض الأنصار الذين اقترحوا في بيعة السقيفة أن يكون هناك أميران أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين، قائلاً: «منا الأمراء ومنكم الوزراء»[1]. واعتبر عمر بن الخطاب وزيراً للخليفة أبي بكر الصديق حيث كان يقضي بين الناس ويوزع الزكاة على مستحقيها. واستعان الخليفة عمر بن الخطاب بعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، فأصبح عثمان مستشاراً لشؤون القبائل لمعرفته الواسعة بأنساب القبائل وأحوالها، في حين كان عليّ يكتب الرسائل[2].

أما في العهد الأموي فإن معظم صلاحيات الوزير قد تولاها الكاتب، ولم يحبّذ الخلفاء الأمويون تسمية الكاتب بالوزير على أساس أن اسمه مشتق من المؤازرة والخليفة أجل من أن يؤازره أحد[3]. ويبدو أن الخلفاء الأمويين كانوا حريصين على الحفاظ على صلاحياتهم المطلقة لذلك رفضوا أن يشاركهم الوزراء في تلك الصلاحيات.

الوزارة في العصر العباسي:

ظهر منصب الوزارة رسمياً لأول مرة في الدولة العربية الإسلامية في العهد العباسي، وشهد هذا المنصب الكثير من التطورات التي عكستها الأحداث السياسية، ومدى قوى الخلفاء العباسيين أو ضعفهم. لذلك فإن ما أورده بعض المستشرقين عن اقتباس العرب لمنصب الوزارة من الفرس فيه الكثير من التجني، إذ ربما تمت الاستفادة من بعض الأنظمة السابقة لكنهم

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 202.

(2) صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت، 1976، ص 295.

(3) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص 310.

كيفوها بما يتلائم مع العادات العربية والتعاليم الإسلامية.

تميز منصب الوزارة في العصر العباسي الأول 132 ـ 247هـ، بالآتي:

1 ـ كان معظم الأشخاص الذين تولوا منصب الوزارة في العصر العباسي الأول من الفرس، ويعود السبب في ذلك إلى موقفهم المساند للعباسيين أثناء مرحلة الدعوة والصراع ضد الأمويين، ومناداة العباسيين بالمساواة بين جميع الشعوب الإسلامية وفقاً للنظرة الإسلامية التي قفزت فوق الانتماء القبلي والقومي.

2 ـ نظراً لحداثة العمل بمنصب الوزارة فإن الصلاحيات لم تكن واضحة إن لم تتضارب في بعض الأحيان مع صلاحيات الخليفة، بل وصلت الحالة أحياناً إلى الصراع بين الطرفين انتهى لصالح مؤسسة الخلافة بسبب قوة الخلفاء في هذه الفترة. ويبدو أن مبالغة بعض الوزراء الفرس في تقدير دورهم بإقامة الدولة العباسية، وتصورهم بأن قوة كبيرة تسندهم قد دفعهم إلى الاصطدام مع الخلفاء. وذهب ضحية هذا الصراع أول وزير للخلفاء العباسيين وهو أبو سلمة الخلال الذي أتهم بتدبير مؤامرة لنقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين[1]، ويبدو أن الأسباب الحقيقية تتجاوز هذه التهمة، فلربما خشي الخليفة أبو العباس السفاح من تعاظم سلطة الوزير فأراد وضع حد لها. وقام الخليفة أبو جعفر المنصور بإلقاء القبض على وزيره أبي أيوب المورياني وأخيه وبني أخيه ونكبهم[2]. وعلى الرغم من المكانة الكبيرة التي تقلدها الوزير يحيى بن برمك وأبناه جعفر والفضل، إلاّ أن الخليفة هارون الرشيد بطش بهم بقوة بعد أن تجاوزت صلاحياتهم الخليفة ذاته وأخذوا يهدّدون مكانة الخلافة العباسية[3]. وبرز في عهد الخليفة المأمون الوزير الفضل بن سهل ثم أخوه الحسن بن سهل، لكنهما عزلا بعد أن فضّلا

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، م 3، ص 376.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 37.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 8، ص 287.

المصلحة القومية للفرس على سلامة الخلافة العباسية.

تميزت الوزارة في العصر العباسي الثاني الذي شهد تسلط الجند الأتراك بالآتي:

1 ـ لم تكن أوضاع الوزارة بأحسن حال من الخلافة حيث تميزت بالضعف والتدهور، وتعرض بعض الوزراء إلى التعذيب ومصادرة الأموال، فعلى سبيل المثال قبض الخليفة المقتدر على وزيره أبي الحسن بن الفرات وأمر بنهب أمواله[1].

2 ـ تحولت الوزارة إلى منصب شبه وراثي تولته بعض الأسر البارزة مثل آل خاقان وآل الجراح وآل الفرات.

3 ـ انتشر الفساد المالي والرشوة بين الوزراء مما دعا أحد الشعراء إلى القول[2]:

وزير قد تكافل في الرقاعه يولّي ثمّ يعزل بعد ساعه

إذا أهل الرشا اجتمعوا لديه فخير القوم أوفرهم بضاعه

أما في العصر العباسي الثالث الذي تسلط فيه البويهيّون فقد تميزت الوزارة فيه:

1 ـ تدنت مكانة الوزارة إلى أقصى حد في هذه المرحلة وتم إلغاء منصب الوزارة واستعيض عنه بمنصب الكاتب للخليفة العباسي.

2 ـ احتفظ الأمراء البويهيّون بحق تعيين وزير لهم، لكن بعضهم عامل الوزراء بقسوة شديدة، حيث تعرض الوزير أبو محمد المهلبي إلى الضرب الشديد من الأمير معز الدولة البويهي.. واستهان بعض الأمراء بهذا المنصب إلى حد قيام أحدهم بتعيين صاحب مطبخه وزيراً له. وعلى الرغم من ذلك

---

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، م 3، ص 778.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 139.

كله ظهر بعض الوزراء المصلحين مثل الصاحب بن عباد.

3 ـ اتخذ بعض الأمراء البويهيين وزيرين في آن واحد أحدهما في العراق والآخر في فارس[1].

شهد العصر العباسي الرابع الذي تسلط فيه السلاجقة تحسناً نسبياً في مكانة الخلافة العباسية انعكس على المؤسسات الأخرى في الدولة ومنها الوزارة التي تميزت بما يأتي:

1 ـ أعيدت للخليفة العباسي صلاحية تعيين وزير له إلى جانب وزير السلطان السلجوقي.

2 ـ تمتع وزير السلطان السلجوقي بمكانة أرفع من وزير الخليفة بسبب سيطرة السلاطين السلاجقة على الحكم. وكان بإمكان وزير السلطان عزل وزير الخليفة مثلما حدث مع الوزير نظام الملك الذي طلب من الخليفة المقتدي عزل وزيره فخر الدولة فأجابه إلى ذلك[2].

3 ـ وقف الوزراء إلى جانب بعض الخلفاء في صراعهم ضد السيطرة السلجوقية، فعلى سبيل المثال أسر الوزير شرف الدين علي بن طراد الزيبني أثناء الحرب التي خاضها الخليفة المسترشد ضد السلطان مسعود السلجوقي[3].

الوزارة في الدولتين الفاطمية والأموية في الأندلس:

لم يظهر منصب الوزارة في بداية قيام الدولة الفاطمية، بل كان منصب قاضي القضاة أعلى مرتبة بعد الخليفة. وأول خليفة فاطمي آتخذ وزيراً له هو العزيز بالله. ومن الملفت للنظر أن الفاطميين لم يقصروا منصب الوزارة على المسلمين فحسب بل تعدى ذلك إلى أهل الذمة من اليهود والمسيحيين،

---

(1) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ص 175 ـ 179.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 125 ـ 126.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 348.

حيث تولى هذا المنصب لأول مرة ابن كلّس الذي كان يهودياً قبل إسلامه. وتقلد هذا المنصب أيضاً عيسى بن نسطورس المسيحي الذي كان يخاطب بسيدنا الأجل[1].

أما في الدولة الأموية في الأندلس فقد قسمت الوزارة إلى عدة أصناف وضعوا لكل صنف وزير، فكان للإشراف على الثغور وزير، وآخر للأمور المالية، وكذلك لأمور النظر في المظالم. وكان هناك وزير بمثابة حلقة وصل بين الخليفة الأموي والوزراء أطلق عليه الحاجب، وأصبح بمرور الزمن متقدماً على زملائه في المكانة والصلاحيات[2]، وهو يشبه إلى حد كبير منصب الوزير الأول أو رئيس الوزراء حالياً.

أنــواع الــوزارة

شهدت الدولة العربية الإسلامية نوعين من الوزارة، وتمثل الفرق بينهما في مدى الصلاحيات التي تمتع بها الوزير، والشروط الواجب توفرها فيه، وهما:

وزارة التفويض:

تمتع صاحب وزارة التفويض بصلاحيات واسعة بتخويل من الخليفة، فكان ينوب عن الخليفة في تقليد الحكام وقيادة الجيش والنظر في المظالم وسائر أمور الحكم، مع استشارة الخليفة في الإجراءات التي يقوم بها. ومع ذلك لم يكن من حق وزير التفويض تعيين ولي العهد، أو عزل من يعيّنه الخليفة في حين كان بإمكان الخليفة عزل الموظفين الذين يختارهم الوزير[3]. ومن الأمثلة البارزة على الصلاحيات الواسعة التي كان يتمتع بها وزير التفويض قول الرشيد لوزيره يحيى بن خالد البرمكي عند تعيينه: «قد

(1) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ص 175 ـ 180.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 239 ـ 240.

(3) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 24 ـ 25.

قلدتك أمر الرعية فأحكم فيها بما ترى من الصواب وأعزل من رأيت واستعمل من رأيت»، وسلم إليه خاتمه[1].

ونظراً للمكانة الكبيرة التي منحت لوزير التفويض، فقد وضعت شروط صعبة لتولي هذا المنصب مشابهة لشروط الخلافة باستثناء النسب لقريش بمعنى أن يكون رجلاً حراً مسلماً بالغاً وخالياً من العاهات الجسمية والعقلية، وأن يكون مجتهداً علاوة على شرط إضافي آخر هو توفر الخبرة لديه في أمور الخراج والمالية والحرب. وقد أبرز الخليفة العباسي المأمون هذه الصفات، بقوله: «إني التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ذا عفة في خلائقه واستقامة في طرائقه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، إن أؤتمن على الأسرار قام بها وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم وينطقه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة، له صولة الأمراء وأناة الحكماء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء، إن أحسن إليه شكر، وإن ابتلي بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه»[2].

أكد العلماء، لأهمية هذه الوزارة، على ضرورة أن يقوم الخليفة بتعيين الوزير بلفظ صريح مثل «قد فوضنا إليك الوزارة» حتى يمكن الفصل بين وزارتي التنفيذ والتفويض.

وزارة التنفيذ:

وهي أقل أهمية من وزارة التفويض ولا يشترط فيها الاجتهاد بالرأي، ولا تتعدى صلاحيات الوزير تنفيذ أوامر الخليفة، ويكون واسطة بينه وبين الولاة والناس ينقل إليهم أوامر الخليفة وينفذها ويعرض على الخليفة ما يرد إليه من الولاة.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 82.

(2) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 22.

ولهذا السبب، كانت شروط تولي هذه الوزارة أقل تشدداً من وزارة التفويض وأهمها أن يكون رجلاً، وأن يتمتع بالأمانة ولا يعرف عنه الخيانة أو الغش، وصدق اللهجة، وقلة الطمع بحيث لا يلجأ إلى الرشوة، وذكيا، وبعيداً عن التحيز والأهواء لطائفة أو مذهب، وأن يتمتع بالخبرة والتجربة وحسن التدبير.

يمكن ملاحظة عدة فروق في شروط تولي وزارة التنفيذ عن وزارة التفويض فلم يكن شرطاً أن يكون وزير التنفيذ حراً أو مسلماً حيث سمح ذلك لأهل الذمة، أو عالماً بالأحكام الشرعية، أو خبيراً في أمور الخراج والحرب، في حين كان من اللازم أن تتوفر هذه الشروط في وزير التفويض.

أما بالنسبة للصلاحيات، فلم يكن من حق وزير التنفيذ مباشرة الحكم والنظر في المظالم، أو تغيير الولاة، أو التصرف بحركة الجيش وإعلان الحرب، أو التحكم في أموال بيت المال، في حين شملت صلاحيات وزير التفويض هذه الأمور. ومن الفروق الأخرى التي ميزت بين الوزارتين أنه كان يمكن تعيين وزيرين للتنفيذ بسبب الصلاحيات المحدّدة، في حين لا ينطبق ذلك على وزير التفويض نظراً لولايته العامة وصلاحياته الواسعة مما يؤدي إلى التضارب والتعارض في الصلاحيات إذا تم تعيين أكثر من وزير تفويض[1].

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 25 ـ 27.



الفصل الخامس

الحجابة

المقصود بالحاجب الشخص الذي يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم، أو يفتحه لهم على قدرٍ في مواقيته. ويختلف مفهوم الحاجب في الأندلس عنه في المشرق، حيث تركّزت وظيفته في حجب الخليفة عن الخاصة والعامة وواسطة بين الخليفة والوزراء، لذلك حرص بعض الأشخاص الذين استولوا على الحكم إلى تبني لقب الحاجب لارتفاع مكانته، وأبرزهم المنصور بن أبي عامر[1].

يتضح من مفهوم الحجابة أنها كانت جزءاً من حالة الترف والأبهة التي تميزت بها حياة الملوك، لذلك لم تظهر وظيفة الحاجب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي عاش حياة بسيطة مكرسة لنشر الدين الإسلامي، وظهر وسط المسلمين كأي واحد فيهم مبتعداً عن مظاهر الترف والسيادة. وسار الخلفاء الراشدون على النهج النبوي في الابتعاد عن المظاهر الدنيوية وحياة القصور والحرس والحجاب، فلم يكن صعباً على أي مسلم الالتقاء

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 240.

بالخليفة سواءً في الأسواق أو المجالس العامة أو المسجد، الذي كان مقراً للحكم واتخاذ القرارات.

ابتدأ منصب الحاجب مع بداية الدولة الأموية في عهد معاوية بن أبي سفيان، ليتلائم ذلك مع التقاليد الملكية التي أدخلها الأمويون من اتخاذ الحرس والقصور ومظاهر الأبهة، وخشية الخلفاء من التعرض للاغتيال التي واجهها ثلاث خلفاء راشدين هم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي ابن أبي طالب، ومحاولة اغتيال معاوية بن أبي سفيان على يد الخوارج. وقد شدّد الخلفاء الأمويون على حسن اختيار الحاجب فجاء في وصيّة لعبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز: «انظر حاجبك وليكن من خير أهلك فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلاّ أعلمك مكانه لتعلم أنت الذي تأذن له أو ترده»[1].

شهد العصر العباسي تطورات مهمة في مهام وصلاحيات الحاجب، يمكن إجمالها بما يأتي:

1 ـ تحولت مهمة الحاجب من تنظيم دخول الناس إلى الخليفة ومنع الأشخاص غير المؤتمنين من الدخول لمقابلته، وبالذات في العصر الأموي، إلى منع العامة من الدخول على الخليفة إلاّ للضرورة واقتصار مقابلته على المقربين إليه. وأصبح القائم بهذه الوظيفة في أواخر العصر العباسي يتمتع بصلاحيات واسعة بحيث كان يقنع الخليفة بحجب نفسه حتى عن أقرب المقربين إليه[2].

2 ـ تدخل الحجاب في عصور ضعف الدولة العباسية في تعيين وعزل الخلفاء، ودخلوا في منافسات مع الوزراء، فكان لحاجب الخليفة المقتدر مثلاً دور مهم في عزله لصالح ابن المعتز، ثم بادر المقتدر بعد عودته

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4، ص 102.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 291.

للخلافة إلى قتله بتحريض من الوزير الذي أخبره بموقف الحاجب[1].

3 ـ سعى الحاجب في عصور ضعف الخلافة العباسية إلى الحصول على الألقاب الفخمة مثل حاجب الحجاب[2].

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 135.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 90.



الفصل السادس

الكتابة

التطور التاريخي لوظيفة الكتابة

اشتقت كلمة الكتابة من المصدر «كتب» فيقال كتب كتباً وكتابة ومكتبة، وسمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض. وتعني في الاصطلاح جميع ما يسطره القلم مما يتصوره الذهن ويتخيله الوهم فيدخل تحته مطلق الكتابة[1]. وقد ورد مصطلح القلم والكاتب والكتابة في آيات عديدة من القرآن الكريم، منها: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]، ووصف الملائكة بأنهم حفظة وكتّاب: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾[3].

عرف العرب المسلمين الكتابة منذ العهد النبوي، فقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم العديد من الكتاب وصل عددهم حسب بعض الروايات

---

(1) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج 1، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963، ص 51.

(2) سورة العلق، الآية 3 ـ 5.

(3) سورة الانفطار، الآية 10 ـ 11.

إلى واحد وثلاثين، أبرزهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وحذيفة بن اليمان والمغيرة ابن شعبة، وذكر أن الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان أموال الصدقات. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبعث بكتبه إلى الأمراء وأصحاب السرايا ويكاتبونه، كما أرسل رسائل إلى الملوك دعاهم فيها إلى الإسلام، ووضع كتاب الهدنة بين المسلمين وقريش في الحديبية.

أما في العهد الراشدي فقد تولى بعض كبار الصحابة الكتابة للخليفة، فقد كتب عثمان بن عفان وزيد بن ثابت للخليفة أبي بكر الصديق، وتولى عثمان بن عفان كتابة العهد بالخلافة من أبي بكر الصديق إلى عمر بن الخطاب. وبرز في عهد خلافة عمر بن الخطاب من الكتاب زيد بن ثابت وعبد الله بن خلف. وكتب للخليفة عثمان بن عفان مروان بن الحكم، وتولى أبو رافع مولى الرسول صلى الله عليه وسلم وسعيد بن نجران الكتابة للخليفة علي بن أبي طالب[1].

شهدت الكتابة في العصر الأموي تطورات بارزة، فقد أصبح هناك خمسة أصناف للكتاب، كاتب للرسائل، وآخر للخراج، وكاتب للجند، وكاتب للشرطة، وكاتب للقضاء. وظل كاتب الرسائل أعلى الكتاب منزلة لأنه كان يطلع على أسرار الدولة والخلافة، لذلك حرص الخلفاء الأمويون على اختياره من العناصر المقرّبة إليهم والموثوق بها[2].

وصلت الكتابة في العصر العباسي إلى قمة تطورها، حيث استكمل وضع الأسس والقواعد لها، ومن أبرز مميزات الكتابة والكتاب في هذا العصر:

1 ـ شهد العصر العباسي التنافس بين الكتاب والوزراء، فعلى سبيل المثال ألقى الخليفة أبو جعفر المنصور القبض على وزيره أبي أيوب

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ص 40؛ 91 ـ 92.

(2) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص 304.

الموريانيِ وأخيه وبني أخيه ونكبهم بتحريض من كاتبه أبان بن صدقة[1].

2 ـ شدّد الكتاب في العصر العباسي على الإيجاز في الكتابة، فقد ذكر عن جعفر بن يحيى البرمكي أنه أوصى كتابه بقوله: «إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا»[2]،

3 ـ شاع الفساد في أوساط الكتاب، لا سيما في عصور ضعف الخلافة، الأمر الذي دفع بعض الخلفاء إلى تغريمهم مبالغ كبيرة، فقام الخليفة الواثق مثلاً بحبس الكتاب ومطالبتهم بمبالغ باهظة تجاوزت مئات الألوف من الدنانير[3].

4 ـ برز في عصور ضعف الخلافة العباسية الإسهاب في التملق للخليفة وكبار المسؤولين، خاصة في صيغة الدعاء والتعظيم للمخاطب من قبل الكتّاب[4].

5 ـ أصبح للكتّاب في العصور العباسية المتأخرة دور مهم في عزل وتعيين الخلفاء، فعلى سبيل المثال كان للكاتب محمد بن داود الجراح أثر بارز في عزل الخليفة المقتدر وتعيين ابن المعتز محله، فكافأه الخليفة بتعيينه وزيراً[5].

صفات وشروط الكاتب

أوضح عبد الحميد الكاتب، وهو أحد أبرز الكتاب في الدولة الأموية، الصفات التي يجب أن يتمتع بها الكاتب، بقوله: «أما بعد حفظكم الله يا

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 36.
(2) أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أدب الكتاب، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا، ص 228.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 269.
(4) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ص 165.
(5) ابن خلدون، كتاب العبر، م 3، ص 755.

أهل صناعة الكتابة. . . فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً. . . فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها. . . فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون. . . فإن الكاتب يحتاج في نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم فهيماً في موضع الحكم مقداماً في موضع الإقدام محجماً في موضع الأحجام مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف كتوماً للأسرار وفياً عند الشدائد عالماً بما يأتي من النوازل يضع الأمور مواضعها والطوارق في أماكنها قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيىء لكل وجه هيئته وعتاده فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وأرووا الأشعار. . . وأيام العرب والعجم. . . وأرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها وسفاسف الأمور ومحاقرها فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب. . . وإياكم والكبر والسخف والعظمة فإنها عداوة محتلبة. . .»[1].

وحدّد القلقشندي عشرة شروط يجب أن تتوفر في الكاتب، وهي:

1 ـ **الإسلام**: وهذا شرط ضروري حتى يؤمن الكاتب في كتابته، ويلجأ في كتابته إلى الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولكن يبدو أن هذا الشرط لم يكن ملزماً خاصة قبل تعريب الدواوين.

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 248 ـ 249.

2 ـ **الذكورة**: وهذا ما نص عليه الشافعي وغيره من الفقهاء، على الرغم من تحدث بعض الروايات عن ظهور كاتبات من المسلمات.

3 ـ **الحرية**: لم يسمح الفقهاء بتولي الأرقّاء الكتابة.

4 ـ **التكليف**: أي لا يتولى الصبي غير البالغ الكتابة.

5 ـ **العدالة**: نظراً لتأثير الكتابة على حقوق الناس فلم يسمح بتولي فاسق أو من يشك في نزاهته هذا المنصب حتى لا يميل إلى طرف ويلحق الضرر بالآخرين.

6 ـ **البلاغة**: وهي من الشروط اللازمة حتى يكتب بعبارات مفهومة لا تقبل التأويل ويطيل حين تستوجب الإطالة، ويقصِّر حيث يوجب التقصير.

7 ـ **التمتع بالعقل ورجاحة الرأي**: ذكر أن كلام المرء ورأيه على قدر عقله.

8 ـ **العلم بالأحكام الشرعية والفنون الأدبية**: حتى يميز بين الحق والباطل.

9 ـ التمتع بقوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس.

10 ـ أن يكون الكاتب كفوءاً للمنصب لأن العجز والكسل يلحق الضرر بالدولة، ويؤدي الضعف إلى الاضطراب والاختلال في صفوف المسلمين[1].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ص 61 ـ 67.

الفصل السابع

التطور التاريخي للإمارة

ظهر منصب الوالي مع بروز الحاجة إلى وجود تنظيم لإدارة المناطق التي خضعت للدولة الإسلامية بعد خروجها من نطاق المدينة المنورة. ففي العهد النبوي، استعمل الرسول صلّى الله عليه وسلم بعض الولاة في مناطق متعددة من الجزيرة العربية فأرسل أبا سفيان إلى نجران، وعيّن عتاب بن أسيد على مكة بعد فتحها وغيرهما، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً على محاسبة عماله على الرغم من تشدده في اختيارهم، والتجأ إلى عزل من يشكوه الناس كما فعل مع العلاء بن الحضرمي والي البحرين. ومن أقواله المأثورة: **«اثنان في الأرض إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء»**[1].

عرفت الإمارة في العهد الراشدي تطورات مهمة، فبعد فراغ الخليفة أبي بكر الصديق من حروب الردة عمد إلى تقسيم الجزيرة العربية واليمن إلى ولايات بلغ عددها اثنتي عشرة ولاية أهمها مكة والمدينة والطائف وصنعاء

---

(1) حسن علي حسن والتوم الطالب محمد، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، 1986، ص 78 ـ 81.

وحضرموت ونجران والبحرين، وأبقى معظم الولاة الذين عينهم الرسول صلّى الله عليه وسلم في أماكنهم. وعيّن أبو بكر الصديق القادة العسكريين الذين بعثهم لتحرير الشام والعراق ولاة على الأراضي المحرّرة ـ ولم يهمل الخليفة مراقبة عماله وولاته، وكان يلجأ إلى عزلهم إذا ما أبدوا أي خلل كما فعل مع خالد بن سعيد[1].

شهدت الإدارة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وضع أسسها وقواعدها، فكان الخليفة مشهوراً بحسن اختيار الولاة وفقاً لكفاءتهم بغض النظر عن أي عامل آخر، وكان يراقبهم بشدة عن طريق العيون التي تأتيه بالأخبار ويلجأ إلى معاقبتهم إذا ما قام أي أحد منهم بالاعتداء على حقوق المواطنين. ومنع الخليفة الولاة من المتاجرة خوفاً من استغلال نفوذهم ويلجأ إلى مصادرة نصف أموالهم إذا بلغه ممارستهم للتجارة كما فعل مع عمرو بن العاص والي مصر وغيره. وقد قسم عمر الدولة العربية الإسلامية إلى ولايات هي الأهواز والبحرين وخراسان، وبلاد فارس التي جعلت ثلاث ولايات، وولايتين في العراق هما الكوفة والبصرة، والشام إلى ولايتين إحداهما في حمص والأخرى في دمشق، وولاية فلسطين، وولاية مصر وأفريقيا[2].

حافظ الخليفة عثمان بن عفان على معظم الولاة الذين عيّنهم سلفه. وقام الخليفة علي بن أبي طالب بعزل الولاة الذين عينهم الخليفة عثمان بن عفان[3]. ومنح الخليفة علي الولاة صلاحيات واسعة بشرط الالتزام بأبسط مقومات المعيشة، وعدم إلحاق الضرر بالرعية. وفي هذا الصدد، أوصى الخليفة أحد ولاته، بقوله: «إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا

(1) علي علي منصور، نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، ط ح، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ص 280 ـ 281.

(2) حسن علي حسن، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 81 ـ 83.

(3) توفيق سلطان اليوزبكي، دراسات في النظم العربية والإسلامية، جامعة الموصل، 1977، ص 104.

صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضرب أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم، ولا تقمه على رجل في طلب درهم، ولا تبع لأحدٍ منهم عرضاً في شيء من الخراج، فإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم»[1].

أما الإمارة على البلدان في العصر الأموي فقد تميزت بما يأتي:

1 ـ قسمت الدولة إلى ولايات كبرى تتبعها أقاليم أصغر، وهي: الحجاز وضمت مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف، واليمن، والعراق الذي ضم الكوفة والبصرة وخراسان وبلاد ما وراء النهر، والجزيرة الفراتية وأرمينيا التي شملت الموصل وأذربيجان وأرمينيا، والشام التي ضمت فلسطين والأردن ودمشق وحمص، ومصر وأفريقيا، والأندلس[2].

2 ـ اعتمد الأمويون على العنصر العربي فقط في تولي الإمارة على الولايات وأثاروا العصبية القبلية عن طريق التناوب في استخدام التكتلات القبلية الكبيرة لا سيما اليمانية والقيسية مما أسهم في تأرجح الصراعات القبلية.

3 ـ استخدم الخلفاء الأمويون أقاربهم في الإمارة على بعض الولايات ومنها المدينة المنورة التي تولاها سعيد بن العاص ومروان بن الحكم في عهد معاوية بن أبي سفيان، وعمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك[3].

4 ـ اعتمد الأمويون على بعض الشخصيات القوية لتولي الإمارة ومنحوهم صلاحيات واسعة في إدارة شؤون الولايات وتعيين ولاة في الأقسام التابعة لولاياتهم، ومن تلك الشخصيات زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي ويزيد بن المهلب وغيرهم.

---

(1) علي علي منصور، نظم الحكم والإدارة، ص 312.

(2) عبد الحسين مهدي الرحيم، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الجامعة المفتوحة، طرابلس، 1995، ص 217.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 246؛ ج 4، ص 106.

5 ـ على الرغم من المكانة البارزة التي منحها الخلفاء الأمويون لولاتهم فإنهم لم يترددوا في خلعهم أو معاقبتهم إذا ازدادت شكوى الناس منهم، فقد عزل الخليفة يزيد بن عبد الملك والي مكة والمدينة عبد الرحمن بن الضحاك بسبب شكوى قدمتها فاطمة بنت الحسين بن علي، وأمر بجلده، وعزل الخليفة هشام بن عبد الملك والي خراسان خالد بن عبدالله وأخاه بسبب سيرتهما السيئة في ولايتهما[1].

شهدت الإمارة على البلدان في العصر العباسي تطورات مهمة، وتميزت بالآتي:

1 ـ لم يقتصر تولي الإمارة في العصر العباسي على العنصر العربي فحسب كما كان الحال في العصر الأموي، بل نال العديد من الفرس هذا المنصب وبخاصة كبار الدعاة الذين أسهموا في انتصار العباسيين مثل أبي مسلم الخراساني وغيره. وقد منح الخلفاء العباسيون أولئك الأمراء صلاحيات واسعة مما دفعهم في بعض الأحيان إلى التمرد على الدولة.

2 ـ حرص الخلفاء العباسيون على منح المنصب لأفراد من الأسرة العباسية في بعض الولايات ذات الأهمية السياسية أو الدينية مثل الحجاز والبصرة وخراسان. ففي هذا الصدد، تولى سليمان عم الخليفة أبي العباس السفاح ولاية البصرة، وعمه الآخر إسماعيل الأهواز، وعمه داوود الحجاز[2].

3 ـ ظهر أسلوب جديد في إدارة الولايات وهو بقاء بعض الولاة في العاصمة مع الخليفة بينما التجأوا إلى إرسال وكيل عنهم إلى الولاية، ومن أولئك جعفر بن يحيى البرمكي الذي عينه الخليفة هارون الرشيد أميراً على مصر، فبعث بدوره عمر بن مهران عاملاً عليها[3].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4، ص 188؛ 200.

(2) ابن خلدون، كتاب العبر، م 3، ص 377.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 91.

4 ـ شهدت الدولة العباسية في عصور الضعف والتسلط الأجنبي على الخلافة انفصال العديد من الولايات وتكوينها دولاً مستقلة أو ارتباطها إسمياً فقط بالخلافة العباسية بحيث اقتصر نفوذ الخليفة في عصور الضعف على بغداد والمناطق القريبة المجاورة لها.

أنواع الإمارة

انقسمت الإمارة على الولايات والأقاليم إلى نوعين وفقاً للصلاحيات التي تمتع بها الوالي، وهما: الولاية العامة والولاية الخاصة.

أولاً: الولاية العامة: ظهر نوعان من الولاية العامة، هما: ولاية الاستكفاء وولاية الاستيلاء.

1 ـ **إمارة الاستكفاء**: ويعين الخليفة بموجبها والياً بمحض إرادته ودون ضغوط من أحد. ويمنح الوالي صلاحيات واسعة في إمارته شملت الإشراف على الجيش، وتعيين القضاة والإشراف عليهم، وجباية الخراج والضرائب، وحماية الدين من التشويه والفرق الخارجة عليه في الولاية، وإقامة الحدود الشرعية. وإمامة المسلمين في صلاة الجماعة، والإشراف على تسيير الحجاج، وتولي الجهاد إذا كانت ولايته في منطقة محاذية للعدو.

ونظراً للصلاحيات الواسعة التي كان يتولاها الوالي، فقد وجب توفر شروط عديدة فيه تماثل شروط وزارة التفويض، لأن الفرق بينهما في شمول صلاحيات وزير التفويض الدولة بأكملها، في حين تقتصر صلاحيات الوالي على إمارته[1].

2 ـ **إمارة الاستيلاء**: ويعقدها الخليفة مضطراً بعد استيلاء شخص ما على الولاية بالقوة، فيلجأ الخليفة إلى الاعتراف به خوفاً من انفصالها التام عن الدولة. وكان على الوالي في هذه الحالة الاعتراف بالسلطة الدينية

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 30.

للخليفة، والحصول على تقليد منه حتى يكتسب المشروعية لوجوده في الولاية[1].

ثانياً: الولاية الخاصة: وكانت صلاحيات الوالي في هذا النوع مقصورة في الإشراف على إدارة الولاية وشؤون الجيش، ويقوم الخليفة بتعيين موظفين إلى جانبه للإشراف على القضاء والخراج والنواحي المالية يرتبطون به أو بالوزير مباشرة.

ونظراً للصلاحيات المحدودة التي منحت للوالي، فقد كانت الشروط اللازمة لتعيينه أقل تشدداً من تعيين الوالي في الولاية العامة وهي تشابه شروط تعيين وزير التنفيذ مع إضافة شرطين هما أن يكون مسلماً بحكم إشرافه على أمور دينية، وأن يكون حراً للسبب ذاته[2].

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 33 ـ 34.

(2) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 32 ـ 33.

الفصل الثامن

الدواوين

اختلف المؤرخون وعلماء اللغة في أصل كلمة الديوان، فقد أرجعها البعض إلى أصل فارسي[1]، وجاء عند ابن منظور أنه مجتمع الصحف وأورده بكلمة دوان ويجمع على دواوين أو دياوين ويؤكد على الأصل الفارسي للكلمة[2]. ويؤيد الماوردي هذا الرأي، ويعرّف الديوان بأنه: «موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال»[3].

أما الرأي الذي يؤكد على الأصل العربي للكلمة فيورد بعض الأدلة التي تثبت ذلك ومنها قول ابن عباس «إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب». وذكر سيبويه أن التدوين يعني التثبيت، فيقول دوّنته أي أثبته[4].

وضع أول ديوان في الإسلام من قبل الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب

---

(1) الصولي، أدب الكتاب، ص 187.

(2) ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 166.

(3) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 199.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص 90.

بعد أن تواردت الأموال بكثرة من الأقاليم المفتوحة، حيث بحث عن طريقة لتوزيعها فأشار عليه بعض المسلمين بتدوين الديوان لكتابة أسماء المسلمين والمقاتلين منهم حتى يتم توزيع العطاء عليهم. وقد كلف الخليفة بعض الصحابة بتدوين أسماء المسلمين مبتدئين بقرابة الرسول صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني عبد المطلب ثم بقية قريش فالأنصار حسب السبق في الإسلام. ورفض الخليفة عمر بن الخطاب المساواة بين المسلمين في العطاء، وقال: «لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه». ولهذا فإنه فضّل المسلمين الذين شهدوا بدراً على غيرهم من المسلمين، باستثناء بني هاشم وزوجات الرسول صلّى الله عليه وسلم، في العطاء. وهكذا منح أصحاب بدر من المهاجرين الأولين خمسة آلاف درهم، ولغيرهم من أصحاب بدر أربعة آلاف درهم، ولزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف درهم، والمهاجرين قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم[1].

أطلق على هذا الديوان ديوان الجند، الذي كان الديوان الوحيد في العصر الراشدي المدوّن باللغة العربية. وشهدت الدواوين تطورات مهمة في العصرين الأموي والعباسي، حيث تعددت وتنوعت مهامها مع التقدم الزمني والتطور الحضاري. ويمكن تحديد أهم أنواع الدواوين التي ظهرت خلال العصرين المذكورين:

1 ـ **ديوان الجند**: وهو الديوان الذي وضع أسسه الخليفة عمر بن الخطاب بهدف تدوين أسماء الجند، ومقدار العطاء المخصص لهم. وتطور هذا الديوان في العصر الأموي حيث أصبحت وظيفة إحصاء أسماء الجند ومقدار عطائهم كل فترة من الزمن[2].

2 ـ **ديوان الخراج**: وكانت مهمة هذا الديوان تسجيل الأراضي الخراجية التي فتحت عنوة، ومقدار الخراج المفروض عليها. ومثّل الخراج

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 199 ـ 201.

(2) توفيق سلطان اليوزبكي، النظم الإسلامية، ص 113.

المورد الأساس لخزينة الدولة مما منح هذا الديوان أهمية كبيرة. وقد وضع هذا الديوان باللغة اليونانية في الشام، واللغة الفارسية في العراق واستمر ذلك حتى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حين أمر بنقلها إلى اللغة العربية فابتدأ بديوان الشام عام 81 للهجرة. وقيل إن الخليفة عرض على كاتبه سرجون الديوان الجديد فاغتم لذلك وقال للكتاب الروم: «اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة وقد قطعها الله عنكم». أما ديوان العراق فنقل إلى اللغة العربية في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي[1]. وقد مثلت عملية التعريب هذه بلا ريب خطوة مهمة في استكمال استقلال الدولة العربية الإسلامية عن نفوذ الدول الأجنبية الحاكمة السابقة، ولبنة أساسية في بناء الحضارة العربية الإسلامية.

وخضع صاحب ديوان الخراج في العصر العباسي لمسؤولية الوزير، وكان مسؤول الديوان في دولة الموحدين من الأسرة الحاكمة وأطلق عليه صاحب الأشغال. أما في الأندلس فتبع صاحب الديوان للحاجب[2].

3 ـ **ديوان الرسائل**: تولى هذا الديوان في العصر الأموي مكاتبات الخليفة مع أمراء الولايات، ومخاطباته مع الملوك الأجانب[3]. وكانت هذه المراسلات قصيرة ودقيقة المعنى بأسلوب رصين، ويعد عبد الحميد الكاتب من أشهر الكتاب الذين عملوا في هذا الديوان أثناء العصر الأموي ووضع القواعد والأسس التي ظل معمولاً بها في العصر العباسي. وقد أطلق الفاطميون اسم ديوان الإنشاء عليه[4].

4 ـ **ديوان الخاتم**: استخدم المسلمون الخاتم لختم الكتب منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قيل له عندما أراد مخاطبة الملوك

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 202 ـ 203.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 245.

(3) حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992، ص 60.

(4) حسن علي حسن، تاريخ الحضارة العربية، ص 95.

ودعوتهم للإسلام، إنهم لا يقبلون الرسائل إذا لم تكن مختومة فاتخذ لذلك خاتماً من فضة نقش عليه محمد رسول الله، وتداوله من بعده الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان حتى سقط في البئر. وقد ظهر الديوان لأول مرة في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان بعد اكتشاف تزوير في رسالة رسمية موجهة إلى أحد عماله. وكان بنو أمية يختارون الثقاة لتولي هذا الديوان الذي تمثلت مهامه في التأكد من توقيع الخليفة، وختم الرسالة بخاتمه[1]. وأصبح هذا الديوان تحت مسؤولية الوزير في أوائل الدولة العباسية.

5 ـ **ديوان البريد**: أرجع البعض كلمة البريد إلى اللغة الفارسية، وأصلها (بريده دم) وتعني مقطوع الذنب حيث كان يقطع ذنب الحيوان المستخدم في البريد لتمييزه عن غيره. ومع ذلك لم تقتصر معرفة البريد على الفرس فحسب، بل كان للبيزنطيين نظام جيد للبريد.

ويُعد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان أول من وضع البريد في الإسلام، حيث أمر بإقامة محطات تستبدل فيها الخيول التي كانت تحمل البريد. ووصل نظام البريد إلى مرحلة دقيقة ومنظمة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أمر أن يحمل إليه البريد حال وصوله ليلاً أو نهاراً[2].

وتمثلت مهام صاحب ديوان البريد في عرض الكتب، التي كانت تصله من جميع الولايات، على الخليفة بعد إيجازها، والإشراف على عمال البريد، والاتصال بـ (العيون) التي كانت تنقل الأخبار إليه، ومعرفة الطرق المختلفة في الدولة حتى يقدم النصح للخليفة في حالة إرسال جيش أو أية مهمة أخرى. وبذلك كان على صاحب البريد مراقبة الأوضاع في كافة الولايات، وسلوك الولاة والقضاة وعمال الخراج وغيرهم عن طريق «العيون» وتزويد الخليفة بمعلومات تفصيلية عن كل هذه الأمور. وتتضح هذه المهام من خلال ما جاءت في كتاب تولية البريد لأحد الأشخاص أن عليه «أن

---

(1) الصولي، أدب الكتّاب، ص 139 ـ 143.

(2) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص 330 ـ 331.

يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجري عليه أمرهم، ويتتبع ذلك تتبعاً شافياً... وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال، وما يجري في أمور الرعية فيما يعاملون به من الانصاف والجور والرفق والتعسف فيكتب به مشروحاً... وأن يتعرف ما عليه أحوال الحكام في أحكامهم وسيرتهم وسائر مذاهبهم وطرائفهم... وأن يتعرف حال دار الضرب مما يضرب فيها من العين والورق... وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتباً بأعيانها، فيفرد أخبار القضاة وعمال المعادن والأحداث بأخبار الخراج والضياع»[1].

وشهد ديوان البريد تطوراً ملحوظاً في العصر العباسي، فقد روي عن الخليفة أبو جعفر المنصور قوله: «ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلاّ بهم أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم. والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي. والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية. ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة: آه آه قيل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة»[2]. وكان أبو جعفر المنصور يقابل صاحب البريد بعد صلاة المغرب للاطلاع على أخبار النهار، وبعد صلاة الصبح لمعرفة أخبار المساء[3]. وقد اهتم العباسيون بربط المدن بعضها بالبعض الآخر لتسهيل تنقل البريد، فعلى سبيل المثال أمر الخليفة المهدي بربط مكة المكرمة بالمدينة المنورة[4]. وتناغماً مع حياة الترف التي عاشها العباسيون، تعدى دور البريد لنقل الأخبار إلى إيصال بعض أنواع الفواكه والسلع إلى الخليفة[5].

---

(1) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981، ص 50 ـ 52.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 46.

(3) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص 332.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 68.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 226.

ولم يقتصر البريد على الطرق البرية فحسب، وإنما استخدم الحمام الزاجل لنقل الرسائل جواً لا سيما من قبل المماليك في مصر الذين وضعوا أبراجاً للحمام في قلعة الجبل. وكانت الرسائل تكتب من نسختين تعلق كل نسخة في أجنحة إحدى الطيور حتى إذا لم تصل إحداهما لأي سبب، وصلت الأخرى[1].

6 ـ **ديوان بيت المال**: كان هذا الديوان مشرفاً على الأموال الواردة إلى الدولة حيث يتم تثبيتها في سجلات. وكان صاحب الديوان مسؤولاً أمام الوزير في العصر العباسي فيرفع إليه التقارير عن حركة الأموال في الديوان[2].

7 ـ **ديوان الطراز**: وكان يعد من مستلزمات أبهة الملوك والسلاطين، واختص برسم علامات أو كتابة الأسماء على الملابس المصنوعة من الحرير أو الديباج، واستخدمت خيوط الذهب وغيرها لنسج هذه الأسماء أو العلامات. وقد أطلق على المصانع المخصصة لنسج الأثواب دور الطراز والمسؤول عنها صاحب الطراز، الذي كان من المقربين إلى الحكام. ولم يقتصر وجود هذا الديوان على الدولة العباسية فحسب، بل امتد إلى الدولة الفاطمية والدولة الأموية في الأندلس[3].

8 ـ **ديوان النفقات**: واختص بنفقات دار الخلافة، التي جاءت معظم موارده من إيجارات أراضي الخليفة[4].

9 ـ **ديوان الصدقات**: وكان مشرفاً على أموال الزكاة والصدقات وتوزيعها وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، واستحدث هذا الديوان في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك[5].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص 118 ـ 119.

(2) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص 36.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ص 266 ـ 267.

(4) متز، الحضارة الإسلامية، ص 148.

(5) توفيق سلطان اليوزبكي، دراسات في النظم، ص 114.

10 ـ **ديوان المواريث**: وهو الديوان المسؤول عن توزيع تركات الموتى حسب الشريعة الإسلامية، وألغي هذا الديوان في عهد الخليفة العباسي المعتضد وأمر بأن يقوم ذوو الأرحام بتوزيع أسهم المواريث[1].

11 ـ **ديوان المستغلات**: ومهمة هذا الديوان الإشراف على إدارة أموال وممتلكات الدولة غير المنقولة مثل الأراضي والأبنية[2].

ومن ناحية أخرى، اتخذ الديوان من المسجد الجامع في العاصمة مقراً له، ثم نقلت الدواوين فيما بعد إلى دار الإمارة أو الوزير[3]. وكان نقل الديوان مؤشراً على تنوع اختصاصاته وحصوله على درجة مهمة من الاستقلالية عن التنظيمات الإدارية الأخرى.

وشهدت الدواوين تطورات ملحوظة في العصر العباسي، فأمر الخليفة أبو العباس السفاح بكتابتها في دفاتر بدلاً من الصحف المتفرقة، وظهر في عهد الخليفة المهدي دواوين الأزمة للإشراف على الدواوين الأخرى وضبط حساباتها ثم ديوان زمام الأزمة للإشراف على دواوين الأزمة. كما استحدثت دواوين أخرى مثل ديوان المظالم للنظر في الشكاوى المرفوعة ضد الولاة والمسؤولين في الدولة التي يعجز القضاء العادي عن النظر فيها، وديوان الصوافي المشرف على أراضي الدولة، ودواوين أخرى[4]. أما في العصور العباسية المتأخرة فقد برزت ظاهرة الألقاب الفخمة التي سعى إليها مسؤولو الدواوين. ولأغراض تنظيمية، أمر الخليفة المقتدر بإغلاق الدواوين يومي الجمعة والثلاثاء من كل أسبوع[5].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 84.

(2) حسن علي حسن، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 96.

(3) حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، ص 54.

(4) توفيق سلطان اليوزبكي، دراسات في النظم، ص 118.

(5) متز، الحضارة الإسلامية، ص 164، 167.

الفصل التاسع

الشرطة

تطور نظام الشرطة

جاءت الشرطة من كلمة الشُرط لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، ومفردها شُرطة وشرطي[1]. وعرف ابن خلدون الشرطة، بأنها: «وظيفة مرؤوسة لصاحب السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان». وقد أطلقت عدة تسميات على المسؤول عن هذا الجهاز، فدعي صاحب الشرطة في المشرق، والحاكم في أفريقيا، وصاحب المدينة في الأندلس، والوالي في دولة المماليك بمصر[2].

وأرجع بعض المؤرخين ظهور نواة الشرطة إلى العهد النبوي حيث أقيم نظام الحراسة الليلية (العسس) لحماية أمن المدينة المنورة من اللصوص والأعداء، وكان بديل بن ورقاء حارس المدينة والمسؤول عن العسس فيها. وذكر أن قيساً بن سعد كان بمثابة صاحب الشرطة للرسول صلّى الله عليه وسلم، وأورد آخرون أن بعض مهمات صاحب الشرطة قد أوكلت لعلي بن

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج 7، ص 329 ـ 330.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 251.

أبي طالب - ويتبين من هذه الروايات المتعددة أن مهمات صاحب الشرطة توزعت بين عدد من الصحابة، فكان البعض يقوم بالحراسة، في حين تكفل آخرون بتنفيذ الحدود الشرعية[1].

استمر العمل بنظام العسس في العصر الراشدي حيث كلف الخليفة أبو بكر الصديق الصحابي عبدالله بن مسعود بتولي هذه المهمة[2]، والصحابي علي بن أبي طالب بتنفيذ الحدود الشرعية. وقام الخليفة عمر بن الخطاب بتولي مهمة الحراسة بنفسه بالتعاون مع بعض الصحابة، وهناك العديد من الوقائع عن اهتمام الخليفة بحل مشاكل المسلمين بعد إطلاعه بشكل مباشر على أوضاعهم من خلال تجواله في المدينة. وقد تبنى عدد من الولاة في خلافة عمر بن الخطاب الشرطة في ولاياتهم مثل معاوية بن أبي سفيان والي الشام، وعمرو بن العاص والي مصر.

ويعد الخليفة عثمان بن عفان أول من استبدل العسس بالشرطة في العاصمة المدينة المنورة، وعيّن أحد الصحابة مسؤولاً عن الشرطة. وشهد عهد الخليفة علي بن أبي طالب اضطراباً في الأمن بعد الفتنة الكبرى واستشهاد الخليفة عثمان بن عفان مما استدعى اهتمامه بنظام الشرطة، لا سيما في العاصمة الكوفة التي كانت تعج بمختلف التيارات السياسية. وتولى الشرطة في هذا العهد الرجال البارزون والمقرّبون للخليفة، كما نظمت السجون التي ألحقت بصاحب الشرطة[3].

تطور نظام الشرطة في العصر الأموي تطوراً ملحوظاً تناسب مع تقدم الأنظمة الإدارية في تلك الفترة، ومنح صاحب الشرطة صلاحيات واسعة لإرساء الاستقرار في المجتمع. وسار نظام الشرطة نحو الاستقلال التدريجي

---

(1) محمد الشريف الرحموني، نظام الشرطة في الإسلام إلى أواخر القرن الرابع الهجري، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1983، ص 51 ـ 52.

(2) توفيق سلطان اليوزبكي، دراسات في النظم، ص 148.

(3) محمد الشريف الرحموني، نظام الشرطة في الإسلام، ص 55 ـ 61.

عن القضاء، لا سيما في العقوبات المفروضة على بعض الجرائم التي تتطلب حسماً سريعاً مع تنفيذه للأحكام التي يصدرها القاضي في القضايا الجنائية المتعلقة بالشريعة الإسلامية. والحق بالشرطة في هذا العصر بعض الأنظمة مثل مراقبة المشتبه بهم حيث أمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان بإعداد سجل لحصر المشتبه بهم في دمشق بغرض مراقبتهم والحد من نشاطهم الإجرامي، كما أعدت فرق لإطفاء الحرائق في مصر، وأسس جهاز خاص من الشرطة في خلافة هشام بن عبد الملك أطلق عليه الأحداث للتصدي للبدع التي أدخلت على الدين الإسلامي[1].

واستمر العمل بنظام الشرطة في العصر العباسي وازدادت مهماته، فاقيمت في عهد هارون الرشيد شبكة من العيون تحت إمرة صاحب الشرطة، واهتم أيضاً بتوزيع الحرس ليلاً للمحافظة على الأسواق والطرق داخل العاصمة بغداد[2]. وعلى الرغم من اتجاه الشرطة نحو الاستقلال عن القضاء، إلاّ أن تداخل الصلاحيات بين القاضي وصاحب الشرطة قد أدى إلى محاولة كلا الطرفين فرض سيطرته على الآخر، أو الإيقاع به. ومن الأمثلة على ذلك نجاح محاولة الفقهاء في عهد الخليفة المقتدر من الحصول على أمر بجعل أحد الفقهاء رقيباً على أحكام صاحب الشرطة حتى تكون مطابقة للشريعة الإسلامية. وأصدر الوزير فيما بعد قراراً بعدم أحقية القاضي أو صاحب الشرطة بالاعتراض على حكم يصدره أحدهما[3].

وإذا انتقلنا إلى الدولة الأموية في الأندلس نجد أن الشرطة قد انقسمت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وتمثل الفرق بينهما بأن الكبرى قد احتفت بكبار رجال الدولة والمسؤولين المرتكبين مخالفات للقانون أو مظالم لعامة الناس، واقتصر متوليها على المقربين للحاكم حتى يتمكن من القيام

---

(1) محمد الشريف الرحموني، نظام الشرطة في الإسلام، ص 65 ـ 67.

(2) حسن علي حسن، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 102.

(3) متز، الحضارة الإسلامية، ص 428 ـ 429.

بواجباته. ومنح صاحب الشرطة الكبرى صلاحيات واسعة وحظي بمكانة مرموقة أهلت بعضهم للوصول إلى منصب الوزارة أو الحجابة. أما الشرطة الصغرى فامتدت صلاحياتها إلى عامة الناس فقط.

وعلى العكس من الشرطة في الدولة الأموية في الأندلس، لم تمتد صلاحية صاحب الشرطة في دولة الموحدين إلى كبار رجال الدولة. وعلى الرغم من ذلك، حرص الموحدون على اختيار صاحب الشرطة من الرجال المقربين إليهم[1].

صفات صاحب الشرطة:

حدّد الخليفة الأموي مروان بن محمد الصفات الواجب توفرها في صاحب الشرطة، بقوله: «فول شرطتك وأمر عسكرك أوثق قوادك عندك، وأظهرهم نصيحة لك، وأنفذهم بصيرة في طاعتك، وأقواهم شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريحة، وأصدقهم عفافاً، وأجرأهم غناء، وأكفاهم أمانة، وأصحهم ضميراً، وأرضاهم في العامة ديناً، وأحمدهم عند الجماعة خُلقاً، وأعطفهم على كافتهم رأفة، وأحسنهم لهم نظراً، وأشدهم في دين الله وحقه صلابة. ثم فوّض إليه مقوياً له، وأبسط من أمله مظهراً عنه الرضا، حامداً فيه الابتلاء. وليكن عالماً بمراكز الجنود، بصيراً بتقدم المنازل، مجرباً، ذا رأي وتجربة وحزم في المكيدة، له نباهة في الذكر، وصيت في الولاية، معروف البيت، مشهور الحسب»[2].

يتبين من هذا النص أن على صاحب الشرطة التمتع بالأمانة، والعلم بالأحكام الشرعية والتمسك بها، والنزاهة، والقوة والشدة لتطبيق الحق والقانون، والكفاءة والاجتهاد بالرأي.

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 251 ـ 252.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 10، ص 215 ـ 216.

مهام ووظائف الشرطة:

نظراً للأهمية التي كان يؤديها جهاز الشرطة، فقد ألقيت على عاتقه مهام ووظائف متعددة تداخل قسم منها مع أجهزة أخرى مثل القضاء والحسبة وغيرهما. ومع الاختلاف في وظائف جهاز الشرطة بين عصر وآخر، ودولة وأخرى، فيمكن إجمالها بالآتي:

1 ـ النظر في الجرائم وتنفيذ الأحكام على مرتكبيها.

2 ـ حماية الأمن وملاحقة الجريمة.

3 ـ حفظ النظام العام في المجتمع.

4 ـ الإشراف على السجون.

5 ـ المحافظة على الأخلاق والآداب العامة.

6 ـ تنفيذ أوامر الخليفة أو الوالي.

7 ـ مكافحة الفرق والآراء المنحرفة عن الإسلام.

8 ـ إبلاغ أوامر الخلفاء أو الولاة لعامة الناس.

9 ـ مراقبة المشتبه بهم بهدف الحد من نشاطاتهم المضرة بالمجتمع.

10 ـ القيام بمهمة إطفاء الحرائق، وكان هذا خاصة في مصر[1].

وإذا كان نظام الشرطة نظام تنبيه ومراقبة فإن نظام القضاء هو نظام إنزال العقوبات على المخالفين، وهذا النظام قد أولاه المسلمون عناية خاصة.

---

(1) محمد الشريف الرحموني، نظام الشرطة في الإسلام، ص 113 ـ 117.

الفصل العاشر

القضاء، والنظر في المظالم

القضـــاء

لم يكن عند العرب في الجاهلية سلطة تشريعية تسن لهم القوانين، بل سادت عندهم العادات والتقاليد. فكان شيخ القبيلة يفصل فيما ينشأ من خصومات بين أفرادها ومن هذه العادات والتقاليد، التي كانت تُستمد إما من تجاربهم أو معتقداتهم أو ممن جاورهم من الأمم، كالفرس والروم، أو ممن اختلطوا بهم كاليهود والمسيحيين. وكان للعرب في الجاهلية نوعٌ من القضاء يعتمد على مصادر مختلفة نذكر منها:

1 ـ الأعراف والتقاليد التي ألفوها والمستمدة من تجاربهم.

2 ـ الاحتكام إلى الكهان[1]، والعرافين[2].

3 ـ الاحتكام بالقرعة.

4 ـ النظر في المظالم، ورد حقوق المظلومين، وقد شهد الرسول

---

(1) الكاهن: هو الرجل الذي يعتقد الناس أن له تابعاً من الجن يطلعه على كل شيء.

(2) العرّاف: هو الذي يعرف الأمور عن طريق الفراسة والقرائن، وذلك بملاحظة نبرات صوت الشخص وملامحه وحركاته عند التكلم.

صلى الله عليه وسلم في صغره مجلساً من هذا النوع، تحالف فيه القرشيون على نصرة المظلوم من الظالم وهو حلف الفضول.

5 ـ وُجد عند العرب قديماً ما يُعرف بالحكومة، وهو عبارة عن مجلس قضائي مهمته تقدير الضرر وتقدير التعويض عنه. وكان ينوب عنهم من أصحاب الحكومة في قريش. وكانوا يفصلون فيما يقع بين القرشيين والعرب الوافدة على مكة من خصومات.

القضاء في عهد الرسول:

تولى الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بدأ الدعوة أمر الفصل في الخصومات، كما تبين من الحلف الذي عقده بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين. وفيه يقول: «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله».

وكان عليه الصلاة والسلام قاضياً، كما كان للشريعة مُبلغاً. ولم يكن للمسلمين في عهده قاض سواه، إذ كانت الأمة لا تزال على بساطتها وضيق رقعتها فضلاً عن قلة القضايا المرفوعة إليه ولم يؤثر عنه أنه عيَّن في بلد من البلاد رجلاً اختص بالقضاء بين المسلمين، بل كان يعهد بذلك إلى بعض الولاة ضمن توليتهم أمور الولاية، وتارة يعهد إلى بعض أصحابه بفض الخصومات.

وكان المتخاصمان يحضران أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فيسمع كلام كل منهما، ويقضي بينهما بما أنزل الله تعالى. وكانت طرق الإثبات عنده البيّنة[1]، واليمين، وشهادة الشهود والكتابة، والفراسة، والقرعة، وغيرها. وكان الرسول عليه السلام يقول: **«البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر»، «أمرت أن أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر»، «إذا اجتهد**

---

(1) البيّنة: البيّنة في الشرع: اسم لما بيّن الحق ويظهره، بمعنى أن المدعي ملزم بإظهار ما يبين صحة دعواه، فإذا ظهر صدقه بإحدى الطرق، حكم له.

الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر».

وكان عليه السلام لا يحابي أحداً من المتخاصمين، فقد أُثر عنه أنه قال: **«فإذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء»**. وللدلالة على ذلك نسوق المثال التالي:

جاء رجلان يختصمان في مواريث بينهما قد درست، وليس بينهما بيِّنة، فقال رسول الله: **«إنكم تختصمون إلى رسول الله، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها أسطاطاً في عُنقه يوم القيامة»** فبكى الرجلان، وقال كل منهما: حقي لأخي فقال رسول الله، : **«أما إذن فقوما فاذهبا فلتقتسما، ثم توخيا الحق، ثم استهما: ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه»**.

وكان الفصل في الخصومات بين الناس في صدر الإسلام، يقوم على أساس أحكام القرآن قال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[1].

ولما انتشرت الدعوة الإسلامية، أذن الرسول لبعض الصحابة بفض الخصومات بين الناس، طبقاً للكتاب والسنّة[2] والقياس[3]. وسمح لمن أرسلهم إلى الأمصار بالقضاء طبقاً للقرآن والسنّة والقياس والاجتهاد. فقد

(1) سورة النساء: الآية 64.

(2) السنة: ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير.

(3) القياس: ويقصد به أنه إذا عرضت على القاضي قضية لم يجد فيها حكماً بإجماع من الصحابة، بحث عن مشكلة تشبه ما بين يديه من المشاكل، يكون قد صدر فيها حكم بإجماع من القرآن أو السنّة أو الإجماع، وهو اتفاق مجتهدي الأمة في عصر من العصور على أي حكم من الأحكام، بشرط أن يكون له مستند من الكتاب والسنة.

روى أنه لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: **«بماذا تحكم؟»**، قال: بكتاب اللّه، قال: **«فإن لم تجد؟»**، قال: بسنّة نبيّه، قال: **«فإن لم تجد؟»** اجتهد برأيي فقال عليه الصلاة والسلام: **«الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضي به رسوله»**.

ولما كانت أحكام القرآن التي نزلت بصدد بعض الحوادث، وأقوال النبي وإرشاداته إنما تتناول عموميات الأمور لا جزئياتها لذا أذن الرسول الكريم لبعض الصحابة الولاة في الأقاليم بالقضاء، وذلك بالفصل في القضايا والخصومات بالقرآن والسنّة والقياس. كما أذن لبعض الصحابة بالفتيا التي اشتهر فيها من بينهم مائة وواحد وثلاثون رجلاً وامرأة، نخص بالذكر منهم عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والسيدة عائشة، وعبدالله بن عمر.

ولم يكن السجن بمعناه المعروف الآن موجوداً زمن الرسول، ولا عهد أبي بكر وإنما استحدث في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، إذ كان الحبس في عهد الرسول لا يتعدى منع المتهم من الاختلاط بغيره، وذلك بوضعه في بيت أو مسجد وملازمة الخصم أو من ينيبه عنه له.

القضاء في عهد الخلفاء الراشدين:

اهتدى الخليفة أبو بكر الصديق بهدي رسول الله في جميع الأمور ومن بينها القضاء وقيل: كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم، نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وإن لم يكن في الكتاب، وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم سنّة قضى بها، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين، وقال: أتاني كذا وكذا، فهل علمتم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قضى في ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء، فيقول أبو بكر: «الحمد الله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا، فإن أعياه أن يجد فيه سنّة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به».

وقد أسند أبو بكر القضاء إلى عمر فبقي سنتين لا يأتيه متخاصمان، لما عُرف به من الشدَّة والحزم. على أن عمر لم يلقب بلقب قاضٍ في خلافة أبي بكر.

ولما ولي عمر الخلافة، واتسع نطاق الدولة، وترامت أطرافها وتنوعت أعمالها واختلط العرب بغيرهم من شعوب البلاد المفتوحة، أصبح من غير الميسور للخليفة أن يباشر القضاء بنفسه، فوكل هذه المهمة إلى أشخاص يتفرغون لها سموا «قضاة» وبذلك كان عمر أول من عين قضاة في الولايات الإسلامية. فولى أبا الدرداء قضاء المدينة، وولى شريح بن الحارث الكندي قضاء الكوفة، وولى أبا موسى الأشعري قضاء البصرة[1]، وولى قضاء مصر عثمان بن قيس بن أبي العاص، وجعل قضاء الشام قضاء مستقلاً.

وقد سن عمر بن الخطاب للقضاة دستوراً يسيرون على هديه في الأحكام، ويعتبر الكتاب الذي تضمنه، أساساً للقضاء في الإسلام، وبعث عمر بهذا الدستور إلى أبي موسى الأشعري وغيره من القضاة وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس سلام عليك، أما بعد: فإن القضاء فريضة مُحكمة، وسنَّة مُتبعة، فافهم إذ ادلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. واس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلاّ صلحاً أحل حراماً أو حرَّم حلالا. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم! فيم تلجلج[2] في صدرك، مما ليس في كتاب ولا سنَّه. ثم أعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور بنظائرها واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 220.

(2) التلجلج: التردد في الكلام.

أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلاّ وجهت القضاء عليه، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلاّ مجلوداً في حد، أو مجرباً في شهادة زور أو ظنيناً[1] في ولاء أو قرابة، فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات، وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات. فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويُحسن به الذكر[2]، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه، يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك، شأنه الله».

وكان القضاة يعيّنون من قبل الخليفة. غير أنه كان أحياناً يفوض إلى ولاة الأمصار اختيار القضاة لولايتهم، بعد أن يزودهم بالنصائح ويرشدهم إلى الصفات التي يجب توافرها فيهم. فكان يراعي في اختيارهم غزارة العلم والتقوى والورع والعدل والذكاء، ولذا كان القضاء في عهد الخلفاء الراشدين مستقلاً محترم الجانب.

وقد كتب الخليفة علي بن أبي طالب إلى عامله في مصر مشدداً على اختيار القاضي العادل بقوله: ... ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك، ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل، ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك، ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك».

---

(1) الظنين: المتهم.

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 71 ـ 72.

وكان القضاة في عهد الخلفاء الراشدين يصدرون أحكاماً فورية يتم تنفيذها دون أن يكون هناك كاتب أو سجل لجلسات القضاء. وقد اجتهد القضاة في بعض الأحيان في إصدار الأحكام استناداً إلى نصوص القرآن الكريم فالسنّة النبوية، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص ففتحوا بذلك باب الاجتهاد والرأي والقياس وكان القاضي يجلس للقضاء بين المتخاصمين في منزله، ثم أصبح يعقد جلساته في المسجد.

القضاء في عهد الدولة الأموية:

تميز القضاء في عهد بني أمية بميزتين اثنتين:

الأولى: أن القاضي كان يحكم بما يوحيه إليه اجتهاده، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التي تقيد بها القضاة فيما بعد. قد ظهرت. فكان القاضي في هذا العصر يرجع إلى الكتاب والسنّة في الفصل في الخصومات.

الثانية: أن القضاء كان مفصولاً عن السياسة، فكان القاضي مستقلاً في أحكامه لا يتأثر بميول الدولة الحاكمة، وكان مطلق التصرف، وكلمته نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج.

وكان اختيار القضاة في العصر الأموي يتم بعناية فائقة من بين علية القوم ممن كانوا ذوي حظ وافر من العلم ويخشون الله في أحكامهم، وكان تدخل الخلفاء لا يتم إلاّ على من شذّ عن الطريق السويّ. روي الكندي أن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي، بلغه أن يحيى بن ميمون الحضرمي، لم ينصف يتيماً احتكم إليه بعد بلوغه، فلما علم الخليفة عَظُمَ ذلك عليه، وكتب إلى عامله على مصر يقول «أصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً وتخير لقضاء جندك رجلاً، عفيفاً، ورعاً، تقياً، سليماً من العيوب، لا تأخذه في الله لومة لائم»[1]. ومن هذه العبارة: نتبين الصفات التي يجب أن يتصف بها القاضي في ذلك العصر. قال عمر بن عبد العزيز:

(1) الكندي، عمر محمد بن يوسف: كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت، مكتبة المثنى، 1908، ص 340.

«إذا كان في القاضي خمس خصال، فقد كمل: علم بما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم على الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاركة أهل العلم والرأي».

وقد تميز القضاة في العصر الأموي بتدوين الأحكام التي يصدرها القضاة، والتي لم تكن معروفة في عهد الخلفاء الراشدين، ولعل السبب في ذلك هو عودة المتخاصمين واستئناف الحكم بإعادة النظر في القضية أو إنكار أحد الخصمين للحكم الصادر والذي لم يوثق. فقد ذكر الكندي ذلك بقوله: «كان سليم بن عنز قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان، فاختصم إليه في ميراث، فقضى بين الورثة ولكنهم تناكروا ورجعوا إليه، فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه، وأشهد فيه شيوخ الجند، فكان بذلك أول قاضٍ في العهد الأموي سجل أحكامه[1].

القضاء في العصر العباسي:

تميز النظام القضائي في العصر العباسي بالتطور ففي ذلك العصر:

1 ـ ضعفت روح الاجتهاد في الأحكام لظهور المذاهب الأربعة، فأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. فكان القاضي في العراق يصدر أحكامه وفق مذهب الإمام أبي حنيفة، وفي الشام وبلاد المغرب وفق مذهب مالك، وفي مصر وفق مذهب الشافعي. وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلدان، أناب القاضي عنه قاضياً على مذهب المتخاصمين. ولا تزال هذه المذاهب الأربعة أحد مصادر التشريع الإسلامي إلى اليوم. وقد أطلق على العصر العباسي، عصر أئمة المذاهب، إذ وضعت فيه أصول الفقه.

2 ـ تأثر القضاة بالسياسة، لأن الخلفاء كانوا يريدون أن يكسبوا أعمالهم الصبغة الشرعية. فحملوا القضاة على السير وفق رغباتهم، مما جعل

---

(1) الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص 309 ـ 310.

عدداً كبيراً من القضاة يعزفون عن تولي هذا المنصب خشية أن يحملهم الخليفة على الافتاء بما يخالف نصوص الشرع الإسلامي الحنيف، ولا يتفق مع ذممهم وضمائرهم. لذا نرى أن أبا حنيفة يمتنع عن القضاء في عهد أبي جعفر المنصور، ويقول له: «... واتق الله، ولا ترع في أمانتك إلاّ من يخاف الله والله ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب. ولو اتجه الحكم عليك، ثم هددتني أن تغرقني في الفرات، أو ألغي الحكم، لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك، ولا أصلح لذلك». وقد صدق حدس الإمام أبي حنيفة النعمان! إذ تدل الشواهد أن الخلفاء العباسيين قد نقضوا العهد مع كثير من القواد بعد أن أعطوهم الأمان وذلك عن طريق فتاوى القضاة، كما فعل أبو العباس مع ابن هبيرة، وأبو جعفر المنصور مع محمد بن عبدالله المعروف بالنفس الزكية. وهارون الرشيد مع يحيى بن عبدالله.

3 ـ اتخذ العباسيون نظام «قاضي القضاة» الذي كان يحتل أعلى سلطة في القضاء ويقوم بتعيين القضاة الذين ينوبون عنه ـ في الأقاليم والأمصار. وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب كتاب «الخراج» وذلك في عهد هارون الرشيد، الذي كان يجلُه ويحترمه، وكان يطوف على القضاة ويتفقد أحوالهم وسيرهم، وهو أول من بدّل لباس العلماء، وميزهم بلباس مخصوص بهم، بعد أن كانوا يلبسون كسائر الناس. قال المقريزي: «... فلما قام هارون الرشيد بالخلافة، ولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم، أحد أصحاب أبي حنيفة، بعد سنة سبعين ومائة، فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلاّ من أشار به القاضي أبو يوسف واعتنى به، وأصبح لقاضي القضاة من بعده، الحق في تعيين قضاة بغداد، وتبع ذلك تعيين قضاة الأقاليم». أما في الأندلس فقد أطلق على قاضي القضاة قاضي الجماعة، ويقوم بتعيين قضاة الأقاليم.

4 ـ وفي العصر العباسي اتسعت سلطة القاضي حتى شملت الفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء، وقد تضاف إليه الشرطة والحسبة

والمظالم والقصاص ودار الضرب وبيت المال. وقد أشار ابن خلدون إلى مهام القاضي قائلاً: «استقر منصب القضاء، على أن يجمع مع الفصل بين الخصوم، استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أحوال المحجور عليهم، من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم، وتزويج الأيامى عند فقد أوليائهن، على رأي من يراه، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية، وتصفح الشهود والأمناء والنواب، واستيفاء العلم والخبرة فيهم، بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من متعلقات وظيفته وتوابع ولايته»[1].

5 ـ دعت الضرورة إلى تعيين أربعة قضاة في كل ولاية، كل واحد منهم يمثل أحد المذاهب الأربعة، وكل منهم يُعرف بقاضي القضاة. قال جلال الدين السيوطي: كان الخلفاء يولون القاضي، المقيم ببلدهم، ولا يُلقب به إلاّ من هو بهذه الصفة، ومن عداه بالقاضي فقط أو قاضي بلد كذا. وأما الآن فصار في البلد الواحد أربعة مشتركون، كلٌ منهم يلقب قاضي القضاة. . .».

وقد تأثر القضاء كسائر مظاهر الحياة في العصر العباسي الثاني، ووعد الذين رسخوا أنفسهم لهذا المنصب الخطير بتقديم مبلغ معين من المال يؤدونه في كل سنة.

وبضعف الخلافة في أواخر العصر العباسي، قلّت سلطة القاضي، وفقدت وظيفته هيبتها تدريجياً حتى أصبح عمله مقصوراً على الفصل في الخصومات، والنظر في الأحوال الشخصية.

مرتبات القضاة:

كان عمر بن الخطاب أول من خصص راتباً للقضاة ففرض للقاضي سليمان بن ربيعة خمسمائة درهم في كل شهر، وجعل لشريح قاضي البصرة

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 221، 222.

مائة درهم ومؤنة من الحنطة.

واستمر راتب القضاة على هذا النحو، زمن الخلفاء الراشدين، ثم ارتفعت في عهد الدولة الأموية، كغيرها من رواتب الجند والعمال، تبعاً لزيادة موارد الدولة. وإذا كلف القاضي بمهام أخرى إلى جانب القضاء زاد راتبه، فقد كان عبد الرحمن بن حجيرة قاضي مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان، يتقاضى مائتي دينار عن القضاء، ومائتي دينار عن القصص، ومثلها على بيت المال، كما كان عطاؤه مائتي دينار، وجائزته كذلك، فكان يأخذ ألف دينار في السنة، ولكن معظم القضاة في زمن عمر بن عبد العزيز لم يكن لهم راتب أصلاً، لأنه رأى أنه لا يجوز للقاضي أن يتقاضى أجراً مقابل هذه الخدمة الدينية. وبلغ راتب القاضي في عهد آخر خلفاء بني أمية مروان ابن محمد، عشرة دنانير في الشهر، كما ثبت من براءة وجدت في ديوان مروان، وكانت قد صدرت إلى خازن بيت المال، بإعطاء عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه الشهري في ربيع الأول سنة 131هـ.

وقد زادت هذه الرواتب زيادة ملحوظة زمن العباسيين، فكان عيسى بن المنكدر قاضي مصر في عهد المأمون يتقاضى 270 ديناراً في الشهر، وهو أكبر ما عُرف من رواتب القضاة زمن العباسيين. على أنه يرجح أن هذا الراتب كان راتباً خاصاً.

ومن الغريب أن القضاء قد تأثر بضعف الدولة العباسية، ودخل عليه نظام الالتزام فكان القضاة يدفعون مبلغاً معيناً من المال، ثم يقومون هم بجمع دخل القضاة لأنفسهم، وهي طريقة عقيمة فرضتها ظروف ضعف الدولة واختلال إدارتها.

النظر في المظالم

وهو هيئة قضائية عالية، تشبه محكمة الاستئناف في أيامنا هذه، ولذلك كانت سلطة صاحب المظالم، أعلى بكثير من سلطة القاضي، قال ابن خلدون عن ولاية المظالم: «هي ممزوجة من سطوة السلطنة ونصفة

القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدين. وإليها النظر في البينات والتقرير، واعتماد الإمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصم على الصلح، واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي»[1]. ووضع الماوردي شروطاً لمن يتولى المظالم فقال: «... أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع. كثير الورع، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين»[2].

والواقع أن الضرورة تفرض وجود مثل هذه الهيئة، إنصافاً للمظلومين وإغاثة للمستضعفين، فكان من اختصاص هذه الهيئة، أن تنظر في ظلامات الشعب، وقد تكون هذه الظلامات من قضاة لم ينصفوا المتقاضين، أو من ولاة مستبدين ظالمين لرعاياهم، أو من جباة أموال حادوا عن الطريق السليم أو من أبناء الخلفاء أو أهل الجاه وأصحاب النفوذ ممن اغتالوا أموال الناس وأمتعتهم ظلماً وعدواناً، أو ما شابه ذلك من الشكاوى، التي ربما لم يستطع القضاة تنفيذ أحكامهم فيها.

ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين، لأن الوازع الديني في عهدهم كان له سلطان على نفوس المسلمين، الذين كانوا يجدون من أنفسهم زاجراً يمنعهم عن الظلم والاستهتار بحقوق الناس. غير أن علي بن أبي طالب اضطر إلى النظر في المظالم في عهده، ولكنه لم يعين لذلك يوماً معيناً ولا زمناً محدداً، بل كان ينظر في شكاية من يأتيه من المتظلمين ويعمل على إنصافه.

ولكن تطور الأحوال وتغير طباع الناس، واتساع المُلك في أيام بني أمية دفع بعض خلفائها إلى تخصيص يوم للنظر في مظالم رعاياهم. وأول

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 222.

(2) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 77.

من فعل ذلك عبد الملك بن مروان الذي كان يستعين بقاضيه إدريس الأزدي فيما أشكل عليه، فكان ابن إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الآمر[1]. وقد أفرد يوماً يتصفح قصص المتظلمين.

وأهمل بعض الخلفاء الأمويين هذه القاعدة، حتى جاءت الدولة العباسية، فعاد الخلفاء إلى اتباعها. وكان المهدي أول من جلس للمظالم من الخلفاء العباسيين. ثم تبعه من جاء بعده من الخلفاء. وكانوا كثيراً ما يسندون هذا المنصب إلى أحد وزرائهم أو قضاتهم. كما فعل المأمون بقاضيه يحيى بن أكثم، والمعتصم بقاضيه أحمد بن أبي داؤد.

وكانت محكمة المظالم تعقد برئاسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما. وكان صاحب المظالم يحدد يوماً يقصده فيه المتظلمون، إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى.

أما إذا انفرد بالمظالم، نظر فيها طوال أيام الأسبوع، وكانت المحكمة تعقد ـ غالباً ـ في المسجد ويحاط صاحبها بخمس جماعات، ولا تعقد الجلسة إلاّ بحضورهم جميعاً وهم:

1 ـ الحماة والأعوان: وكانوا من القوة، بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف، أو يحاول الفرار من وجه القضاء.

2 ـ الحُكام: ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها، والعلم بما يجري بين الخصوم، فيحيطون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين، وكان القضاة يستفيدون من خلال حضورهم هذه الجلسات، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يُعرض أمامهم من القضايا في جلساتهم.

3 ـ الفقهاء: ويستشيرهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية.

4 ـ الكُتّاب: ومهمتهم تدوين أقوال الخصوم، وإثبات ما لهم وما

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 78.

عليهم من الحقوق.

5 ـ الشهود: ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم، والشهادة على أن ما أصدره القاضي من الأحكام لا ينافي الحق والعدل.

مهمة صاحب المظالم: نستطيع أن نتبين مهمة صاحب المظالم من اختصاصاته التي لم تقتصر على النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة وعمال الخراج، بل امتد حتى شمل النظر في تظلم المرتزقة، إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم، وتنفيذ ما يعجز القاضي عن تنفيذه من الأحكام، ومراعاة إقامة العبادات: كالحج والأعياد والجمع والجهاد.

ومن هنا يمكن القول إن المسلمين وضعوا للقضاء نظاماً محكماً وأجهزة قوية هدفها إحقاق الحق وأخذ الحق للضعيف من القوي فساد بذلك العدل والأمن بين الجماعة الإسلامية.

الفصل الحادي عشر

الحسبة

معنى الحسبة:

اختلف الكُتاب في معنى الحسبة، فمنهم من يقول إنها مشتقة من قولهم حسبك بمعنى اكتف. باعتبار أن مهمة المحتسب كف الناس عن الغش وارتكاب الأخطاء في البيع والشراء.

وفي القاموس المحيط: «احتسب عليه أنكر، ومنه المحتسب يُقال فعلت هذا الأمر لله. أي جعلت حسابي على الله».

أما الفقهاء فيقولون: إنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويعرفها ابن خلدون: بأنها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين[1]

أما ابن تيمية فيعرفها بأنها أمر بالمعروف ونهى عن المنكر مما ليس في اختصاص الولاة والقضاة والديوان ونحوهم. فالمحتسب في رأي ابن تيمية يأمر بالجمعة والجماعات، وبصدق الحديث، وأداء الأمانات، وينهى

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 225.

عن المنكرات من الكذب والخيانة، وما يدخل في ذلك من تطفيف الميزان والمكيال والغش في الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلك. والغش يدخل في البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع، كما يدخل في الصناعات.

ظهور الحسبة:

يرى بعض المؤرخين أن نشأة الحسبة ترجع إلى عهد الرسول صلّى الله عليه وسلم الذي كان أول محتسب إذ نهى عن الغش بقوله: «**من غشنا فليس منا**». ويُروي أن الرسول عيّن سعيد بن سعيد بن العاص على السوق بعد فتح مكة، وولى عمر بعده أم الشفاء الأنصارية على السوق، ولعلها كانت لأمور تتعلق بالنساء. ويذهب آخرون إلى أن عمر بن الخطاب هو أول من وضع نظام الحسبة، وكان عمر يطوف في الأسواق ودرته[1] معه فمتى رأى غشاشاً ضربه بها وربما أتلف بضاعته مهما كان مركزه.

ولا شك فإن الخلفاء والأمراء كانوا يوصون بمنع الغش، ومعاقبة أصحابه عليه، ويكاد يجمع المؤرخون إلى أن وظيفة المحتسب قد ظهرت في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أيام العباسيين، ويحددها بعضهم بأنها ظهرت أيام المهدي أو الهادي أو الرشيد أو المأمون، ولكن الراجح أنها ظهرت أيام أبي جعفر المنصور، فقد أورد الطبري نصاً يشير إلى ذلك بقوله: «إن المنصور ولى رجلاً يُقال له أبو زكريا الحسبة في بغداد والأسواق»[2].

أعمال المحتسب:

تضمنت أعمال المحتسب أموراً عديدة اجتماعية واقتصادية.

1 ـ اجتماعياً:

أ ـ المحافظة على النظافة في الطرق.

---

(1) الدرّة: هي أداة مصنوعة من جلد البقر أو الجمل محشوة بنوى التمر.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 336.

ب ـ الرأفة بالحيوان بألاّ يُحمل ما لا يطيق.

جـ ـ رعاية الصحة العامة.

د ـ منع معلمي الصبيان من ضرب الأطفال ضرباً مبرحاً.

هـ ـ مراقبة الحانات وشاربي الخمر وتبرج النساء[1].

وبعبارة عامة فإن المحتسب مسؤول عن تقويم السلوك العام في المجتمع وظهوره بالمظهر اللائق الذي دعا الإسلام إليه.

2 ـ **اقتصاديا:**

أ ـ منع الغش في الصناعات.

ب ـ الإشراف على المكاييل والموازين، وذلك بمتابعة ضبطها وصحتها.

وقد عرف المسلمون من تلك المكاييل أنواعاً مثل القنطار والرطل والأوقية، والنص، والنواة، والدرهم، والدانق، والقفيز، والصاع، والمكوك والكارة، والتليس، والمد...

جـ ـ مراقبة التجار وأرباب الحرف. وذلك بتعيين عرفاء يتابعون أصحاب المهن فالخبازين مثلاً يُعرّف عليهم عريفاً من أهل صناعتهم يقوم بكتابة أسماء أصحاب الحرفة.... ويراقبهم حتى لا يغشون الدقيق بخلطه بأنواع أخرى من الدقيق الرديء[2].

شروط من يتولى الحسبة:

تشير كتب الحسبة إلى ما يجب أن يتصف به المحتسب، فلا يتم اختياره بشكل عشوائي، ولكنهم أشاروا إلى ما يجب أن يتمتع به من خصال حتى يقوم بعمله خير قيام، وحتى يتجاوب معه الناس الذين يراقبهم، ومن

---

(1) الشيزري، عبد الرحمن أبو نصر: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق الباز العريني، بيروت، دار صادر، الطبعة الثانية، 1981، ص 61، وما بعدها.

(2) ابن بسام المحتسب: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، بغداد مطبعة المعارف، 1968، ص 21.

بين تلك الشروط:

1 - لما كانت وظيفة المحتسب أساسها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ما بين الناس. لذا وجب أن يكون المحتسب فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به وينهي عنه لأن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع. ولا معرفة للعقول في معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله عزَّ وجلَّ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلّم.

2 - أن يعمل بما يعلم، ولا يكون قوله مخالفاً لفعله. فقد قال تعالى في ذم بني إسرائيل ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾. فلا يجوز للمحتسب وهو يقوِّم سلوك الناس أن يكون هو ذاته يحتاج إلى تقويم في سلوكه.

3 - يجب أن يقصد المحتسب بقوله وفعله وجه الله تعالى، وطلب مرضاته، فلا يكون في طويته مراء، ولا رياء حتى يقذف الله له في القلوب مهابة وجلالاً.

4 - أن يكون رفيقاً، ليّن الجانب، طلق الوجه، ذا أخلاق عالية عند أمره الناس ونهيه، ولا يعاقب بأول زلة، فإن العصمة من شيم الأنبياء.

5 - يجب أن يكون عفيفاً عن أموال الناس متورعاً عن قبول الهدايا من أصحاب المهن والصناعات، فإن ذلك رشوة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الراشي والمرتشي في النار**».

6 - يجب ألا يوقع أقصى العقوبة على المخالفين منذ الوهلة الأولى، ولكن عليه إذا عثر على نقص الكيل أو الميزان، أو غش بضاعة أو صناعة، استتاب صاحبها عن معصيته، ووعظه وخوَّفه، وأنذره العقوبة والتعزير[1].

مجلس المحتسب وراتبه الشهري:

كان للمحتسب دار خاصة به يُقيم فيها ويُصرِّف منها شؤونه اليومية، فكان يطلب عادة من الباعة أن يحضروا إلى داره في أوقات معينة مصحوبين

(1) الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص 6 وما بعدها.

بموازينهم ومكاييلهم فيعايرها. وفي أحيان أخرى يُرسل نوابه يجوبون الأسواق والشوارع لتفقد الأحوال، وربما خرج هو بنفسه متفقداً الأسواق ويفاجيء المخالفين بظهوره فجأة، ويعاقب المخالفين، ويمنع المنكرات، ويؤدب على قدرها.

وتذكر المصادر أن مجلس المحتسب ربما كان في المسجد فقد كان المحتسب في مصر يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو بن العاص والجامع الأزهر، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً[1].

العقوبات التي يصدرها المحتسب:

يصدر المحتسب عادة عقوبات آنية «فورية» كإتلاف البضائع الفاسدة، وإراقة الخمور، ومعاقبة التاجر الغشاش، وذلك بمنعه من العمل، وإعلان اسمه ليتجنبه الناس. وأما الضرب والحبس والتعنيف فإنها أمور مألوفة، وربما التجأ المحتسب في معاقبة بعض الحرفيين والتجار، وذلك بأن يركب المذنب على جمل أو حمار ويُطاف به، وقد أُلبس زياً خاصاً يلفت انتباه الناس إليه، وقد عُلقت في رقبته الأجراس وتتبعه أفواج من الصبية تنعته بأعنف الأوصاف، وينالون من شرفه وكرامته، ومثال ذلك إنه إذا كذب أحد التجار في مصر في عهد الدولة الفاطمية على أحد المشترين أو باعه بثمن أعلى، فإن التاجر يركب على جمل ويُعطى جرساً بيده ويطوف به في المدينة وهو يدق الجرس ويقول: قد كذبت وها أنا أُعاقب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب».

وغالباً ما كان المحتسب يستعين بطائفة من الموظفين كمعاونين له في تحقيق أهداف مهمته لنشر الأمن والطمأنينة في نفوس الناس وتحقيق الرخاء ومنع الغش[2].

---

(1) تقي الدين أحمد المقريزي: كتاب الخطط المقريزية المسماة: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مصر، مطبعة النيل، 1324هـ، ج 2، ص 242.

(2) المصدر نفسه، والجزء، والصفحة.



الفصل الثاني عشر

الجيش

تتميز العقيدة الإسلامية بأنها تُعطي أهمية خاصة للجندية على اعتبار أن الجهاد من أهم الأسس التي قام عليها بناء المجتمع الإسلامي، كما أنه يعتبر الدرع الواقي للأمة الإسلامية من الاندثار، والمجتمع من التفسخ. وقد أكد الرسول الكريم على أهمية الجهاد في الإسلام في مواقف كثيرة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لولا أن أشقّ على أمتي لأحببت أن لا أتخلف عن سرية تخرج في سبيل الله، ولكنني لا أجد ما أحملهم عليه ولا يجدون ما يتحملون عليه فيخرجون ويشق عليهم أن يتخلفوا بعدي فوددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل**».

وفي حديث آخر أكد الرسول على أهمية الجهاد والإنفاق عليه. فقد روى البخاري عن زيد بن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا**».

وفي حديث آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**جعل رزقي تحت رمحي وجُعل الذلة والصغار على من خالف أمري**».

إن بداية تكوين المجتمع الإسلامي الأول قد تم بعد ممارسة الجهاد على أنه الأسلوب السليم لفتح الطريق أمام الناس وترسيخ العقيدة الإسلامية بين أفراده دون إكراه. ولذلك فقد حدد الإسلام مناهج وقواعد للحرب بلغت من السمو والعناية بحرمة دماء المسلمين درجة لم تبلغها التشريعات المعاصرة.

وخلال تكوين الدولة الإسلامية الأولى أخرجت مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام عدداً من القادة الذين أسهموا مساهمة فاعلة في التمكين للإسلام، وترسيخ قواعد المجتمع الإسلامي، وتثبيت دعائمه في البلاد التي فتحها جند الإسلام من أمثال زيد بن حارثة، وعكرمة بن أبي جهل وسويد ابن مقرن، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمثنى بن حارثة الشيباني، وخالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب، وغيرهم كثير.

وفي هذا الفصل نتتبع تكوين الجيش في صدر الإسلام، وأثر الجهاد في الإسلام.

لماذا فُرض الجهاد في الإسلام؟

عندما اشتد أذى قريش هاجر النبي من مكة إلى المدينة، وكثر عدد المسلمين فيها، وأصبحوا أهلاً للدفاع عن أنفسهم أذن الله للمؤمنين بالقتال وخوض غمار الحرب لأمور منها:

1 ـ الدفاع عن النفس لقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2].

(1) سورة الحج، الآية 39.

(2) سورة البقرة، الآية 190.

2 ـ تأمين الدعوة والدفاع عنها ضد من يقف في سبيلها، حتى لا يخشى من يدخل الإسلام الفتنة على دينه. كما حدث عندما تمالأ أهل مكة مع غيرهم من العرب على قتال الرسول، فأمر الله بقتال المشركين في مكة وخارجها لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾[1].

3 ـ ردّ الأمن إلى نصابه إذا ظهرت الفتن أو الثورات. بالطرق السلمية دون قتال إذا لم يكن ما يدعو إلى ذلك لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾[2] وقوله كذلك: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[3].

4 ـ نشر الدين وتوسيع رقعة العالم الإسلامي، وقد وعد الله في ذلك نصر المؤمنين على أعدائهم في الدنيا وبشرهم بنعيم الجنة في الآخرة لقوله تعالى: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[4].

كذلك أصبح من واجب الجندي المسلم أن يحافظ على أمن الجماعة الإسلامية، وذلك بالمحافظة على الأمن وتتبع مثيري الشغب والفتن من المنافقين والذين في قلوبهم مرض حقداً على الإسلام والمسلمين، كما أنه من واجب الجندي المسلم أيضاً أن يعمل على المساهمة في الفتح وتمصير الأمصار وتثبيت دعائم الإسلام فيها، وكان ذلك واجباً على المسلم والمسلمة، فقد كان النبي صلي الله عليه وسلم يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته يقدمن المساعدة التي يحتاجها المقاتلون كمداواة الجرحى، وتحضير الطعام، وخياطة الثياب، وتحميس الرّجال في المعارك، وقد اشتهر

(1) سورة التوبة، الآية 36.
(2) سورة النساء، الآية 90.
(3) سورة الأنفال، الآية 61.
(4) سورة النساء، الآية 74.

من النسوة في عهد الرسول رفيدة الأسلمية، وأختها كعبة ونسيبة بنت كعب المازنية التي ردت عن النبي صلى الله عليه وسلم ضربة تلقتها بجسمها في معركة أُحد فجرحت جرحاً أجوف له غور[1].

المقاتلون في صدر الإسلام:

لم يكن لعرب شبه الجزيرة قبل الإسلام جيوش نظامية كما كان عند الفرس والروم، ولعل ذلك يرجع إلى أنهم كانوا أهل بداوة، فكان كل شاب في القبيلة قادر على حمل السلاح يفزع مع قبيلته إذا تعرضت للغزو أو أرادت أن تغزو غيرها من القبائل حاملاً معه سلاحه التقليدي من سيف وترس ورمح وقوس. فإذا ما انتهى القتال عادوا إلى ممارسة حياتهم الطبيعة التي كانوا عليها قبل القتال.

ولما جاء الإسلام وبدأ الرسول عليه السلام يواجه كفار قريش ـ الذين ناصبوا الإسلام العداء ـ أوصى أصحابه بالاستعداد لمواجهة المشركين فكان يقودهم في بعض المعارك بنفسه، ويرتب رجاله قبل القتال، ويضع الكمين، ويخطط لمواجهة الأعداء، ويأمر أصحابه بالتريث في الهجوم لمباغتة الأعداء وتحقيق النصر عليهم. وبذلك يكون الرسول عليه السلام أول من وضع نواة الجيش الإسلامي، ووضع له خططه الحربية وطرق مواجهة الأعداء، كما غرس في المسلمين القيم والأخلاق التي يجب أن يكون عليها الجند الإسلامي. ومن ذلك وصاياه ووصايا أصحابه من الخلفاء الراشدين لأمراء الجيوش.

وصايا أمراء الجيوش:

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قواعد للحرب والجهاد في سبيل الله ليكون منهجاً للمسلمين لا يحيدون عنه حتى بعد وفاته لذا كان الرسول

---

(1) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، بيروت ـ دمشق، دار الفكر 1997، ص 181.

الكريم ينصح الجيوش الغازية، ويقدم التوجيهات لقادة وأمراء الجند مبرزاً أخلاق الإسلام في الحروب من ذلك مثلاً قوله: «**اغزوا باسم الله. وفي سبيل الله تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا ولا تغرروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا إمرأة ولا وليداً**». وكان عليه السلام ينهي في مغازيه عن النهبة فيقول: «**من انتهب نهبة فليس منا**». كما أوصى بألاّ يفرق بين الولد ووالدته عند السبي فقال: «**من فرّق بين والدة وولدها فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة**».

وسار على نهج النبي عليه السلام الخليفة أبو بكر الصديق، فكان يوصي الجيوش الإسلامية التي تتأهب للغزو أو الذاهبة لإعادة الإسلام بين القبائل المرتدة. ومن ذلك قوله لجيش أسامة بن زيد: «أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغرروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغير ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع دعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

وقد كانت وصايا الخليفة أبي بكر الصديق كثيرة نظراً لكثرة الجيوش التي وجهها لقتال المرتدين بصورة خاصة.

أما الخليفة عمر بن الخطاب فبالإضافة إلى العمل بما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم في الحروب، فإنه يوصي قائده سعد بن أبي وقاص حين أنفذه لفتح العراق بقوله: «وترفق بالمسلمين في سيرهم، ولا تجشمهم سيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى لا يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامي الأنفس والكراع (الخيل)، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم، ويرقون (يصلحون) أسلحتهم وأمتعتهم، ونحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذّمة، فلا يدخلها من أصحابك إلاّ من تثق بدينه، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة

وذمة ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإن وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليكم من أمرهم شيء، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه، والغاش عين عليك وليس عين لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، واْختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك وغيرهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول من تلقاهم القوة، واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص أحداً بهوى، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو صنيعة، أو نكاية، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك، وأجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورات عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك كصنعه بك، ثم أذك حراسك على عسكرك، وتيقظ في البيات جهدك».

الجندية الإجبارية:

كان الجهاد في بداية الدعوة طواعية للراغبين فيه امتثالاً لأوامر الله، والفوز برضاه حباً في النصر وجنات النعيم في الآخرة، وبالرغم من ذلك فإن هناك فئة تقاعست عن هذا الواجب حتى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فسميت بالمنافقين، وفئة أخرى اندفعت للقتال بعدما فتح الله على المسلمين ونصرهم في عدد من المواقع، وما غنموا من أموال ومتاع وزخرف الحياة.

ولما دعا الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) المسلمين للجهاد ضد الفرس والروم لاحظ عزوف بعض الناس خوفاً ورهبة من هاتين الدولتين القويتين، فعمد إلى الحزم في التجنيد وبعث فرقاً للتجنيد إلى الأقاليم

الإسلامية المختلفة تدعو إلى الجهاد وتجبر القادرين منهم على القتال امتثالاً لوصية الخليفة، الذي قال لهم: «ولا تدعوا. . . أحداً من أهل النجدة ولا فارساً إلا جلبتموه، فإن جاء طائعاً، وإلا حشرتموه».

ويبدو أن إلزام الناس القادرين على الحرب هو الذي دفع الخليفة عمر ابن الخطاب إلى تكوين ديوان الجند، فكان يدفع لهم الرواتب من بيت المال، فضلاً على ما يحصلون عليه من الغنائم عند قسمتها، فكان على هؤلاء تلبية الدعوة إلى الحرب كلما دعا داعي الجهاد إلى ذلك، مع بقاء باب التطوع مفتوحاً لمن يريد التطوع ممن لم يُذكر في ديوان الجند من أهل البوادي والأمصار.

وعندما قامت الحرب الداخلية بين علي ومعاوية إنحاز كل فريق إلى طرف، ووقف فريق آخر على الحياد، ولكن بعد استتباب الأمر للأمويين، لم ير الخلفاء بداً من إجبار الناس على الحرب حسب تعليمات الخليفة وأوامره، وكان أول من أقدم على ذلك عبد الملك بن مروان في محاولة لإخماد الثورات التي قامت في عهده[1] فكان لواليه على العراق ـ الحجاج بن يوسف الثقفي ـ طريقته في إجبار الناس على الحرب إذ يقول مخاطباً أهل العراق حاثاً لهم على الانخراط في جيش المهلب بن أبي صفرة لمحاربة الخوارج يقول فيها: «وإني والله لا أجد رجلاً تأخر بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه»، وقيل إن الرجل صار يلتحق بمعسكر الجيش قبل أن يكمل استعداده فكانت أسرته توافيه بباقي لوازمه في المعسكر ـ لأن الجندي في تلك الفترة كان عليه أن يستحضر معداته وطعامه لا الحكومة ـ ثم صار للأمويين بعد ذلك نوعان من الجند وهما: 1 ـ المرتزقة: الذين تدفع الدولة لهم رواتبهم. 2 ـ الاحتياط أو المتطوعة: وهي التي تتطوع للقتال إذا لزم الأمر طلباً للاستشهاد عند مواجهة البيزنطيين أو غيرهم من المشركين[2].

---

(1) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي، بيروت ـ لبنان، دار صادر (بلا) ج 2، ص 269.

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 36.

أما في العصر العباسي فإن ابن الأثير يشير إلى أن الجندية أصبحت مهنة مربحة. وكان الجند يترقبون المرتبات فإن سلمت إليهم في وقتها المعلوم، وإلا شغبوا على من كان سبباً في تأخيرها وربما قتلوه. وكان لجشعهم يستغلون الفرص للمطالبة بالمال، فكانوا يطلبون دفع رواتبهم لمدة ثلاث سنين مقدماً.

ويصف في موضع آخر أن أحد قواد الأمين اشترط على الخليفة حين أمره بالخروج لملاقاة جيش المأمون شروطاً منها: أن يأمر له ولأصحابه برزق سنة مقدماً، وتحمل معهم أرزاق سنة أخرى، ويُزاد أهل البلاء، وأن لا يسأل الخليفة قائده عن حساب ما فتحه من المدن والأقاليم».

دخول العناصر غير العربية إلى الجيش وأثره:

اعتمد الخلفاء الراشدون على العنصر العربي في تكوين الجيش الإسلامي قبل الفتوحات الكبرى في المشرق وبلاد المغرب، وعلى ذلك سار بنو أمية وإن كان اعتمادهم في المشرق على العرب اليمنية والمضرية. أما في بلاد المغرب فقد اعتمدوا على المغاربة وبخاصة في فتح الأندلس عام 91 هـ/ 711 م[1].

ولما آلت الخلافة لبني العباس دخل العنصر الفارسي في الجيش، فأصبح الجيش أيام الخليفة أبي جعفر المنصور يضم ثلاث فرق هي:

1 ـ اليمنية وهم من أهل الشام.

2 ـ المضرية وهم من أهل العراق.

3 ـ الخراسانية وهم من أهل فارس.

ولما جاء المعتصم بالله أضاف إلى تلك العناصر عنصراً رابعاً تمثل في الأتراك.

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، بيروت ـ لبنان، دار صادر، الطبعة الثانية، 1980. ج 2، ص 4، وما بعدها.

وقد شهد العصر العباسي عدداً من الحوادث منها مقتل أبي سلمة الخلال، وأبي مسلم الخراساني، ونكبة البرامكة، والنزاع بين الأمين والمأمون، وذلك بوقوف العرب إلى جانب الأمين ووقوف الفرس إلى جانب المأمون. وكذلك مقتل هرثمة بن أعين القائد العربي، وقيام الدولة الحمدانية العربية. وقد أدت هذه مجتمعة إلى تسلط الفرس تارة، والأتراك تارة أخرى، ولم يبق للخليفة العباسي سوى سلطته الدينية الرمزية فقط.

أما في بلاد المغرب والأندلس فقد كانت الجيوش تقوم في بادىء الأمر على نظام القبائل والعشائر من العرب والمغاربة غير أن هذا النظام سرعان ما تغير أثناء ولاية الأمير الأموي الحكم بن هشام الملقب بالربضي، وهو حفيد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل) فقد رأى هذا الأمير أن يُقيم نظاماً عسكرياً دائماً يعتمد عليه في كل وقت ويتقاضى جنوده مرتباً ثابتاً من الدولة. وقد جاء هذا التغير نتيجة ثورة خطيرة قامت في ربض من أرباض قرطبة (أي ضواحيها) كادت تطيح بعرش هذا الأمير، لكنه تمكن بعد جهد من القضاء عليها قضاءً مبرماً لدرجة أن اسمه صار مقترناً بها فقيل «الحكم الربضي». وقد رأى هذا الأمير أن يتخذ لنفسه فرقة من الحرس الخاص عرفوا باسم (الصقالبة) وهم من أصل مسيحي جلبوا صغاراً واعتنقوا الإسلام وربوا تربية عسكرية إسلامية، وتمكن بعضهم من الوصول إلى أعلى المراتب فأصبح الجيش الأموي في الأندلس يتكون من العرب، والمغاربة، والصقالبة إلى جانب نظام القبائل والعشائر التي كانت تقيم خارج قرطبة أي في العشائر والبوادي.

وقد أدى ذلك إلى زيادة التنافس والتناحر بين هذه العناصر المختلفة التي كان تأثيرها في الهزيمة التي مني بها الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 ـ 350هـ/ 912 ـ 961م) أمام الأسبان في موقعة شمنقة Simancas سنة 327 هـ شمال أسبانيا، وسببها أن الخليفة الناصر منح قيادة الجيش لمملوكه نجدة الصقلبي، فأثار بذلك غضب القواد العرب، وتخلوا عنه أثناء المعركة مما

أدى إلى هزيمة الجيش ومقتل قائده نجدة الصقلبي[1].

ولما جاء المنصور محمد بن أبي عامر وحجر على الخليفة هشام المؤيد بالله ابن المستنصر بالله وملك زمام الأمور في الأندلس عام 371هـ. رأى أن النظام السائد في تركيبة الجيش يخلق المشاحنات والحزازات والفتن بين عناصر الجيش وقواده لذا عمل على أن يجعل الجيش وحدة متكاملة خاضعة لقيادته فألغى العنصرية في ترتيب الجيش بمعنى أنه جعل الجيش يتكون من فرق متعددة، وكل فرقة تتكون من جميع العناصر كالعرب، والمغاربة والصقالبة. وظهرت نتيجة هذا النظام الجديد في إزالة العصبية العنصرية بين فرق الجيش، وأن يفرض سلطانه ويحقق انتصارات حربية ضد الأسبان[2].

تدريب الجيش وتعبئته:

اهتم العرب منذ ما قبل الإسلام بالتدريب على السلاح فحياتهم البدوية نفسها كانت تعتمد على الغزو والدفاع عن النفس فكانوا في تدريب شبه دائم، وكان أفراد القبيلة يتدربون منذ نعومة أظفارهم على اللعب بالرمح ورمي النشاب وركوب الخيل وأساليب الدفاع عن النفس حتى إذا ما شب الصبي وأصبح يافعاً أمكن للقبيلة أن تعتمد عليه في الغزو والدفاع عن النفس.

ولعل المقاتلين المسلمين الأوائل الذين خاضوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب ضد المشركين - كانوا من المتمرسين والخبراء بالحرب، فكانوا في حالة تأهب كامل لمواجهة الأعداء، وكان الرسول يعبأ أتباعه من المجاهدين في مواضعهم ويهيئهم للحرب. إذ كانت التعبئة تعني في النظام

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى 1981، ص 137.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ج 2، ص 264.

الحربي الإسلامي تنظيم الجيوش وصف الكتائب وتحريكها قبل المعركة وبعدها مع حشد جميع الإمكانيات المادية والمعنوية للنصر في المعركة. وقد وردت أحاديث تشير إلى تعبئة الرسول لأصحابه منها قوله: «... **فارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا**».

و«**من ترك الرمي بعدما علمه فإنما هي نعمة كفرها**» «**واعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا أن القوى الرمي، ألا أن القوة الرمي**».

والرمي هو القوة حتى في عصرنا الحاضر سواء كان رمياً بالصواريخ أو بالطائرات أو الدبابات أو ما في حكمها.

وقد اهتم الخلفاء في عصر الأمويين والعباسيين بتعبئة الجيوش تأهباً للقتال في كل وقت وبسرعة فائقة مما كفل لهم التفوق على امبراطوريتي الفرس والروم. وقد وصف الأمبراطور قسطنطين شجاعة المسلمين قائلاً: «إنهم مغامرون ميالون إلى الحرب بحيث لو أن ألفاً منهم احتلوا موضعاً لغدا من المستحيل إخراجهم منه»[1].

فرق الجيش:

كانت قوات الجيش في بادىء الأمر تتكون من قسمين:

1 ـ القوات النظامية: وهم الجند الذين بدأ تثبيتهم في ديوان الجند في عهد عمر بن الخطاب، وتدفع لهم رواتب من بيت المال.

2 ـ القوات المتطوعة: وهم الذين يتطوعون أيام الحرب ويحمون الثغور احتساباً لوجه الله، وطلباً للاستشهاد، وهؤلاء يستخدمون في حالتين:

الأولى: الإحاطة بجناحي العدو دون الاختلاط بالجنود النظاميين.

والثانية: الإغارة على العدو قبل نشوب الحرب، وتتبع فلوله ومطاردته عند التقهقر.

---

(1) إبراهيم العدوي: النظم الإسلامية في صدر الإسلام والعصر الأموي، الطبعة الثانية، مصر مكتبة الأنجلو المصرية، 1958. ص 238.

وكان للمتطوعة دور هامّ في الحرب مندفعين بحماسهم الديني ورغبتهم في الثواب أو الاستشهاد. ويذكر الطبري أن بعضهم قال للإفشين وهو يحارب بابك الخرمي: «أيها الأمير لا تحرمنا شهادة إن كانت قد حضرت وإنما قصدنا وطلبنا ثواب الله ووجهه»[1]

وكان اعتماد الجيوش الإسلامية على نوعين من الفرق العسكرية، وهما الفرسان الذين يحملون الرماح والسيوف والأقواس والسهام ويلبسون الخوذ والدروع. وفرق المشاة التي كانت تتدخل عقب هجوم الفرسان في الحرب. ثم بتقدم ورقي الدولة العربية تنوعت أساليب القتال وتعددت فرق الجيش حسب تنوع أسلحته وتخصصات أفراده، وكانت أشهر فرق الجيش التي اشتهرت زمن ازدهار الدولة العربية الإسلامية هي:

1 ـ **الفرسان**: ولهم تأثير كبير في المعارك منذ عهود الإسلام الأولى، ويكونون الجيش الرئيسي في الحرب لقيامهم بمهام كثيرة كالاستطلاع، والإغارة على العدو وحماية الجيش أثناء الانتقال، وحماية القوافل التي تحمل المؤن والعتاد وحماية الجيش أثناء المعركة ويتسلحون بالرماح والسيوف والسهام ويلبسون خوذاً من الفولاذ.

2 ـ **المشاة (الرجّالة)**: وهؤلاء يتسلحون بالسيوف والحراب والرماح والمزاريق والقسي والسهام ويلبسون الدروع كما تلبس الخيالة ويحمون رؤوسهم بالخوذ، وكان المشاة يقاتلون وهم راجلين ويؤلفون القسم الأكبر من الجيش وتقع عليهم مسؤولية الاصطدام المباشر بالعدو. وكان أمراء المشاة يركبون الخيل لكي يسهل عليهم الانتقال في المعركة وتوجيه الجيش فيقول الجاحظ: «وقائد الرجّالة لا يكون إلا فارساً»[2].

وقد انبثقت عن الفرسان والمشاة العديد من الفرق العسكرية نذكر منها:

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 4، ص 39.

(2) الجاحظ، أبو عثمان بن عمر: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة مكتبة الخانجي، 1964 ـ 1965. ج 1، ص 33.

أ ـ **الطليعة**: وهؤلاء يتقدمون الجيش عادة بعدة أميال في عدد قليل من الفرسان يلبسون الدروع والخوذ ويحملون الرماح المربوط في أسنتها ريش النعام.

ب ـ **الكشافة**: وهي فرقة للاستطلاع وجمع المعلومات والخرائط وقيل إن قتيبة بن مسلم الباهلي استخدمها لاستحضار خرائط البلاد التي كان ينوي غزوها.

جـ ـ **الحرس الخاص**: وهؤلاء يقومون على حراسة الخليفة أو الأمير، وظهرت بشكل ملحوظ أيام قيام الإمارات المستقلة.

د ـ **الغلمان**: إحدى الفرق الخاصة، تقوم على خدمة الخليفة، وهي مدربة تدريباً جيداً، ويعيش أفرادها في ثكنات بعيداً عن باقي الجيش، وقد تشكلت هذه الفرقة بعد أن كثر اقتناء المماليك.

هـ ـ **النشابون أو الرماة**: وهم فرقة من الجيش اشتهر أفرادها بدقة الرمي وإصابة الهدف، وكانت منهم جماعة تسمى رماة الحدق لمقدرتهم على رمي أحد عيني الغزال دون الأخرى. إذ يقول ابن عبد ربه في العقد الفريد أن الواحد منهم كان يعلق ضبياً بشجرة ثم يرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من أعضائه دون أن يخطيء واحدة منها، وكانت هذه المهارة في الرمي مشهورة منذ عصور ما قبل الإسلام إلى مختلف العصور الإسلامية.

و ـ **النفاطيون**: الذين يقذفون حصون الأعداء بالنفط لإحراقها.

ز ـ **المنجنيقيون**: وهؤلاء مختصون في الرمي بالمنجنيق، ويطلق على قائدهم اسم أمير المنجنيقيين، ولهم تأثيرهم الكبير في المعارك التي خاضها الجيش الإسلامي ضد أعدائه.

ز ـ **العيارون**: وهم رماة الأحجار من المخالي.

ح ـ **المعماريون**: وهؤلاء يحملون المعاول مع السيوف والتروس.

ط ـ **مستشفيات الميدان**: وتضم عدداً من الأطباء والصيادلة المزودين بنقالات تحمل على ظهور الإبل.

ك ـ **الجواسيس:** ولهؤلاء دور كبير في المعارك التي خاضها المسلمون منذ زمن النبي عليه السلام فقد استخدم عبد الله الأسلمي وأمره بأن يدخل في صفوف الأعداء يلتقط أخبارهم، ونجح في أن يخبر النبي بما عزم عليه أعداء المسلمين، كما كان لقريش جواسيس على جيش النبي أيضاً.

وفي زمن الأمويين والعباسيين كان يُعتمد على رجال يرتدون زي التجار والعلماء أو الأطباء ويدخلون أرض العدو ويتسقطون أخباره.

تطور عدد الجند في الإسلام:

لم يُعرف بالتحديد عدد الجنود الذين شكل منهم الرسول نواة جيشه، فقد كان كل من أسلم من العرب يدخل في صفوف الجند الإسلامي فعدد الجيش يومئذ هو عدد المسلمين بأسرهم.

والمهاجرون هم أول جنود المسلمين. تقول بعض المصادر إن عددهم يوم أسلم عمر بن الخطاب بلغ أربعين رجلاً، فلما هاجروا إلى المدينة واختلط الأنصار بهم، صاروا جميعاً جنداً واحداً تحت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم وفي السنة الأولى للهجرة لم يزيدوا على بضع عشرات يقيمون في المدينة، ثم ازدادوا فكان عددهم في موقعة بدر الكبرى (313) رجلاً من المهاجرين والأنصار[1]، ولم يكن فيهم سوى فارسين اثنين هما المقداد بن عمر، والكندي وفي معركة أُحد كان الجيش سبعمائة[2]، ثم ازدادوا بمن اعتنق الإسلام من القبائل العربية.

وفي آخر معركة للمسلمين في تبوك بلغ عدد الجيش الإسلامي ثلاثين ألفاً ومعهم عشرة آلاف فارس، وقد عادت الحملة دون قتال.

وكان معظم وحدات الجيش الإسلامي المحارب زمن النبي من أهل

(1) اليعقوبي، أحمد بن واضح: تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 43. المسعودي، أبو الحسن علي: التنبيه والاشراف، ص 220.

(2) المسعودي: التنبيه والاشراف، ص 227.

الحديبية والطائف وغيرهما من القبائل العربية.

وفي أيام الخلفاء الراشدين ازداد عدد الجند الإسلامي بمن انضم إليهم من قبائل الحجاز واليمن ونجد واليمامة، وأصبحت قيادة الجيوش من وظائف الخليفة اقتداءً بالنبي عليه السلام. وكانت العادة في عصر الخلفاء أن من يتخلف عن القتال يُشهر به ويُعاقب أشد العقاب. ولذلك بلغ عدد الجيش زمن الخليفة عمر بن الخطاب حوالى المائة وخمسين ألفاً من المقاتلين، تم تنظيمهم وتقسيمهم إلى فرق وضع على رأس كل فرقة أحد القادة العرب المشهود لهم بالكفاءة الحربية والشجاعة، وأنشأ لهم ديواناً ينظر في تسجيل أسماء الجند وأعطياتهم[1].

وفي أيام الأمويين بلغ عدد الجند الإسلامي في معسكر البصرة والكوفة فقط (140,000) مائة وأربعون ألف مقاتل. أما معسكر الفسطاط فقد بلغ عدد المرابطين به أربعون ألف مقاتل، وكان جند الشام نحو ذلك. هذا إلى جانب الجند المغربي الذي غزا به طارق بن زياد وموسى بن نصير الأندلس. كما بلغ عدد الجيش الذي غزا به يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان حوالى (120,000) مائة وعشرون ألف، من الجند المرتزقة أي الذين درجت أسماؤهم في ديوان الجند، ويتقاضون مرتباتهم، فضلاً عن المتطوعة الذين يجاهدون لاعلاء كلمة الله وحباً في الاستشهاد.

ومن الصعب الاستدلال على عدد الجيوش الإسلامية أوائل عصر الخلافة العباسية وإن كان عددها كبيراً. ونستدل على ذلك من بعض الشواهد التاريخية التي تشير إلى حملة هارون الرشيد على هرقله[2] سنة (190هـ/ 805 - 806م) بلغ عدد جنودها (135,000) مائة وخمسة وثلاثون ألف مقاتل من الجنود النظامية يضاف إليهم عدد كبير من الأتباع والمتطوعين، في حين

---

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 204.

(2) هرقلة مدينة بآسيا الصغرى، كانت قاعدة مملكة الروم في عهد الفتوح الإسلامية الأولى فتحها مسلمة بن عبد الملك عام 89هـ/ 707 - 708م، واسمها الآن أركلي.

كانت تحت إمرة داوود بن عيسى أحد قادة العباسيين في أرض الروم سبعون ألفاً من المقاتلين، وبلغ عدد جند المعتصم عندما عزم على فتح عمورية (200,000) مقاتل.

وهكذا تطور عدد الجند الإسلامي بدخول الناس في دين الله أفواجاً وانخراطهم في الجيش طلباً للفوز في الدنيا، والشهادة في الآخرة.

نظام الخدمة العسكرية:

المعروف أن نظام التطوع للجهاد كان سائداً منذ زمن النبي عليه الصلاة والسلام، وعهد أبي بكر. وكان المتطوعون لا يكلفون الخليفة ولا بيت المال شيئاً مقتنعين بما يصيبهم من الغنائم. ذلك لأن المقاتلة لهم أربعة أخماس الغنيمة. وقد كانت الغنائم في العراق والشام كثيرة تغري المتخلفين من اللحاق بزملائهم، غير أن الأحوال تغيرت على عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي أسس ديوان الجند في المدينة عام 15هـ أسسه ليجعل المسلمين كلهم جنداً يدافعون عن الإسلام ويرفعون رايته، وكان يسمى الديوان فقط[1]. وكان الجند في عهده ينقسمون إلى قمسين:

1) الجند النظامي: وهؤلاء الذين اتخذوا الجندية مهنة لهم.

2) المتطوعة: وهؤلاء الذين يشتركون في الحرب فقط، ويسرحون في السلم. وقد حرم على الجندي النظامي أن يزاول الزراعة، وربما أي عمل آخر. بينما كان المتطوعة أحراراً في المهن التي يزاولونها.

ولم يغفل ديوان الجند عن نساء وأولاد المقاتلين وهم في الحملات أو حراسة الثغور، فكان الجندي في ساحة القتال لا يفكر بأمر إعاشة الأفراد

(1) الديوان: هو دفتر أو مجموعة صحف يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية، وكان يشمل أسماء المهاجرين والأنصار ومقدار أعطياتهم وتنظيم الجندية الإسلامية كان يدرج اسم الجندي اسم أبيه مع نسبه وسنه وقده ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره لئلا تتفق الأسماء ويذكر اسم المقدم أو النقيب الذي سيعمل تحت إمرته.

المسؤول عنهم. إذ إن الأقوات والرواتب تدر عليهم كل شهر بطريقة منظمة.

وكان الخليفة عمر قد نظم أعطيات المسلمين حسب نسبهم إلى النبي وسابقيتهم في الإسلام، وكانت رواتب الجند بموجب ذلك تقدر بـ (300 إلى 500 درهم) في العام. بينما كانت رواتب الضباط من (4000 إلى 5000 درهم) في العام. وظلت رواتب الجند والضباط بين زيادة ونقصان خلال عهدي بني أمية والعباسيين بحسب الظروف الاقتصادية وقوة الخلافة وضعفها. فقد تدنت حتى وصلت (250 درهم) للجند في العام، وارتفعت حتى صارت (960 درهم) في العام زمن الخليفة العباسي الأول (أبو العباس السفاح).

وأول من سوى بين الجنود في العطاء الخليفة علي بن أبي طالب[1].

وقد اشتُرط فيمن يلتحق بالجندية الشروط التالية:

1 ـ الإسلام.

2 ـ البلوغ.

3 ـ السلامة. (سلامة الأعضاء وسلامة الحواس).

4 ـ الإقدام.

وهذه الشروط الأربعة متفق عليها. أما الشرط الخامس فمختلف عليه، وهو الحرية أي أن لا يكون المقاتل مملوكاً تابعاً لسيد.

طرق الاشتباك في الحرب:

كانت المعارك كلها تبدأ ـ على عادة العرب ـ بالمبارزة فيخرج بين الصفوف نفر من أي من الجمعين يطلبون أناساً للمبارزة، ويخرج لهم من الجمع الآخر عدد مساوٍ لهم. وقد لا يرضون بهم كما حدث يوم بدر عندما

---

(1) كاستلان، جورج: تاريخ الجيوش، ترجمة كمال دسوقي، سلسلة الألف كتاب، مصر مكتبة النهضة المصري، 1956، ص 65.

خرج من صفوف قريش عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، فخرج إليهم فتية من أهل المدينة، فلما عرفهم عتبة قال: «ما لنا بكم حاجة إنما نريد قومنا ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا» فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث.

وفي كل غزوات النبي نجد المسلمين يصطفون مع الصباح ويتهيئون للقتال وكان النبي يقف بين المسلمين يعدل صفوفهم، فإذا اشتد القتال بقي النبي وسط المعمعة محرضاً المؤمنين على القتال صائحاً بهم: إن الجنة لمن أحسن البلاء منهم. وحين يشتد القتال ويندفع المسلمون بتحريض النبي نحو الموت لا يبالون به. وكان النبي يقول لهم: **«شدوا»**... فيقتحم المسلمون خطوط المشركين.

وكانت طريقة القتال تقوم على الصفوف مثل صفوف الصلاة، اتّباعاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[1].

وهكذا أخذ العرب يقاتلون زحفاً أي صفوفاً بعد أن كانوا قبل الإسلام يعتمدون طريقة الكر والفر.

وبعد اتصال العرب بالفرس والروم، أخذوا عنهم نظام التعبئة أي تقسيم الجيش إلى كراديس، والتي تعنى باليونانية الكتائب أو الوحدات، وكانت توزع على شكل خمسة أجزاء رئيسية وهي المقدمة، والميمنة، والميسرة، والقلب، والوسط ثم كتيبة من الخلف وراء الجيش تُعرف بالساقة أو ساقة الجيش، ولهذا أطلقوا على الجيش اسم الخميس على أساس هذا التقسيم الخماسي، وبطبيعة الحال كانت هذه الكتائب تعبأ أو توزع على شكل أهلة أو مربعات أو مثلثات أو دوائر... ويُقال إن آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد هو أول من أدخل نظام الكراديس أو الكتائب phalanges في الجيش الإسلامي عوضاً عن الصفوف.

---

(1) سورة الصف، الآية 4.

أما الأمويون في الأندلس فيقدمون الرجّالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم ويجعلون رماحهم خلف ظهورهم في الأرض، وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون على الأرض، وكل رجل منهم ألقم الأرض بركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون التي تخرق سهامهم من الدروع، والخيل خلف الرماة فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجّالة من هيئاتهم، ولا يقوم رجلٌ منهم على قدميه، فإذا قرب العدو رشقتهم الرماة بالنشاب والرجّالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم فأخذوا ميمنة ويسرى، وتخرج الخيل بين الرماة والرَّجالة فتنال منهم ما شاء الله». ويسبق ذلك مناورات فردية، كما كان في عهد النبي لأن تلك المبارزات تؤثر في سير المعارك لأن قوة الجيش تقاس بعدد أبطاله وشجعانه وليس بكثرة أعداده. لهذا حرص قادة المسلمين على معرفة عدد الشجعان في جيوش أعدائهم عن طريق جواسيسهم لأن النصر والهزيمة كانا يتوقفان إلى حد كبير ـ على عدد من هؤلاء الأبطال.

تقوية الروح المعنوية للجند: إلى جانب المبارزات الفردية، كانت هناك طرق أخرى لتقوية الروح المعنوية للجند أثناء المعارك تقوم على دق الطبول، وقرع الصنوج التي اتخذت أصواتاً عالية تثير الحماس وترهب العدو. فقد روى ابن خلدون أن جيوش المغاربة من قبائل زناته استخدموا الشعراء والمغنيين والمغنيات الذين كانوا يحركون الجبال الرواسي ويسمون ذلك (تاصو كايت) وتعني عند الزناتيين الطرب والفرح، الذي يُبعث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة.

وإلى جانب هذا كانت هناك صيحات القادة والجنود وقت المعركة لاستجماع القوى، وشحذ العزائم، فضلاً عن أنها كانت أيضاً بمثابة العلامة المميزة (أو كلمة السر) التي يتعارف بها الجنود في الحرب وبخاصة في ظلمة الليل.

ولقد عرفت هذه الصيحات في المشرق كما عُرفت في المغرب والأندلس، فيروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان شعاره في معركة

بدر «يا منصور» وفي يوم حنين كان شعاره «حم لا ينصرون» أي اللهم لا ينصرون. ويُقال أن كلمة حم (حاميم) نزلت في سبع سور قرآنية مما جعل الرسول يحرص على ذكرها لشرف منزلتها، ويستظهر بها على إنزال رحمة الله في نصرة المسلمين. وقد استخدم المهلب بن أبي صفرة هذا الشعار (حاميم لا يُنصرون) في قتاله للخوارج.

كذلك يُروى أن صيحة صلاح الدين الأيوبي في يوم حطين 583هـ/ 1187م كانت (يا للإسلام)، ولقد كُتب له النصر فيها على الصليبيين. وكذلك نذكر صيحة صاحب مصر السلطان سيف الدين قطز حينما هاجمه المغول في عين جالوت جنوبي فلسطين سنة 658هـ/ 1260م. وكادوا يهزمونه فصرخ بصوت مرتفع سمعه جميع العسكر (وإسلاماه) وأخذ يرددها عدة مرات فكان لها مفعول السحر في نفوس جنوده فاندفعوا خلف قائدهم، وحملوا على التتار حملة صادقة انتهت بالنصر المؤزر.

ومن الطريف أن نختتم هذه الشعارات أو الصيحات التي تحمس الجنود في الحرب بصيحة حرب جميلة تدل على شدة التجاوب بين شعوب المشرق والمغرب والأندلس، فقد حدث في عام 767هـ/ 1365م. أن أغار ملك جزيرة قبرص المدعو بطرس لوسنيان بأساطيله على مدينة الإسكندرية غارة وحشية مبيتة منتهزاً الظروف التي تمر بها مصر، فالوقت كان صيفاً والأهالي يتنزهون على شواطىء المدينة، كما كان الوقت موسماً للحج، وحاكم المدينة غائب عنها لتأدية فريضة الحج، وكان نائبه رجلاً ضعيفاً لا يصلح لمثل هذه المواقف الخطيرة كذلك كان في مثل هذا الوقت موسم فيضان النيل، والطريق بين القاهرة والإسكندرية مملوءة بالطمي. فالطريق مسدودة أمام أية نجدة عسكرية، بل على هذه النجدة أن تتبع الطريق الصحراوي الطويل المتعب، فالظروف كلها كانت مواتية لخدمة الغزاة[1].

(1) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مصر دار المعارف، الطبعة الأولى 1961، ص 86.

ومن ثم تمكن القبارصة من دخول مدينة الاسكندية ونهبها وحرقها وقتل عدد كبير من الأطفال والنساء والشيوخ، ثم أقلعوا بأساطيلهم قبل أن تلحق بهم جيوش النجدة.

هذا الحادث المفزع كان له صدى واسع في الأوساط الإسلامية، فقد تبلور هذا الغضب بصورة خاصة لدى أهل الأندلس الذين كانوا في حرب شبه دائمة ضد المسيحيين. فتروى المصادر الأندلسية أن سلطان غرناطة محمد الخامس الغني بالله، أغار بجيوشه على مدينة جيان jean التابعة لملك قشتالة ودمرها وأحرقها، وكانت صيحة جنوده في هذه الغارة «ياالثارات أهل الإسكندرية!!» وهذه الصيحة الجميلة التي كانت شعار الأندلسيين في هجومهم تعبر عن موجة الغضب التي أثارتها غارة القبارصة الوحشية على الإسكندرية، كما أنها تحمل في طياتها معنى في الأخوة والتضامن بين الشعوب الإسلامية أمام الغدر والعدوان مهما بعدت بينهم المسافات.

أسلحة الجيش:

استعمل العرب منذ ما قبل الإسلام السيوف، والرماح والحراب، والأقواس والسهام، والدروع، والخوذ. وظلت تستعمل في صدر الإسلام أيضاً. وأدخل الرسول صلى الله عليه وسلم أسلحة جديدة بعد أن أرسل مبعوثاً إلى اليمن لتعليم صناعة الدبابات والمنجنيق. وترى المصادر أن سلمان الفارسي أول من أشار على المسلمين باستخدام المنجنيق ويُقال أنه صنعه لهم بيده.

وقد استعمل العرب لرمي السهام آلات ـ ربما أخذوها عن الفرس ـ كالمجراة التي كانت من اختراع العجم عندما حاربوا بها التتار (المغول) وهي عبارة عن أنبوبة من حديد أو خشب مشقق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً كما استخدموا المنجنيق لرمي عدة سهام.

المعدات الحربية والتحصينات العسكرية:

لقد برع المسلمون في استخدام الأسلحة وصيانتها وتطويرها، ولعل

ذلك يرجع إلى اختلاطهم بأقوام أخرى كالفرس والروم، كما أن حالة الحرب شبه الدائمة للمسلمين ضد أعدائهم، ونشر عقيدتهم جعلتهم يهتمون بصناعة الأسلحة وابتكار الجديد منها.

وقد جرت العادة على تقسيم الأسلحة إلى نوعين: أسلحة دفاعية وأخرى هجومية منها الأسلحة الخفيفة والأسلحة الثقيلة. ولعلنا بذكر الأسلحة المتوفرة والمستعملة زمن العباسيين نكون قد جمعنا بين القديم والجديد من تلك الآلات التي استعملها المسلمون والتي يمكن دراستها على النحو التالي:

1 ـ **السيف**: أهم الأسلحة عند العرب، فكان يمثل القوة الضاربة في الهجوم على العدو، ويصنع من الحديد، ويسمى السيف (الانيت)، ومن الفولاذ ويسمى (سيف فولاذ) وكان على أنواع منها الصمصامة، وهو سيف لا يسنن، والهندي المنسوب إلى الهند، والمشرفي المنسوب إلى مشارف الشام، واليماني المنسوب إلى اليمن، والبصري المنسوب إلى بصرى في الشام وغيرها. وقد بلغ ثمن سيف الصمصامة الذي اشتراه الخليفة العباسي المهدي بأكثر من ثمانين ألف دينار[1]. وجرت العادة بأن يحمل المسلحون السيف على أكتافهم وعواتقهم فيقال (تقلد سيفه) وذلك بحمله على كتفه الأيمن. وإذا كان الفارس يحمل سيفين يتقلد أحدهما ويجعل الآخر في وسطه على الطريقة الفارسية، وتركه متدلياً على جنبه الأيسر.

2 ـ **الرمح**: ويعتبر من الأسلحة الهجومية، ويسمى القناة. وهو عمود طويل في رأسه حربة، ويتراوح طوله بين 5 ـ 7 أذرع، وهو على أنواع أيضاً منها:

أ ـ الخطل: ثقيل الوزن لا يحمله إلاّ الأقوياء المتدربون عليه لفرط طوله.

ب ـ النيزك: وهو أقصر الرماح.

---

(1) أبي العباس أحمد بن يحيى البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1987، ص 142 ـ 143.

جـ ـ المربوع.

د ـ المخموس.

هـ ـ التام.

و ـ المزراق: وهو الرمح القصير في رأسه سنان من الفولاذ الحاد وطوله نحو ثلاثة أذرع[1]. وكان خاصاً بالمشاة، أما الفرسان فكانوا يستعملون الرماح الطوال. وعند دخول الأتراك في الجيش العباسي استعملوا الرماح القصيرة وتسمى (المطارد) وهي أشد طعناً من الرماح الطويلة التي يستعملها العرب والفرس.

وقد برع العرب في فنون الطعن بالرماح إذ يذكر الطبري: «إنهم كانوا يجعلون على أطراف أسنة الرماح (المشاقة) وهي من الكتان أو القطن أو الشعر ويزودونها بالنفط ويشعلون فيها النيران ويهجمون بها على بيوت الأعداء حين دخولهم المدينة المحاصرة»[2].

وكانت الرماح متعددة الأنواع منها القعضبية والشرعبية، وكانت أسنتها تختلف شكلاً فمنها المشعب والعريض والرقيق والمستوي والمموج، وقد وضعت له قواعد وتعليمات لكيفية استعماله.

3 ـ **القوس**: وهو الأحنية التي يُرمى به السهم، وأحسنها ما يسمى بالشريح وهو من الخشب المرن القوي أو من الحديد. وكان للعرب قوة فائقة على استعمال القوس بكفاءة لما كانوا يتميزون به من حِدة البصر، واستعماله في وقت السلم والصيد حتى كان يطلق على مهرة الرمى منهم (رماة الحدق)[3].

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين، ج 3، ص 19.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 4، ص 334.

(3) جهادية القره غولي: العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام، خلال العصر العباسي الأول 132 ـ 232هـ، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى 1986، ص 186.

وقد تنوعت الأقواس وتنوعت تبعاً لذلك استعمالاتها، وهي على نوعين:

أ ـ الأقواس العربية (قوس الحسيان) وهي ترمي عديداً من السهام تتراوح ما بين أربعة إلى خمسة سهام، فإذا دفعها الوتر انتشرت دفعة واحدة فلا بد أن يصيب واحد منها الهدف.

ب ـ القس الناوكية: وهي أقواس كبيرة تنصب على الأبراج والأسوار وتسمى (الزياد) ويحتاج إلى شدّ وترها عدد من الرجال، والسهم الواحد منها يصيب عدة أشخاص دفعة واحدة[1].

العيار والمقلاع: والعيار هو عبارة عن قطعة من الجلد أو القماش القوي قليلة العرض ومطوية تمسك من طرفيها ويوضع بها الحجر أو قطعة الحديد أو الرصاص في الطرف المطوي، وبعد تدويره عدة مرات يطلق أحد طرفي العيار فيقذف ما فيه نحو الهدف.

أما المقلاع: فإنه يتكون من كفة توضع فيها القذيفة المربوطة بثلاث حبال أو سبور متينة تمسك من أطارفها، وبعد تدويرها مراراً باليد يفلت طرف واحد من الحبال فيقذف ما في الكفة إلى مسافة بعيدة بقوة[2].

4 ـ **السهم**: ويستعمل في القوس وأنواعه متعددة. وقد استعملت السهام كأداة للتخاطب ففي محاصرة الحصون كان المحاصر يرمي الإنذار بالقوس والسهم. ولأهمية السهام في القتال كانت تؤلف لها فرقة تسمى النبالة تحمل الأقواس والسهام وتحافظ عليها في المعركة.

وكان النشابون أول من يبدأ المعركة في الهجوم أو الدفاع، وذلك لإيقاع الخسائر وبث الذعر في جيش العدو قبل الهجوم وأثناء صد الهجوم.

وكان للنشابة أثر مهم في انتصار الجيوش على أعدائها من ذلك مثلاً

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك؛ ج 4، ص 334.

(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 212.

الهجوم المفاجىء على أتباع الخرّمية (نسبة إلى بابك الخرمي) من قبل جنود الافشين قائد المعتصم بالله، مما أدى إلى اختلال صفوف الخرّمية وأتاح الفرصة للأفشين واتباعه للحاق بهم وإبادتهم[1].

5 ـ **الترس**: يتكون من حديد أو خشب أو جلد يستعمله الجندي وقاية من ضربات السيوف والرماح والسهام. وهو على أنواع منها:

أ ـ الترس المسطح ويتقى به الرمح.

ب ـ الترس المستطيل للوقاية من النشاب.

جـ ـ الترس المقبب المنحني الأطراف من الخارج للوقاية من السيوف، وقد تفنن المسلحون في صناعة الأتراس، ونقشوا عليها الآيات والحكم.

وقد تميزت صناعة التروس في بعض المناطق مثل الترس الدمشقي، والترس العراقي، والترس الغرناطي، والترس الثبتي...

وقد استعمل العباسيون نوعاً من التروس يسمى (السنارة) (والصنبور) وهو عبارة عن حائط من الخشب يحتمي وراءه المدافعون عن الحصون، من قذائف العدو حيث يختبئون تحتها ويزحفون إلى الحصون.

6 ـ **الدروع**: هو ثوب منسوج من حلقات حديدية متداخلة بعضها مع بعض تسمى (الزرد) ويُلبس على القسم الأعلى من الجسم، وله أكمام قصيرة تصل إلى منتصف الذراع ويلبس تحت الدروع ثوب من النسيج المبطن تحمي الجسم من حلقات الحديد، وقد تكون للذراع سواعد من حديد[2].

وقد بلغت صناعة الدروع درجة عالية من الإتقان في العصر العباسي ويسمى الجنود الذين يلبسون الدروع (الداركون)، وهم من الفرسان.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 4، ص 41.
(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 292.

والدروع على أنواع منها الحديدية والفولاذية، كما اشتهرت منها الدروع المعروفة باسم (الجوشن) وهو يُلبس للصدر وبلا ظهر وبلا أكمام.

ويذكر المسعودي[1]: إن الفرسان كانوا في الحرب بين الأمين والمأمون يلبسون مع الجوشن والدروع (السواعد والدروع التبتية). ويذكر الطبري[2] أن الملاحين من الجيش العباسي استعملوا أنواعاً من الدروع المصنوعة من اللباد وتسمى اللبابيد.

7 ـ **المنجنيق**: وهو من الأسلحة المستعملة في الحصار والهجوم، وقد أخذها العرب عن الفرس أو الروم. وفي العصر الأموي شهدت صناعة المنجنيق تطوراً ملحوظاً. وتروي المصادر أن الحجاج بن يوسف الثقفي استعمل منجنيقاً أسماه (الفردوس) يحتاج إلى خمسمائة رجل يعملون عليه، كما استعمله محمد بن القاسم الثقفي لفتح مدينة الديبل سنة 89هـ. وكذلك استعمل المأمون المنجنيق في حربه مع أخيه الأمين وحصاره بغداد[3]. كما استعمل الرشيد المنجنيق في حصار هرقله، واستعان المعتصم بالمنجنيق في حصار عمورية. وقد عُرفت الفرقة التي تحارب بالمنجنيق (بالمنجنيقيين) وهم الرماة الذين يرمون حصون الأعداء، وقلاعهم بالمنجنيق عند الهجوم أو رمي الجيوش المهاجمة من داخل الأسوار أو الحصون في حالة الدفاع.

وكانت المجانيق ذات أنواع متعددة منها لرمي السهام والنبال حيث توضع في المنجنيق الواحد عدة سهام ترمي منها بالأقواس إلى مسافات بعيدة وبقوة شديدة ومنها لرمي الحجارة وقدور النفط التي تشبه القنابل في أيامنا هذه.

8 ـ **الدبابات**: استعملها المسلمون منذ القرن الأول الهجري، وأدخلوا عليها تحسينات عديدة فصنعوا الدبابات الكبيرة التي تجري على ست

(1) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 2، ص 37.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 4، ص 566.

(3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 441.

عجلات أو ثمان عجلات، وهي تتعاون مع المنجنيق الذي يهدم الحصون فيفتح الباب للدبابة للاقتحام.

وتصنع الدبابات من الخشب الصلب وتُغلف باللبود والجلود المنقعة لمنع احتراقها.

والدبابة تشبه القلعة السائرة على العجل، وبها عدة أدوار في كل دور عدد من الجنود يقاتلون على ارتفاعات مختلفة ويزود الذين في الدور السفلي بالرماح والأسنة بينما يحمل الأخرون في الدور الثاني الأقواس والنبال لحماية رجالهم، ولرمي العدو.

وقد استخدم الخليفة العباسي المعتصم بالله الدبابات في حصار عمورية، وكانت الواحدة تحمل عشر رجال[1].

ولتسهيل مهمة الدبابة في مسيرها فقد كان يرافقها عشرة من الجنود يعملون على تسوية الطريق أمامها وصنع الجسور الخشبية ـ إذا تطلب الأمر ـ لعبورها.

وكان المسؤولون على استعمال الدبابة يسمون (الدبابون).

9 ـ **الكبش**: إحدى الأدوات الحربية التي استعملها المسلمون مهمتها ثقب الأسوار بمقدمتها التي تشبه رأس الكبش، وهي تتألف من خشب وحديد تجر بنوع من الحبال فتدق الأسوار فتهدمها.

وقد استعمل المسلمون الكبش خلال القرن الثاني الهجري للعمل على الدبابة في هدم الأسوار وفتح أبواب الحصون.

خزائن السلاح: احتفظ المسلمون بكميات من السلاح في خزائن خاصة بذلك. غير أننا نلاحظ قمة التنظيم لخزن السلاح كانت في العصر العباسي نتيجة للتطور الذي شهده هذا العصر في جميع المجالات، فقد كان

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 4، ص 65.

الخلفاء العباسيون يهتمون بخزن السلاح بكميات كبيرة، ففي عهد أبي العباس السفاح أول خلفاء العباسيين كانت خزائن سلاحه تحتوي خمسين ألف درع، وخمسين ألف سيف، وثلاثين ألف جوشن، ومائتا ألف رمح. واحتوت خزائن الأمين عشرة آلاف سيف محلي وخمسين ألف رمح، ومائة ألف قوس، وألف درع خاصة، وخمسين ألف درع عامة وعشرين ألف جوشن، ومائة وخمسين ألف ترس، وأربعة آلاف سرج خاصة، وثلاثين ألف سرج عامة، وأربعة آلاف زوج خفاف مُبطن بالسمور، وسائر أصناف الوبر، وفي كل منها سكين ومنديل، وأربعة آلاف زوج جوارب.

ويذكر أن للمأمون ألف راية مكللة بالدّر تحت كل راية ألف فارس، وفي إسطبله ألف فيل.

كما يذكر أن المعتصم خلف ثمانين ألف فرس، ومثلها من الجمال والبغال ومن المماليك[1] ويبدو أن ما خلفه الخلفاء العباسيون كان كبيراً، ولكنه كان يتناسب وحاجة الجيش لازدياد عدده وضخامة مسؤولياته في مواجهة الامبراطوية البيزنطية بصورة خاصة.

ونختتم هذا الفصل بمعرفة ملامح الجندية الإسلامية التي ساهمت في بناء وتكوين المجتمع الإسلامي الأول والتي يمكن تحديدها في النقاط التالية:

1 ـ ترسيخ المفهوم العقيدي للقتال بمعنى أن القصد من القتال هو فتح الطريق لمن أراد الهداية، وتمكين كل من رغب في الاستماع لصوت الحق، ولهذا نجد أن التعليمات الصادرة من القادة السياسيين أو قادة الجند تقوم على أساس انذار المحاربين قبل البدء وتخيّرهم بين الإسلام أو دفع الجزية. فمن دخل الإسلام أصبح له ما للمسلمين من الحقوق والواجبات، أو القتال. وفي هذه الحالة فإن التعليمات تفيد بعدم قتل الطفل والمرأة

---

(1) جهادية القره غولي: العقلية العربية. . .، ص 193 ـ 194.

والشيخ، أو المعتزل الحرب أو رجال الدين. ويقتصر الأمر على المحاربين فقط.

2 ـ استغلال جميع الظروف والإمكانيات المادية المتوفرة، واعتماد المنهج الإلهي لتحقيق النصر والمتمثل في أمرين:

أ ـ استغلال جميع الإمكانيات المتاحة والاستفادة منها وفق الأمر الإلهي الذي يدعو إلى إعداد القوة لمواجهة الأعداء. كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1].

وقد فسر الرسول الكريم القوة العسكرية بمدى التقدم في الرمي بمختلف أنواعه وأشكاله. وقد أثبتت الحياة المعاصرة مدى أهمية الرمي في تفوق الجيوش.

ب ـ الالتزام بمنهج الله قولاً وعملاً وسلوكاً حتى يتحقق النصر الذي أوجبه الله على نفسه في قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فالنصر مرتبط بأمرين: تنفيذ أوامر الله، والإيمان بنصره فإذا فُقد أحد الشرطين امتنع النصر.

3 ـ متابعة العدو وكشف عوراته، وهو منهج أصيل في الأسلوب العسكري عموماً والإسلامي على وجه الخصوص. فنظام المخابرات العسكرية بقصد توفير المعلومات عن العدو سواء اقتصادياً أو اجتماعياً أو سياسياً من المستلزمات الأساسية لاتخاذ قرار الحرب، والمتتبع لجميع المعارك العسكرية التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم، والقادة المسلمين من بعده كانت نتيجة لما يتوفر للمسلمين من معلومات عن العدو ومواطن الضعف في جيشه.

---

(1) سورة الأنفال، الآية 60.

الأسطول الإسلامي

أولاً: البحرية في الإسلام:

اشتهر سكان السواحل في شبه الجزيرة العربية بركوب البحر والتجارة فيه منذ زمن بعيد قبل الإسلام. فاحتكروا بذلك تجارة الهند والشرق الأقصى لعدة قرون، كما سيطر الفينيقيون على تجارة المتوسط والمحيط الأطلسي. وكان على الشاطىء الجنوبي لشبه الجزيرة العربية عدة مرافىء ترسو فيها السفن القادمة من الهند أو وادي النيل أو الفرات، وكان في اليمن مرفأ اسمه (موزا) يبنون فيه السفن الكبرى لقطع المحيط الهندي.

وبالرغم من ذلك فإن العرب لم يخوضوا غمار الحروب البحرية قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، وإن كانت أول مغامرة بحرية قام بها عمر بن العلاء الحضرمي والي البحرين، الذي توجه لغزو بلاد فارس في اثني عشر ألفاً من المسلمين من غير إذن الخليفة. وقد عاد الجيش الإسلامي بغنائم كثيرة رغم فقده للسفن التي عبر بها مما دفع الخليفة عمر بن الخطاب إلى عزله لأنه كره ركوب البحر.

ولما غزا المسلمون بلاد الشام شاهدوا سفن الروم، وتطلعت نفوسهم

إلى محاربة أعدائهم، وركوب البحر مثلهم، فبعث معاوية بن أبي سفيان يستأذن الخليفة عمر في ركوب البحر وغزو بلاد الشام لقربها منهم فكتب عمر إلى عمرو بن العاص والي مصر يسأله عن البحر وراكبيه. فكتب عمرو يقول: «يا أمير المؤمنين: إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلاّ السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلّة، والشك كثرة. هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق»[1].

فلما جاء الكتاب إلى عمر، كتب إلى معاوية يقول: «لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً». ومن ثم رفض الخليفة عمر بن الخطاب طلب معاوية بن أبي سفيان في الإذن له بخوض غمار البحر[2].

كان احتلال المسلمين لبلاد الشام، ومصر، وبلاد المغرب والأندلس ضربة نافذة في جسم الأمبراطورية البيزنطية شطرتها إلى شطرين. الامبراطورية الأم في آسيا الصغرى وما وراءها، ثم الولايات التابعة لها، والتي احتلها المسلمون في الشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس. ولم يعد هناك ما يصل بين أجزاء هذه الأمبراطورية إلاّ البحر المتوسط.

ونتيجة لاختلاف المصالح، ومناطق النفوذ لكل من المسلمين والبيزنطيين لذا حاول كلا الفريقين تقوية وجوده في البحر المتوسط. فكانت الغلبة للعرب المسلمين.

ثانياً: نشأة الأسطول وتطور فن الملاحة عند المسلمين:

لم يلبث المسلمون منذ خلافة عثمان بن عفان، ومعاوية بن أبي سفيان أن وجدوا أنفسهم مطلين على البحر المتوسط بسواحل طويلة تمتد من طرسوس شمالاً إلى برقة وتونس جنوباً يواجهون أعداء وخصوماً ألدّاء مثل

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 200.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص 175.

البيزنطيين الذين أخذوا يشنون الهجمات على الشواطىء الإسلامية.

ومن ثم أدرك المسلمون أهمية سلاح البحرية، فأخذوا في إنشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية في معظم المرافىء الممتدة على طول هذه الشواطىء مثل طرابلس وصور وعكا ودمياط ورشيد وتنيس والاسكندرية ثم برقة وإفريقية. وقد انتقلت كلمة دار الصناعة إلى اللغات الأوروبية دار سانا Darsana وارسنال Arsenal وتعنى المكان الذي تصنع فيه السفن.

وهكذا رأى المسلمون ضرورة بناء أسطول[1] حربي معتمدين في ذلك على إمكانياتهم الذاتية، وخبرة رعاياهم في هذا المجال.

وقد ساعدهم على ذلك وفرة أخشاب شجر السنط الذي كان ينبت في صعيد مصر، وأشجار الصنوبر التي تكثر في جبل لبنان فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت، والذي كان يستخدم في مراسي السفن.

وما إن تولى معاوية الخلافة عام 41هـ حتى سعى إلى تدعيم الأسطول للدفاع عن السواحل بالوسائل التالية:

أولاً: تقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية بعمل المحارس والمناور أو المنائر أو المواقيد الممتدة على طول سواحل مصر والشام، وكان على مديري المنائر إيقادها وإنارتها ليلاً إيذاناً بقرب العدو أو إثارة الدخان بها نهاراً ليكون أصحاب المواقد الأخرى على علم بالخطر القادم من البحر.

ثانياً: عمد معاوية إلى نقل أهالي البلاد الداخلية وأسكنهم بالقرب من الشواطىء ومنحهم إقطاعات واسعة، وشجعهم على ارتياد البحر من جهة وتعمير هذه البلاد وزيادة سكانها من جهة ثانية. فقد روى البلاذري[2] إن

(1) كلمة أسطول من أصل يوناني Stolos، كانت تطلق على السفينة الواحدة أو مجموعة السفن الحربية.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص 201.

معاوية نقل فرقاً من الفرس وأهل بعلبك وحمص إلى سواحل الأردن وصور وعكا. كما نقل أقواماً من هنود البصرة والكوفة إلى أنطاكية شمال الشام.

ثالثاً: اعتمد معاوية على القبائل اليمنية في العمليات البحرية في الشام لما عُرف عنها من طاعة وتنظيم وخبرة ملاحية، لأنها كانت تتميز عن منافستها القيسية في هذا الميدان. كذلك اعتمد معاوية على قبط مصر الذين تخصصوا في سدّ الثغرات في السفن واستخدام المسامير من الحديد في بنائها بدلاً من تثبيتها بالحبال.

وقد سار خلفاء بني أمية بعد معاوية على نفس سياسته البحرية، ففي بلاد المغرب مثلاً يروي البكري[1] عند كلامه عن تأسيس مدينة تونس أن الخليفة عبد الملك ابن مروان (65 ـ 86هـ) أوعز إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس، وفي ذات الوقت كتب إلى حسان بن النعمان أمير المغرب يأمره أن يبني لهم دار صنعة تكون قوة وعُدة للمسلمين، وأن يجعل المغاربة يُحضرون الخشب لإنشاء المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر.

وقد نفذ حسان بن النعمان أوامر الخليفة وبنى بتونس دار لصناعة السفن التي كانت تخرج من ميناء تونس لترفع راية الإسلام في غرب حوض البحر المتوسط فأصبحت إفريقية إلى جانب بلاد الشام ومصر مركزاً بحرياً متقدماً.

وقد جرت العادة في هذا المرفأ أن توضع سلاسل غليظة عند مداخلها فإذا أرادت السفينة الدخول تم إرخاء السلسلة من أحد طرفيها لتغوص في الماء فتدخل السفينة، وإذا أريد منعها ظلت السلسلة مرتفعة فوق سطح الماء.

وقد تطور بناء الأساطيل الإسلامية في المشرق والمغرب من حيث

---

(1) البكري: المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، ص 54.

الضخامة والعدد حتى غدت بلاد الأندلس والمغرب تمتلك أساطيل قوية سيطرت على الجزء الغربي لحوض البحر المتوسط، وقد ساعد على ذلك وفرة خامات الخشب والحديد وكل ما هو ضروري لبناء السفن، فقد كانت الأخشاب متوفرة بغابات الصنوبر التي تنبت بكثرة في مناطق كثيرة من بلاد المغرب والأندلس، وفي خامات الحديد المتوفرة، وكذلك مادة القطران التي تطلى بها السفن. لذا كانت المرافىء ودور الصناعة متوفرة على امتداد سواحل بلاد المغرب والأندلس.

وبفضل صناعة الأساطيل البحرية تمكن المغاربة والأندلسيون من خوض غمار البحر المتوسط وحتى البحر المحيط، فقد كان للأندلسيين مرافىء أسسوها في وهران عام 290هـ، وتنس 262هـ بالجزائر، وصاروا يترددون بسفنهم كل عام بين شواطىء المغرب والأندلس فيقضون فصل الشتاء في المغرب وفصل الصيف في الأندلس.

وقد كان للتجار الأندلسيين مغامرات بحرية في البحر المحيط لكشف غياهبه، ففي منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. قام أحد المغامرين الأندلسيين ويدعى خشخاش بن سعيد بن أسود مع جماعة من البحارة الفتيان بمغامرة في البحر المحيط غابوا خلالها أياماً ثم رجعوا محملين بغنائم واسعة وأخبار مشهورة[1].

وقد تطورت البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس أيام المرابطين والموحدين بسبب الوحدة بين المغرب والأندلس، فقد أقام الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي في حاضرته مراكش مدرسة لتخريج قادة الجيش والأسطول، وأنه كان يستدعي إليها الشبان الصغار من أشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وتونس وطرابلس وكان يجمعهم في كل يوم جمعة بعد صلاة العصر في قصره وهم ثلاثة آلاف طالب كأنهم أبناء ليلة واحدة فيمتحنهم فيما

---

(1) البكري: المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، ص 55.

درسوه، ويزودهم بنصائحه ثم يعمد في أيام أخرى إلى تدريبهم على فنون الحرب المختلفة منها تعليم السباحة، وخوض المعارك البحرية، وذلك في بحيرة خاصة أنشأها لهذا الغرض، وأعد فيها عدداً من السفن الكبيرة والصغيرة ليتمرن الشباب فيها على القتال في البحر والتجديف وقيادة السفن.

ثالثاً: الوقائع البحرية الهامة بين المسلمين وبين البيزنطيين زمن الامويين:

ما أن اشتد ساعد المسلمين في البحر حتى بدأ الاحتكاك بينهم وبين البيزنطيين وبخاصة في حوض البحر المتوسط حُسمت خلالها السيادة البحرية لمصلحة المسلمين، وبخاصة بعد موقعة ذات الصواري وعددٍ من المواقع الأخرى التي تم خلالها حصار القسطنطينية فضلاً عن احتلال المسلمين لعدد من الجزر في حوض البحر المتوسط وبحر إيجا. وأهم تلك المعارك:

1 ـ **موقعة ذات الصواري: (34هـ)**: جهز قسطنطين الثاني ابن هرقل أسطولاً من 500 وقيل 700 سفينة وقصد مصر فخرج إليه واليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر بأسطوله المؤلف من (200 سفينة) وأقدم معاوية بن أبي سفيان بأسطوله لمساعدته، وتلاقيا مع قسطنطين واشتبكا في معركة هائلة رغم التفوق العددي للبيزنطيين. وكانت السفن في بداية المعركة تقاتل بصورة إفرادية فشارك العرب خوفاً من تحطيم أسطولهم، فأجمعوا أمرهم على التكتل ومهاجمة الأسطول البيزنطي، ثم انقضوا عليه بالسيوف والنار حتى انتصروا انتصاراً باهراً وحطموا الأسطول البيزنطي شر تحطيم، وانهزم قسطنطين جريحاً.

وقد سميت هذه المعركة بذات الصواري لكثرة المراكب التي اشتركت فيها.

ومن نتائج هذه المعركة الكبرى أن العرب أدركوا أن النصر يتحقق بالاستبسال والتكتل. كما ازدادت الروح المعنوية للمسلمين.

2 ـ **حصار القسطنطينية** مرتين متتاليتين إحداها أيام معاوية بن أبي

سفيان ما بين عامي (54 ـ 60 هـ).

وحصار القسطنطينية للمرة الثانية عامي (98 ـ 100 هـ) في عهد الوليد بن عبد الملك.

ورغم فشل المسلمين في تحقيق نصر حاسم أو الاستيلاء على القسطنطينية خلال تلك الفترة، ولكنها أظهرت مدى تنامي القوة البحرية الإسلامية وقدرتها على حصار القسطنطينية وتهديد البيزنطيين في عقر دارهم.

3 ـ قام المسلمون بعدد من الحملات البحرية على جزيرة صقلية وعدد من الجزر التي تليها غرباً مثل سردانية وقورسيقا، وجزر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة)[1] وقد مكنت هذه الحملات الأسطول الإسلامي من شل حركة الأسطول البيزنطي في الجزء الغربي لحوض البحر المتوسط وأن يتقدم بكل اطمئنان لفتح أسبانيا سنة 92هـ/ 711م. بعد أن حمى ظهره، وضمن سلامة مواصلاته من خطر البيزنطيين.

4 ـ **فتح صقلية، ومالطا**: أما صقلية فقد تم فتحها في عهد الأغالبة أيام الأمير زيادة الله الأول سنة 212هـ/ 827م. بقيادة أسد بن الفرات، الذي استشهد هناك وبها دفن، وفي عهد محمد بن الأغلب الملقب بأبي الغرانيق، استولى المسلمون على جزيرة مالطا عام 236هـ/ 870م. التي تقع بين صقلية وتونس ولا زالت لغة أهل هذه الجزيرة مزيجاً من اللغة العربية ولهجة محلية.

5 ـ **فتح جزيرة كريت**: استولى عليها جماعة من عرب الأندلس بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي حوالي 210 هـ/ 825م. وأسسوا دولة لهم، واتخذوا عاصمة عُرفت باسم (الخندق) لأنهم أحاطوها بخندق كبير، ثم انتقل هذا الاسم إلى اللغة الأوروبية على شكل chanday ثم كانديا candia. وهو اسم المدينة الحالي. ولم تلبث أن أصبحت هذه الجزيرة

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 200.

قاعدة بحرية إسلامية هامة ومصدر تهديد مستمر لجزر وسواحل الدولة البيزنطية مدة قرن ونصف تقريباً.

6 ـ **غزو الأندلس**: غزا المسلمون الأندلس عام 92هـ/ 711م. بقيادة طارق بن زياد، وموسى بن نصير، ورغم أن هذا الغزو كان برياً أكثر منه بحرياً إلا أن الأسطول قد لعب دوراً كبيراً في نقل الجيش والعتاد لعبور مضيق جبل طارق، وكذلك في إمداد الجيش الإسلامي المحارب في شبه الجزيرة الايبرية.

7 ـ **غزو الساحل الهندي**: وقد تم ذلك عام 159هـ عندما وجه الخليفة المهدي العباسي حملة قوامها (9200 رجل) منهم (700) من أهل الشام مع قائدهم ومضوا حتى وصلوا مدينة باريد من بلاد الهند فتغلبوا على حاميتها وأسطولها واشعلوا فيها النيران والنفط.

وهكذا نرى أن المسلمين سيطروا خلال العصور الوسطى على معظم سواحل وجزر البحر المتوسط، وأصبحت لهم قوة وأساطيل حربية ذات بأس شديد خشي الأعداء مواجهتها في كثير من الأحيان[1].

السفن الحربية الإسلامية وانواعها:

تعددت سفن الأسطول الحربي الإسلامي وتنوعت أحجامها وأغراض استعمالها، منها ما هو عربي أصيل ومنها ما هو أعجمي وأهم تلك السفن التي استخدمت في المشرق والمغرب هي:

1 ـ **الشواني**: جمع شيني أو (شونه) وهي مركب حربي ضخم يشبه القلعة مزودة بالأبراج والقلاع، وصهاريج المياه وأهراء القمح، وبها مائة وأربعون مجدافاً. وتتسع لمائة وخمسين بحاراً. زودت بها بحرية المسلمين في المشرق والمغرب.

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 200.

2 ـ **البطس**: جمع بطسة وهي من السفن الحربية الكبيرة، وتشتمل على عدة طبقات وتسير بالأشرعة إذ تتسع إلى أربعين قلعاً، وتعتبر ناقلة مائية للمؤن والذخائر فضلاً عن المحاربين.

3 ـ **الحراريق**: أو الحراقات ومفردها حراقة. وتستعمل في نقل المواد القابلة للاشتعال كالنار الإغريقية، وكانت بها فتحات تلقي من خلالها النار على العدو.

4 ـ **الشلنديات**: جمع شلندي. ولعل خففت إلى صندل الحالية، وهي من المراكب الكبيرة المسطحة من أعلى ليتمكن المقاتلون من قتال أعدائهم من ظهرها بينما يقوم الجدافون بتجديفها من أسفل. أما أغراض تصميمها فهي نقل المقاتلة والمؤن والسلاح، وهي تشبه في وظائفها هذه. سفن كثيرة مثل المسطحات والحمالات.

5 ـ **الطرائد**: جمع طريدة. وقد استخدمت في المشرق لنقل الخيل، وكانت مفتوحة من الخلف لتيسير ركوب الخيول وإنزالها عند الرسو وعند الإقلاع.

أما في المغرب والأندلس فقد أطلقت الطرائد على سفن صغيرة وسريعة. واستخدمها الأسبان بنفس الاسم Tarida للغرض نفسه. وهو مطاردة العدو.

6 ـ **الأغربة**: جمع غراب، وهو مركب قوي طويل وسريع، ورد ذكره في بعض النصوص «غراب ـ طيار» وربما سمّي بذلك لأنه يدهن بالقار الأسود ومقدمته تشبه رأس الغراب. وقد انتقل هذا الاسم إلى أوروبا على شكل (corvette).

7 ـ **العشاري**: جمعها عشاريات (أعجمية) استخدمت في النيل، وسميت في العصر المملوكي باسم الحراقات، وسمى بعضها باسم اللطاف وبعضها باسم السيماريات، لأنها مكشوفة للماء، وأطلق عليها أسماء ألوانها فعرفت بالذهبي، والفضي، والأحمر والأصفر واللآزوردي وغيرها. وأكثرها

خصوصي الاستعمال تتوفر أعداد منها لدى الأغنياء للتنزهة في النيل.

8 ـ **الحربية**: جمعها حرابي وحربيات، وهو نوع من الشواني، ولكنها أصغر حجماً وتمتاز بخفتها وسرعة حركتها، واستخدمت في المغرب والأندلس ومصر. وقد وصفها الشاعر الأندلسي ابن حمديس بقوله:

يخوضون بحراً كل حين إليهم　　بحر يكون الموج فيه فوارسا

وحربية ترمي بمحرق نفطها　　فيغشي صوت الموت فيها المغاطسا

أسلحة الأسطول:

إن أشهر الأسلحة في الأساطيل الإسلامية، والتي زودت بها مراكب الأسطول الإسلامي الضخمة هي:

1 ـ **الكلاليب**: تلقى على مراكب العدو عند الاقتراب منها فيقذفونها ثم يقتربون منها ويرمون عليها الألواح كالجسر، ويدخلون إليها ويقاتلون، غير أنه يمكن إبطال فعل الكلاليب باستعمال فأس ثقيلة من فولاذ تضرب بها الكلاليب فتقطع.

2 ـ **الباسيليقات**: هي سلاسل في رؤوسها رمانة من حديد، تعمل على تكسير ما تقع عليه لشدة دفعها.

3 ـ **التوابيت**: هي صناديق مفتوحة تثبت في أعلى السواري، يصعد إليها الرّجال قبل مواجهة العدو، فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق فيرمون العدو وهم مستورون بالصناديق، وعادة ما كانوا يستعيضون عن الحجارة بأدوات أكثر خطورة على العدو مثل قوارير النفط، ويرمون بها قوارب الأعداء فتلتهمها النيران. كما كانوا يقذفون على سفن العدو أكياس الحيات والعقارب وقوارير الصابون لبث الذعر في جنود الأعداء ويتحقق النصر عليهم.

4 ـ **اللجام**: أداة كالفأس تزود بها مقدمة المركب لتصدم سفينة الأعداء وتحدث بها ثقب يدخل منه الماء فتغرق سفينة العدو.

5 ـ **النار الإغريقية**: هي عبارة عن مزيج من مواد شديدة الاشتعال من بينها الكبريت وتوضع هذه المواد في أسطوانة كبيرة مستطيلة الشكل تشد في مقدم السفينة ويصنعون من تلك المواد كرات مشتعلة. أو قطع من الكتان الملوث بالنفط، وهذه النار تشتعل في الماء والهواء.

كما استعمل المسلمون النفط البحري الذي كانوا يخلطون فيه الكبريت مع القطران وبعض المواد الأخرى شديدة الاشتعال تزداد اشتعالاً في الماء بدل أن تنطفىء، ويقذمون بها سفن الأعداء بواسطة أداة تسمى (النفاطة) كما كانوا أحياناً يستخدمون النشاب والمنجنيق المشتعل. وقد ذكر الشاعر الأندلسي ابن حمديس هذه المواد المشتعلة فوق سطح الماء في شعره فقال:

وما للماء بالإطفاء حكم عليه لدى الوقود ولا اقتدار

6 ـ **وسائل الدفاع**: لما كان استعمال المواد المشتعلة من قبل الأعداء أيضاً لذا عمل المسلمون بعض وسائل الوقاية من المواد المشتعلة فكانوا يضعون على مراكبهم الجلود واللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنطرون. وكانوا في الليل لا يشعلون ناراً، أما في النهار فكانوا يسدلون قلوعاً زرقاء كيلا يرى الأعداء سفنهم من بعيد.

إمرة الأسطول:

كان لكل سفينة قائد ورئيس. فالقائد يهتم بأمر السلاح والجند وخوض المعارك، وأما الرئيس فمهمته تحريك السفن في الاتجاه المطلوب بواسطة الأشرعة أو التجديف، كما وُجد المنادي على ظهر السفينة ومهمته تبليغ أوامر الربّان إلى الملاحين بصوته.

أما إدارة الأسطول بكامله فهي من مهمة أمير البحر الذي كان يعلق فانوساً على مركبه فتهتدي به بقية السفن فتقلع بإقلاعه وترسو بإرسائه.

وقد اشتهر عدد غير قليل من أمراء البحر وقواده فقد ذكر ابن خلدون أن قطع أسطول الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر بلغت مائتي 200

سفينة كانت بقيادة ابن رماحس، وأن أعظم عهد شهده الأسطول الموحدي كان بقيادة أحمد الصقلي إذ وصل الأسطول الموحدي درجة لم تبلغها الأساطيل في بلاد المغرب من قبل مما دعا صلاح الدين الأيوبي إلى طلب نجدته في صراعه ضد الصليبيين في المشرق[1].

القواعد البحرية ودور صناعة السفن:

شهدت الشواطىء الإسلامية عدداً من القواعد والمرافىء البحرية لرسو سفن الأسطول قبل إقلاعها للغزو أو لصيانتها فقد ذكر المقدسي أن ميناء عكا ميناء عجيب[2]. مما يدل على اهتمام ولاة الشام به لكونه القاعدة الكبرى لأسطول الشام، والذي خرجت سفنه لغزو قبرص.

وقد ذكر اليعقوبي: «إن ميناء طرابلس الشام عجيب يحمل ألف مركب، وأن صور بها دار لصناعة السفن، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم، وهي جليلة يحرس ميناءها برجان تسحب بينهما سلسلة»[3].

لقد امتازت قواعد الشام بالاتصال السريع مع المدن والقرى المجاورة لها والتي هيأت لها الحصول على الإمدادات.

ويذكر ابن خلدون أن مرافىء الأندلس للحط والإقلاع بجاية والمرية التي تعتبر قادة الأسطول الأندلسي[4].

أما صناعة السفن فبعد أن استفاد العرب من خبرة الروم الإغريق ممن يقطنون بلاد الشام تفننوا في عمل السفن الحربية.

وقد تعددت دور صناعة السفن في الثغور الشامية لوفرة المواد اللازمة

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 200 ـ 201.

(2) شمس الدين عبد الله المقدسي: كتاب: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت، دار صادر، ط 2، لسيون بريل 1909، ص 168.

(3) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص 227 ـ 228.

(4) ابن خلدون: المقدمة، ص 200.

لبناء السفن وأهمها الأخشاب. فكانت أخشاب لبنان، وأخشاب السنط في مصر، وأخشاب بلاد المغرب والأندلس، وبلاد الأناضول وإيطاليا تنقل إلى دور الصناعة في صور وعكا وطرابلس وحيفا، ويذكر ليونيل كانون أن العرب الذين استولوا على سوريا ومصر كانوا شعباً صحراوياً لا عرباً وأساطيلهم التي بدأوا بها صنعت أحواض بناء السفن في الاسكندرية بواسطة يونانيين ومصريين، كانوا قبل ذلك يبنون سفن الأسطول البيزنطي، واعتمد الحكام الجدد عليهم لا في بناء السفن فقط، وإنما في تزويدها بالمجاديف أيضاً[1].

لقد أصبحت مصر بعد الفتح الإسلامي مركزاً لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة، كما كانت تمد هذا الأسطول بخيرة الملاحين والعمال. وكانت أول دار صناعة في جزيرة الروضة، إلى أن أنشأ معاوية بن أبي سفيان دار الصناعة في عكا.

كانت السفن الحربية أول الأمر تصنع من الخشب البلوط كي تتحمل السفن عملية الشد والجذب إلى الشواطىء ويغطى هذا بطبقة من الخشب الزان، ويؤخذ الخشب من شجر اللبخ، وخشب السنط، وخشب الأرز.

وكانت طريقة صنع السفن تتم على مراحل أولها تجفيف الخشب بعد تقطيعه، وإعداده حتى تظهر الشقوق، ثم تملأ بالقار والشمع المذاب ثم تكسى الألواح من الخارج بطبقة من القار أو الشمع أو الاثنين معاً حتى يمنع تسرب الماء إليها ويعطي الشمع المذاب منظراً جميلاً. وكانت الألوان المشهورة القرمزي، البنفسجي الأزرق، الأصفر، الأخضر، الأبيض، والأبيض المائل إلى اللون الزبدي، ثم استعمل لون يشبه لون الأمواج وبخاصة سفن الاستطلاع الحربي، وسفن التجسس كما استعمل معدن القصدير في بعض الأحيان في تغليف هيكل السفينة بدل القار والشمع بعد

---

(1) ليونيل كانون: رواد البحار، ترجمة جلال مظهر، القاهرة، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر 1966، ص 329 ـ 330.

أن يوضع بينه وبين الخشب طبقة من القماش.

ويذكر روبن ليفي: «أن العرب كانوا يحسنون استخدام السفن الحربية الثقيلة والبطيئة الحركة، وفي إحدى الغزوات البحرية كان هناك خمسة آلاف رئيس بحري يعملون تحت إمرة عشرة قواد ويقودهم رئيسهم الأعلى»[1].

وكانت سفن المسلمين في بداية صناعتها قد أخذت أشكالها عن سفن البيزنطيين التي استولى عليها عمرو بن العاص في الإسكندرية، ثم تفنن المسلمون بعد ذلك في بناء سفن الأسطول بعد تجاربهم البحرية الموفقة[2].

(1) Rouben Levy: The social structure of islam cambridge, 1962. p. 453.

(2) سيدة إسماعيل الكاشف: مصر منذ فجر الإسلام، من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية مصر. دار النهضة المصرية، الطبعة الثانية 1979. ص 87.

الفصل الرابع عشر

الإدارة المالية

أولاً: بيت المال:

المال عصب الحياة، فالدولة لا تقوم دون مال تحصل عليه وتنفقه على إدارة شؤونها.

وقد ظلت موارد المسلمين المالية خلال عصر النبوة، وخلافة أبي بكر الصديق محدودة من حيث مصادرها، فكان الرسول الكريم يوزعها بين المسلمين حال الحصول عليها، وكذلك فعل الخليفة أبو بكر.

فلما تدفقت الأموال أيام الخليفة عمر بن الخطاب بسبب الفتوحات الكبرى، وأصبح هناك فائض من المال أمر عمر باقتراح الوليد بن هشام باتخاذ بيت للمال وعيَّن عبد الله بن الأرقم أميناً له. كما عيَّن إلى جانبه مساعدين اثنين. وتبع ذلك إنشاء بيت للمال في كل ولاية مستقل عن الوالي والقاضي، وعيَّن عليه حرساً خاصاً.

ويروي أن مشادة وقعت في عهد الخليفة عثمان بن عفان بين سعد بن أبي وقاص والي الكوفة ـ وقد عُرف بإسرافه ـ وبين عبد الله بن مسعود أمين

بيت المال، ورفع الأمر إلى الخليفة الذي أيد أمين بيت المال ضد الوالي.

وعندما أصبح بيت المال يمارس اختصاصاته نظر إليه المسلمون بمثابة خزانة الدولة في وقتنا الحاضر. ففيه بيان شامل بمصادر الإيرادات المختلفة وبيان آخر بمصروفات الدولة بجميع أنواعها، ولم تكن موارد بيت المال كلها نقداً، ولكنها كانت نقداً وعيناً (إذ كان بعضها نوع من أنواع المحصولات) كالأسلحة والثياب والغلال. وكان لبيت المال نصيب من الفيء والغنيمة، وإليه ترد ضريبة الخراج، والجزية، والعشور، والزكاة وما في حكمها، وكانت إيرادات بيت المال تنفق في دفع رواتب الجند، والقضاة، والولاة، وتشترى منها الأسلحة، وتنفذ منها المشاريع العامة المفيدة كتنظيم الري وإصلاح مجاريها، وحفر الترع والآبار.

وكان بيت المال في عصر الخلفاء الراشدين ملكاً لجميع المسلمين، ولكل منهم نصيب فيه، وينال كل محارب أو موظف راتباً شهرياً منه.

وبقيام الخلافة الأموية اعتبر الأمويون بيت المال ملكاً لهم يتصرفون فيه كيف يشاؤون، فهذا معاوية بن أبي سفيان يهب خراج مصر لعمرو بن العاص طيلة حياته، أو يوزع الأموال دون حساب لكسب رضا المعارضين له. وأصبح الإنفاق من بيت المال دون حساب ظاهرة مألوفة. وبعد وفاة معاوية ظلت هذه الظاهرة طيلة عهد الأمويين والعباسيين، فكانت أموال بيت المال تنفق حسب أهوائهم، ثم حددت رواتب الخلفاء والموظفين، وأصبح الخليفة أو الوالي لا يستطيع أن يتجاوز في إنفاقه أكثر مما خصص له، وتصرف باقي الأموال على شؤون الولاية أو مركز الخلافة.

ومنذ العصر الأموي حدث تغير في الإدارة المالية للدولة الإسلامية. فقد فصل معاوية (الصوافي) عن بيت المال وجعلها للخليفة. والصوافي في الأصل في بلاد فارس (كل أرض لكسرى أو لأهله، وكلُّ من فرَّ من أرضه، وقتل في المعركة، وكل مغيظ ماء أو أجمة...). وهي تختلف عن الفيء، وبذلك ضمن معاوية مورداً كبيراً له ولأسرته إذ إن صوافي العراق وحدها

بلغت سبعة ملايين درهماً سنوياً[1] وقد زاد الأمويون في الضرائب نوعاً وكماً.

ثانياً: موارد بيت المال:

يمكن تقسيم موارد بيت المال خلال صدر الإسلام إلى قسمين:

1 ـ موارد مشروعة: وهي التي أباحها الشرع، مثل خمس الغنائم، والخراج، والزكاة.

2 ـ موارد غير مشروعة: مثل المكوس.

1 ـ الموارد المشروعة: أ ـ الغنائم:

الغنيمة هي كل ما يناله المسلمون من المشركين بالقتال، وتتمثل في الأسرى والسبي والأموال والأراضي، فالأسرى هم المقاتلون الذين وقعوا في الأسر، والسبي هم النساء والأطفال الذين وقعوا في أيدي المسلمين، وتقبل الفدية عنهم جميعاً. أما الأموال فيقصد بها ما يمكن نقله من مال أو ما شابه يغنمها المسلمون في قتالهم[2]. وكان النبي أول الأمر يتصرف فيها كما يتراءى له، ثم صار يوزعها بين المهاجرين والأنصار بالتساوي، وإذ ذاك نزل قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[3]. وبعد موت النبي أصبح الخمس من حق بيت مال المسلمين، وتوزع الأربعة أخماس الباقية على المقاتلين.

وأما الأراضي التي كان يستولي عليها المسلمون عنوة أو صلحاً، فهي غنيمة لهم. غير أن الآراء اختلفت في أمر التصرف فيها، فقال بعضهم إنها غنيمة كغيرها من الغنائم، وعلى ذلك وجب توزيعها على المقاتلين. وقال فريق بوجوب إبقائها في أيدي أهلها، على أن يؤدوا ضريبة الخراج عنها

---

(1) ابن سلام، أبي عبيد القاسم: كتاب الأموال، القاهرة، 1353، ج 1، ص 55 وبعدها.

(2) ابن سلام: كتاب الأموال، ج 1، ص 55.

(3) سورة الأنفال، الآية 41.

ويصبح هذا الخراج فيئاً للمسلمين وعلى مرّ الأيام ينتفعون به في كل العصور[1].

أما الضريبة الأولى فتحرم من يأتي من المسلمين بعد هؤلاء الغانمين، ولا تترك لهم شيئاً يستفيدون من ثمرته. وكان الخليفة عمر بن الخطاب من رأي هذا الفريق ويتضح ذلك من خلال كتاب إلى سعد بن أبي وقاص بعد فتح العراق. حيث يقول له: «أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم الأرض بينهم كمغانمهم وما أفاء الله عليهم. فإذا أتاك كتابي هذا. فانظر ما أجلب الناس عليك من العسكر من كراع ومال، فالقسمة بين من حضر، وأترك الأراضين والأنهار بعمالها، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء». وعلى ذلك فرض عمر ضريبة الخراج على أهل العراق وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون.

وقد جاء في كتاب الأحكام السلطانية ما يفيد اختلاف الأئمة في وضع الأرض التي استولى عليها المسلمون بقوله: «... أما الأرضون إذا استولى عليها المسلمون فتقسم ثلاثة أقسام: أحدها ما ملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء، فقد اختلف الفقهاء في حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها. فذهب الشافعي: أنها تكون غنيمة كالأموال تقسم بين الغانمين إلاّ أن يطيبوا نفساً بتركها فتوقف على مصالح المسلمين. وقال مالك: تصير وقفاً على المسلمين حين غنمت، ولا يجوز قسمتها بين الغانمين. وقال أبو حنيفة: الإمام فيها بالخيار بين قسمتها بين الغانمين فتكون أرضاً عشرية أو يعيدها إلى أيدي المشركين بخراج يضربه عليها فتكون من أرض خراج»[2].

ب ـ **الخراج**: تضم كلمة خراج في معناها ثلاث ضرائب هي:

---

(1) ابن سلام: كتاب الأموال، ج 1، ص 55.

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 137.

1 ـ ضريبة الأرض الخراجية ـ 2 ـ الجزية ـ 3 ـ العشور

1 ـ **ضريبة الأرض الخراجية**: هي عبارة عن الضريبة التي يجبيها المسلمون عن الأراضي التي كانوا يستولون عليه عنوة أو صلحاً، وتبقى في يد أهلها. وهذه الأرض تبقى ملكاً لهم يتوارثونها ويتبايعونها، وليس لأحد أن يأخذ منها، ويبقى عليها الخراج دوماً وحتى لو أسلم أهلها.

أما الأراضي التي لا يفرض عليها الخراج، وإنما تكون أرضاً عشرية يدفع عنها أصحابها عُشر ثمارها ومحصولاتها زكاة لها. وهي على ثلاثة أنواع:

1 ـ الأرض التي ملكها المسلمون عُنوة واستأنفوا إحياءها.

2 ـ الأرض التي أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب.

3 ـ الأرض التي كانت تؤخذ من المشركين نتيجة الحرب (عُنوة وقهراً) ثم تقسم بين الفاتحين.

وقد ذكر الماوردي هذه الأنواع بقوله: «. . . والأرضون كلها تنقسم إلى أربعة أقسام: أحدها ما استأنف المسلمون إحياءه فهو أرض عُشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج.

القسم الثاني: ما أسلم عليه أربابه، فهم أحق به فتكون على مذهب الشافعي أرض عُشر، ولا يجوز أن يوضع عليها الخراج.

القسم الثالث: ما مُلك من المشركين عنوة وقهراً، فيكون على مذهب الشافعي غنيمة تقسم بين الفاتحين، فيملكونها ويدفعون العُشر عن غلتها، وحينئذ تكون أرضُ عشر. لا يوضع عليها الخراج.

القسم الرابع: ما صولح عليه المشركون من أرضهم، فهي الأرض المختصة بوضع الخراج عنها»[1].

---

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 147.

وكان تقدير الخراج مال أو غلة، كما عمل الخليفة عمر بن الخطاب في أرض السواد[1] بعد فتحها. وقد بلغت ضريبة الفدان المزروع قمحاً في هذه الأرض في عهده أربعة عشر درهماً. وأما حصة معينة مما خرج من الأرض، وهذا ما يسمى بالمعاملة أو المزارعة، كما عامل النبي صلى الله عليه وسلم أهل خَيْبَر على أساس تقديم نصف ما يخرج من الأرض قليلاً كان أم كثيراً.

2 ـ **الجزية**: مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم. وهي مقابل الزكاة عند المسلمين حتى يتساوى الفريقان في دفع الضرائب، وتسقط عنهم الجزية إذا أسلموا، وهي مفروضة على جميع الذكور الذميين القادرين على دفعها. فلا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ الطاعنين بالسن ولا يستطعون العمل، ولا ذوي العاهات كالعميان والمقعدين والمجانين، ولا من رجال الدين إلاّ إذا كانوا أغنياء، أي إنها فرضت على كل الأشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد.

أما مقدار الجزية فلم يكن ثابتاً زمن النبي، وأبي بكر. ثم عينها عمر، ولكنها ضبطت بعد ذلك حسب درجات الناس، وقدرتهم فكانت (48 درهماً) على الأغنياء، تدفع سنوياً (24 درهماً) على متوسطي الحال (12 درهماً) على الفقراء[2].

3 ـ **العشور**: وهو مال يجبى من تجار الفرنج الذين يدخلون ببضائعهم إلى دار الإسلام فكانوا يدفعون عُشر قيمتها مثل الضريبة الجمركية في الوقت الحاضر. وكانت تزيد حتى تصل الخمسين، وتقل إلى نصف العشر، وجاز إزالتها نهائياً. ويُعزى سبب فرض ضرائب العشور في الإسلام إلى أبي

---

(1) السواد: كلمة أطلقت على الأرض المزروعة، لأن العرب كانوا يلحقون لون الخضرة بالسواد فتوضع أحدهما موضع الأخرى.

(2) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: كتاب الخراج، تحقيق محمود الباجي، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع (بلا) ص 125.

موسى الأشعري والي الكوفة في عهد الخليفة عمر إذ كتب إليه يخبره بأن تجار المسلمين الذين يتاجرون خارج المناطق الإسلامية يدفعون ضريبة مقدارها (10٪) على سلع متاجرهم، فأجابه عمر، بالمعاملة بالمثل، والقيام بجباية ضريبة مماثلة على الأجانب الذين يتاجرون في البلاد الإسلامية[1].

ثالثاً: الخراج:

كان الخلفاء يعينون في العادة عمالاً مستقلين عن الولاة، مهمتهم القيام بجمع الخراج فيدفعون منه أرزاق الجند، وما تحتاج إليه المرافق العامة من ضروب الإصلاح، ويرسلون الفائض إلى بيت المال ليصرف فيما خُصص له.

ويحدد أبو يوسف الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى جباية الخراج، فيقول: «أن يكون والي ذلك فقيهاً عالماً، مشاوراً لأهل الرأي، عفيفاً، لا يطلع الناس منه على عورة، ولا يخاف في الله لومة لائم ما حفظ من حق، وأدى من أمانة، أحتسب به الجنة، وما عمل به من غير ذلك، فخاف عقوبة الله فيما بعد الموت، تجوز شهادته إن شهد، ولا يخاف منه جور إن حكم، وأن يبعث الإمام قوم من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته، يسألون عن سيرة العمال، وما عملوا به في الخراج، وكيف جبوه»[2].

وكان عهد الخلفاء الراشدين عهد عدل وتسامح، لم يشتد فيه الولاة في جمع الضرائب ومع ذلك فإن بعض الجباة كانوا يسيئون استعمال سلطتهم، ويرهقون الناس، لذلك كان حسن اختيارهم أمراً ضرورياً، وفرض الرقابة على أعمالهم أمراً محتوماً.

وكان الخلفاء أنفسهم يشرفون على جباية الخراج، ويحاسبون الولاة

---

(1) المصدر نفسه، ص 135.

(2) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص 110.

وعمال الخراج حساباً عسيراً[1]. فقد سن عمر بن الخطاب لذلك نظاماً يقضي بعمل إحصاء دقيق لثروة الولاة قبل توليتهم، ثم إلزامهم عند انتهاء أعمالهم بدفع نصف الثروة التي جمعوها لأنفسهم أثناء ولايتهم، إذا تبين أن رواتبهم لا تسمح بادّخار مثل تلك الأموال. على أن بعض عمال الخراج وبعض الولاة استطاعوا برغم ذلك أن يجمعوا ثروات طائلة، واحتالوا لذلك بوضع الأموال التي كانوا يجمعونها أمانة عند أصدقائهم أو ذوي قرباهم.

أما الأمويون فقد سنوا نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية تلك الأموال. ففي عهد عبد الملك بن مروان، كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج، عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية، فكانوا يعذبون أحياناً حتى يقروا بأسماء من أودعوهم ودائعهم وأموالهم، ويردوا إلى بيت المال ما أخذوه من أموال.

طرق جباية الخراج:

تتم جباية الخراج بطرق ثلاثة:

1 ـ نظام المحاسبة.

2 ـ نظام المقاسمة.

3 ـ نظام الالتزام.

1 ـ نظام المحاسبة:

ويقضي بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض. أو مقدار غلتها وكانت عند الضريبة تدفع نقداً أو نوعاً أو كلاهما معاً. وهي عبارة عن مقادير معينة من المال والغلة. تتم جبايتها كل عام بحسب مساحة قطعة الأرض، وكانت تجبى أحياناً بحسب نوع غلة الأرض.

2 ـ نظام المقاسمة:

ويقوم هذا النظام على تخصيص مقدار معين من المحصول يعطى لبيت

---

(1) ابن سلام: كتاب الأموال، ج 1، ص 44.

المال. كأن يقرر ثلث المحصول أو ربعه مثلاً، كما هو متبع في بعض البلاد العربية حالياً عند تأجير أرض زراعية لفلاح على أن يحصل صاحب الأرض على نصف المحصول أو ثلثه حسب الاتفاق.

وقد اتبع الخلفاء نظام المقاسمة. وهذه الطريقة وإن كانت لصالح الطرفين (المالك والمستأجر) إلاّ أنها مربكة[1].

3 ـ نظام الالتزام:

ومعناه أن يتعهد شخص من ذوي الغنى والنفوذ، بدفع مال سنة عن خراج إقليم من الأقاليم أو خراج إحدى المدن أو القرى، ويقوم هو بنفسه بجمع هذا الخراج لصالحه من هذه الجهة. وكان الكثيرون يتنافسون من أجل الحصول على هذا الامتياز، وقد تحدث مزايدة بين المتنافسين، فيحصل على الالتزام أكثرهم عطاء. وفي هذه الطريقة ضمان كاف للدولة في تحصيل ضرائبه، وبطريقة عاجلة.

وكان الصحابة في صدر الإسلام يكرهون نظام الالتزام هذا، وينهون عنه، غير أنه بمضي الزمن وتطور الأحوال، واختلاط العرب بغيرهم من الأقوام كالفرس والرومان لجأوا إلى اتّباعه بعد أن اقتبسوه عنهم، لأنه كان شائعاً في الدولة البيزنطية، وهو نظام قديم يرجع إلى أيام اليونان، ولم يلبث العرب أن أدخلوا نظام الالتزام في الحسبة والقضاء والشرطة.

وقد شاع هذا النظام بصورة خاصة في العصر العباسي، حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية، ولم يكن الالتزام إذ ذاك مقتصراً على إقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة، بل قد يشمل ولاية برمتها، إذ كان هؤلاء يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الولاية أو الخلافة مبلغاً من المال، عدا الهدايا والطرف.

على أن نظام الإقطاع هذا لم يخل من العيوب، إذ إن المقتطع أو

(1) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص 112.

الملتزم يعمل على الإثراء وجمع الأموال الطائلة، ولا يتردد في إرهاق الأهالي وإثقالهم بأنواع الضرائب المختلفة حتى يستطيع أن يدفع ما عليه للدولة من الخراج، ويحفظ ما زاد لنفسه، والأهالي في ذلك مغلوبون على أمرهم، وقلما تصل شكاياتهم إلى السلطة المركزية.

وقد كره أبو يوسف نظام الالتزام، فكتب إلى الرشيد ينصحه بالعدول عنه ويقول له: ورأيت ألا تقبل شيئاً من السّواد، ولا غير السواد من البلاد، فإن المتقبل (الملتزم) إذا كان في قبالته فضل عن الخراج، عسف أهل الخراج، وحمل عليهم ما لا يجب عليهم، وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم، ليسلم مما يدخل فيه، وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية، والمتقبل لا يبالي بهلاكهم، بصلاح أمره في قبالته، ولعله يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً، وليس يمكنه ذلك إلاّ بشدة منه على الرعية، وضرب لهم شديد، وإقامته لهم في الشمس، وتعليق الحجارة في الأعناق، وعذاب عظيم، ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد، الذي نهى الله عنه، وإنما أمر الله عزَّ وجل أن يؤخذ منهم العفو، وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم»[1].

4 ـ المواريث الحشرية: وهي مال من يموت وليس له وارث.

5 ـ التعقيب: وهي ضريبة جديدة فرضت في الأندلس في عهد المرابطين، وبالتحديد أيام أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين سنة 509هـ (1125م) وكان الغرض من فرضها ترميم الأسوار والحصون حول المدن الرئيسية، وتجبى من أهالي المدينة المنتفعة بها. وقد استمرت هذه الضريبة حتى خروج المسلمين نهائياً من الأندلس، وهي وإن كانت من الضرائب غير الشرعية إلاّ أن الفقهاء في الأندلس قد أجازوها لأن المصلحة تقتضي ذلك بدليل قوله: «وكان خراج السور في بعض مواضع الأندلس في

(1) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص 109.

ذلك الوقت على أهل الموضع. وقد أجاز ذلك الفقيه أبو إسحاق الشاطبي معتمداً على قيام المصلحة التي إن لم يقم بها الناس فيعطون، ضاعت عليهم»[1].

رابعاً: الموارد غير المشروعة:

وهي ضرائب فرضتها ظروف التطور للجماعة الإسلامية وزيادة حاجات الأمة لسد احتياجاتها، وكان بعضها يسمى بالهلالي لأنها تجبى مع هلال كل شهر عربي بعكس الحال الخراجي الذي يجبى مرة في السنة[2]. وكان الفقهاء المسلمون لا ينظرون إليها بعين الرضا لأنها ضرائب غير شرعية، ولكن للضرورة أحكامها وبخاصة بعد أن نقصت موارد بيت المال مع زيادة النفقات والمرتبات، فكان لا بد من إيجاد موارد جديدة لتغطي العجز عن طريق هذه الضرائب التي استمرت بالكثرة والتنوع وعدم الثبات على حال دائم حسب أهواء المسؤولين. فقد شملت أغلب التجارة الواردة من الخارج، كما شملت أغلب السلع التي تعرض في الأسواق ويتم بيعها وشراؤها. ومن الطريف أنه عند مداخل المرافىء كانت توضع سلاسل لمنع السفن الغادية من الدخول استعملت هذه السلاسل أيضاً لمنع السفن التجارية من الدخول حتى تدفع الضريبة (المكوس) كما مُدت سلاسل أخرى لمنع السفن التجارية النهرية من المرور قبل دفع تلك المكوس.

ولا شك فإن تلك المكوس كانت تمثل مورداً خصباً للدولة الإسلامية ولكنها في نفس الوقت كانت تسبب في إرهاق الناس ومضايقتهم، ولهذا كثرت الظلامات وعمت الشكوى والفتن في الأسواق، خصوصاً وأن طرق الجباية في الأسواق كانت تتسم بالعنف والقسوة وسوء المعاملة. وقد اشتكى الرحالة الأندلسي ابن جبير من قسوة الإجراءات الجمركية في الموانىء

---

(1) الحميري: الروض المعطار، ص 223.

(2) تقي الدين أحمد (المقريزي): كتاب الخطط المقريزية، مصر، مطبعة النيل، 1324هـ، ج 1، ص 161.

المصرية حينما زار مصر في أوائل عهد صلاح الدين الأيوبي. وسوء معاملة الحجاج القادمين إلى البلاد والخارجين منها[1]. غير أن ما قاله ابن جبير عن مصر لم يمنع من أن بلاده الأندلس كانت هي الأخرى تتبع نظام الضرائب المجحفة وغير المشروعة المعروفة بالمكوس، وكان خطرها كبيراً لأنها كانت تعطى التزاماً، وكان ملتزموها من غير المسلمين أحياناً وأطلق على صاحب الالتزام اسم القبالة أو المتقبل، وانتقل إلى اللغة الإسبانية بلفظه ومعناه Cabulao.

نفقات الدولة:

كانت الضرائب المشروعة وغير المشروعة تمثل مورداً هاماً لبيت مال المسلمين. وإن إنفاق تلك الأموال على ضربين:

الأول: صرف بعض الموارد التي نص عليها القرآن كالغنيمة، والفيء، والزكاة حسب نصوص توزيعها في القرآن الكريم والتي أشرنا إليها في حينه.

الثاني: ويختص بباقي موارد الدولة والتي تنفق أساساً في القيام بنفقة القصور الخلافية أو السلطانية، وأرزاق الجند، ورواتب الموظفين والإنفاق على الحملات العسكرية والتسليح، ونفقات المشروعات العامة مثل حفر الترع والقنوات وتطهيرها، وإقامة الجسور، وبناء المستشفيات (البيمارستانات) ومنح العلماء والأدباء، والنفقة على المسجونين وأسرى الحرب من المشركين، ودفن موتاهم[2].

وكانت المدن تستأثر في الغالب بجزء كبير من موارد بيت المال حيث يتم إنفاقها في إنشاء وصيانة بعض المرافق العامة في المدينة كدار الإمارة،

(1) أبي الحسن محمد أحمد بن جبير: رحلة ابن جبير، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1981، ص 28 - 29.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص 314.

والمسجد الجامع، والدواوين، ومركز الشرطة والسجن. كما أن الدولة تتحمل المسؤولية عن العناية بمياه الشرب في المدينة وتوفير الخدمات لأهلها كالإنفاق على نظافة الشوارع، وترتيب أناس يكنسون الأزبال والأتربة من الأسواق ورشها بالماء كل يوم، وإزالة الأوساخ من المسالك والأنابيب وترتيب الخفراء والعسس والدرابين لحراسة الأسواق، ومراقبة الأمن في المدينة طوال الليل. ويروى المؤرخ الأندلسي ابن سعيد المغربي في هذا الصدد أن بلاد الأندلس كانت بها دروب تغلق في أول الليل بواسطة الدرابين. وكان كل واحد منهم له كلب وسلاح وسراج. وما زالت هذه الظاهرة، متبعة في إسبانيا حتى الوقت الحاضر.

غير أن هذه الخدمات لم تكن دائمة ومنظمة فكانت المدينة نفسها تعتمد على إمكانياتها الذاتية في تغطية خدماتها وذلك بما يفرضه الولاة أو الخلفاء من مكوس جديدة لسد احتياجات المدن وتقديم الخدمات لها.

وللتأكيد على موارد بيت المال وقدرته على الإنفاق فقد بلغت نفقات الدولة العباسية في السنة زمن المأمون (50 مليون) درهم، ويتبقى (350) مليون درهم وفراً في بيت المال. ولا شك أن الدولة التي يتبقى لها مثل هذا المبلغ وفراً كل عام تعتبر دولة غنية وفي غاية الثروة.

ولم يكن خراج الأندلس بأقل مما كان عليه في الدولة العباسية، إذ يشير ابن عذارى[1] وابن الكردبوس[2]، أن جباية الأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي بلغت خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانية آلاف دينار (5,408,000) وأنه قسمها ثلاثة أثلاث: ثلث للجند، وثلث للبناء، والشعراء، والخطباء، والقضاة، وثلث مدخر في بيت المال.

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2، ص 231 ـ 232.

(2) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية 1970، ص 59.

وفي أدوار الانحطاط، وإسراف بعض الخلفاء، وزيادة الرواتب، وتخفيف الضرائب تقل موارد بيت المال بحيث يعجز عن الإيفاء بالتزاماته في تقديم الخدمات المناسبة للمجتمع الإسلامي.

النقد:

تعتبر النقود إحدى شارات الخلافة وعلاماتها، وأول من سك النقود العربية وجعل استعمالها إجبارياً هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

أما قبل ذلك فقد كانوا يتعاملون بالنقد الفارسي والبيزنطي والعربي[1].

وقد سكت النقود من معدن الذهب والفضة والنحاس. فالدنانير من الذهب، والدراهم من الفضة، والدوانق (جمع دانق) من النحاس. وكان الدينار يساوي وزن درهم وثلاثة أسباع، أما قيمته فتتراوح بين (13 و15) درهم وثلاثة أسباع. أما وزن الدرهم فكان (50 حبة). ويساوي الدرهم ستة دوانق، ويُصنع الدونق من النحاس. ومرجع قيمة هذه النقود إلى الوزن كما يلاحظ.

وغالباً ما كان يُكتب على أحد وجهي العملة اسم الله تعالى واسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى الوجه الآخر اسم الخليفة وتاريخ سك العملة.

وتشير بعض المصادر إلى وجود العملة العربية قبل عهد عبد الملك إذ يقول المؤرخ الألماني مولر أن خالد بن الوليد ضرب في طبرية دنانير على رسم وشكل الدنانير الرومية تماماً وعلى أحد وجهيها اسم خالد باليونانية، وذلك سنة (15هـ) كما يقول أيضاً إن معاوية بن أبي سفيان ضرب نقوداً ذهبية على مثال الدينار الفارسي وعليه اسمه وتوجد نماذج لكلا النوعين[2].

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 206.

(2) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص 226.

ويشير المقريزي أن أول من ضرب النقود في الإسلام عمر بن الخطاب سنة (18هـ) على غرار النقود الفارسية، وجعل عمر وزن الدرهم 14 قيراطاً أو سبعة أعشار المثقال، وهو الحد المتوسط لوزن الدراهم التي كانت متداولة في أنحاء البلاد يومئذ، إذ وجد أن بعضها يزن 20 قيراطاً وبعضها 12 وبعضها 10 قراريط ومعظمها مزوّد، فأخذ متوسط أوزانها ليميز به درهمه عن باقي الدراهم المتداولة. كما أوجد الخليفة عمر النسبة بين الدينار والدرهم هي 1/10 وأصدر الخليفة عثمان بن عفان بعده دراهم منقوشاً عليها «الله أكبر».

كما أن الولاة كانوا يضربون العملة في ولاياتهم وبخاصة في بلاد فارس إذ عُثر على دراهم يرجع تاريخها إلى سنة (28 و38هـ).

دار ضرب النقود:

تزامن التعامل بالنقد الإسلامي مع وجود دُور الضرب في العواصم الإسلامية وفي الولايات أيضاً. وكانت دور الضرب تتقاضى واحداً بالمائة عن كمية الأموال التي يُراد ضربها كأتعاب للعمل، وثمن الوقود ولو علمنا أن أحد دور الضرب قد قبضت مبلغ مائتي ألف دينار أتعاباً لأمكننا أن نتصور مدى غنى الناس وكمية السبائك التي كانوا يقدمونها لتسك نقوداً.

وكثيراً ما كان التزييف يصاحب النقود المتداولة، بالرغم من شدة القوانين التي تعاقب المزيفين للنقود، ويضطر أولو الأمر في أحيان كثيرة عند ظهور الغش إلى جمع النقود وسكها من جديد. من ذلك ما يذكره ابن الأثير في عهد إمرة الأمراء ببغداد، أن ناصر الدولة الحمداني نظر في العيار فرآه ناقصاً فأمر بإصلاح الدنانير. فضرب دنانير سماها الأبريزية خير من غيرها. فكان الدينار بعشر دراهم فبيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً[1].

ويشير ابن خلدون إلى طريقة سك النقود. فيقول: «السكة هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع جديد ينقش فيه صور

(1) ابن الأثير: الكامل، ج 6، ص 316.

أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدنانير والدراهم فتخرج رسوم تلك النقوش ظاهرة مستقيمة...»[1].

إذن المجتمع الإسلامي كان مجتمعاً ناشئاً يقوم بتطوير وبناء هيكل دولته مستعيناً في ذلك بالحضارات والأمم التي سبقته في التقدم والرقي، فكيف تشكل هذا المجتمع وتطور بعد أن دخل عدد من القوميات غير العربية في دين الله أفواجاً.

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 206.

الفصل الخامس عشر

الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية

تكوين المجتمع الإسلامي:

كان مولد المجتمع الإسلامي - مع مولد الدولة الإسلامية - بداية من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة، وجاء مولد ذلك المجتمع أولاً في منطقة شبه الجزيرة العربية وبعضاً من تخومها، والذي كان مزيجاً من التناقضات الخلقية، والعادات والتقاليد المتباينة.

وقد تميز الإسلام في معالجة تلك الظواهر الاجتماعية السيئة بالتدرج البناء فأقر ما هو صالح منها، وعدل ما يقبل التعديل، وحرم ما رآه فاسداً يتعارض وروح الإسلام ومبادئه ومثله وآدابه.

وقد اتصف المجتمع الجديد في إطاره العام في صدر الإسلام بالحرص الشديد على التمسك بتعاليم الدين منذ بعثة الرسول الكريم - حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين بالبساطة المتناهية التي هي أقرب لحياة الزهد والتقشف، والمساواة بين الناس جميعاً. تكاد تخفى فيه الفجوة بين الحاكم والمحكوم، وبين القوي والضعيف، والعربي والأعجمي والمقياس الوحيد لتفضيل مسلم على آخر هو مقياس التقوى والعمل الصالح بمعناها الكبير

الواسع. وقد عمل الرسول عقب الهجرة على وضع ضوابط ترسم العلاقة بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى ـ وبخاصة أهل الذمة من اليهود والنصارى ـ وذلك وفق أحكام الله وما جاء في الكتاب المبين.

المجتمع الإسلامي وحركة الفتوح:

لم يكن متوقعاً حدوث تغير سريع ومفاجىء في أوضاع المجتمع الإسلامي، لأن المسلمين كانوا قريبي عهد بالرسول صلى الله عليه وسلم وتعاليمه، وأن أصحاب السلطة وهم الخلفاء الراشدون كانوا من تلاميذ الرسول السائرين على هديه ونهجه. وبخاصة في عهد أبي بكر وعمر. وخلال فترة حكم الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ تروي بعض المصادر أن عدداً قليلاً من الصحابة اقتنوا الضياع والمال، ولكن تم ذلك ـ داخل إطار الدين، ولم يكن خرقاً لتعاليم الإسلام، لأنه مال حلال جاء عن طريق غنائم أحلها الله. ثم أنهم كانوا يؤدون ما عليهم من واجب الزكاة. ولم يكن لتلك الثروة أن تغير في سلوك أولئك النفر، وتبعاً لذلك فإن الثروة الكبيرة والمفاجئة لم تفلح في تلك المرحلة في تغير الملامح العامة الأساسية للمجتمع الإسلامي الوليد.

المجتمع الإسلامي في العصر الأموي:

دخل المجتمع الإسلامي مرحلة جديدة، فتغيرت أوضاعه بسرعة بعد عصر الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم إذ جاء خلف «ابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم»[1] ومنذ وقت مبكر من تاريخ الدولة الأموية، ظهرت نزعة قوية نحو الترف والإسراف البعيد عن روح الإسلام وبساطته الأولى ـ إذا استثنينا عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ) ـ ولم يلبث أن حلّ الغناء محل الشعر، ومجالس الشراب محل مجالس الأدب وإثر ذلك أخذ الناس يتحدثون عما يحدث في قصور الخلفاء من بني أمية وينتقدونها نقداً

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، وآخرين: دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 254.

مراً. من ذلك ما يذكره المسعودي من أن يزيد بن معاوية كان صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب... وغلب على أصحاب يزيد ما كان يفعله من الفسوق»[1].

أما سليمان بن عبد الملك فقد تفنن في زينته وملبسه. ومثل هذا يُقال عن يزيد بن عبد الملك بن مروان. أما هشام بن عبد الملك بن مروان فقد شغف بسباق الخيل «وأقام الحلبة واجتمع فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يُعرف ذلك في جاهلية أو إسلام».

وهكذا حتى كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان - في أواخر العهد الأموي - فوصفته المصادر بأنه «صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشراب والملاهي والعزف...»[2] هذا في حين وصفه الطبري بأنه «تمادى في الشراب ، وطلب الملذات، فأفرط...».

ولما كان هذا مسلك - أغلب الخلفاء من بني أمية - فإن العدوى قد انتقلت بوضوح في حياة المجتمع الإسلامي فكلفوا بالموسيقى والغناء وأسرفوا في ذلك إسرافاً ملحوظاً، فانفقوا بسخاء على المغنّين والعازفين وبخاصة المشهورين منهم، وشاع استعمال أدوات العزف وبخاصة الصنج، والطنبور والمزمار، وغيرها.

وقد امتد هذا التيار تدريجياً إلى كثير من أنحاء العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، فقد ذكر ابن عذارى المراكشي عن بعض الحكام المسلمين في المغرب والأندلس، بأنه «عهر الخلوات، صريع الشهوات، لهج بالفكاهات كثير الكذب والعدوان، شنيع الفجور والعصيان»[3].

---

(1) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص 296، ويقول إنه قد تتابعت من الوليد فعال أنكرها الناس عليه.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 333.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2، ص 300.

ومن ناحية أخرى فإن تغيراً محدوداً أصاب الحياة الاجتماعية في الحجاز، فعلينا أن نذكر دائماً أن الإسلام أتاح للإنسان الفرصة للتمتع، ولم يكن الإسلام يوماً متزمتاً، بشرط التزام الحلال والابتعاد عما حرم الله، واشترط أن لا يسرف المسلم في متعه بالحلال ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وقد سئل أحد شيوخ بني أمية - عقب زوال الملك عنهم - «ما كان سبب زوال ملككم؟» فقال: «إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كنا نعتقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من انصافنا، وتمنوا الراحة منا...».

ولا يشفع لخلفاء بني أمية القول بأن الدولة الإسلامية قد وصلت أقصى اتساعها في عهدهم شرقاً وغرباً. ذلك أن هذه الدفعة كانت دفعة الإسلام لا دفعة الحكام. فالإسلام هو الذي دفع المسلمين إلى الجهاد، وكان لا بد لحركة الجهاد التي بدأت منذ عهد الرسول الكريم أن لا تتوقف قبل أن تستنفد طاقتها، وتبلغ الدولة الإسلامية أقصى اتساعها مشرقاً ومغرباً.

المرأة في المجتمع الإسلامي:

حرر الإسلام المرأة مما كانت تعانيه - قبل الإسلام - من امتهان، وأعطاها حقوقها كاملة لمباشرة حياتها العامة والخاصة، وذلك في إطار من العفة والحياء يتفق وروح الإسلام وآدابه، وإذا كان القرآن الكريم قد نادى بقوامة الرجال على النساء فإنه لم يترك هذه القوامة مطلقة، وإنما حددها بدرجة واحدة بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[1]. والهدف من هذا التفضيل المحدد صلاح المجتمع، وصلاح الأسرة، والأخذ بعين الاعتبار طبيعة الرجل ومسؤولياته.

ومنذ عهد الرسول كان للمرأة دور هام في حركة الجهاد الإسلامي فقد شاركت في الحرب بتضميد جراح المرضى وحث الرجال على الجهاد، كما يلاحظ أن للنساء بيعة مثل بيعة الرجال فقد جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ

(1) سورة البقرة: الآية 228.

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وفي عهد الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - اختلطت النساء بالجماهير لسماع خطب الخلفاء. ونتيجة التطور الذي أصاب المجتمع الإسلامي في العصر الأموي، أخذت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق. ويرجع اتخاذ الحريم إلى عهد الوليد الثاني الذي أدخل كثيراً من تقاليد وعادات الروم، وأكثر من اتخاذ الخصيان في قصر الخلافة[2].

أما عن نصيب المرأة في الحياة العامة في المجتمع الإسلامي في مرحلة النضج والازدهار، فكان كبيراً يلفت الانتباه. ذلك أنه بالرغم من القيود الاجتماعية التي فرضتها التقاليد على المرأة، فإنها أسهمت بدور بارز يدل عليه ذلك العدد الضخم من تراجم النساء التي تحتويه تواريخ عدد من العواصم الإسلامية في العراق، والشام، ومصر، وبلاد المغرب، والأندلس. هذا فضلاً عما حفلت به كتب التراجم والطبقات من ذكر النساء الشهيرات اللاتي أسهمن في مختلف ألوان النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي والديني. وخلدن أسماءهن ضمن مشاهير العصور المختلفة.

ومما يدل على قيمة الدور الذي كانت تلعبه المرأة في المجتمع الإسلامي، وبخاصة نساء الحكام - من خلفاء وسلاطين وأمراء - تدخلهن في شؤون الحكم والمشاركة في توجيه ورسم سياسة الدولة.

- وحسبنا أن نشير على سبيل المثال لا الحصر - إلى عائشة أم المؤمنين، وعاتكة بنت الأطرش، وأم البنين زوجة الخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك. والخيزران زوج الخليفة المهدي وأم الهادي والرشيد، والسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد وأم الأمين.

---

(1) سورة الممتحنة: الآية 12.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 333.

وفي فترات لاحقة ظهر عدد من النساء في بلاد المغرب والأندلس كان لهن أثر كبير في الحياة السياسية والفكرية، أمثال صبح أم الخليفة هشام المؤيد بالله في الأندلس، وأم ملال أخت باديس بن المنصور بن بلكين الصنهاجي[1]، وكذلك زينب زوجة الأمير يوسف بن تاشفين. وغيرهن كثير.

ولم يقتصر دور المرأة في المجتمع الإسلامي، على التدخل في شؤون الدولة بل شاركت مشاركة فعالة في الحياتين العلمية والدينية. إذ يسجل التاريخ أسماء كثيرات ممن اشتغلن بعدد من العلوم كالنحو، ونظم الشعر، والفقه والحديث وأن أعدادهن أكبر مما يتصور، حتى إن الكثير منهن كنّ يتنتقلن بين القاهرة، ودمشق وبغداد - شأن فقهاء ذلك العصر - وكثيراً من المحدثين والفقهاء الكبار - كابن عساكر وابن حجر - لم يروا حرجاً في الاعتراف بأنهم سمعوا من فلانة وفلانة من المحدثات، وأن بعضهن أجزن لهم، فالحافظ ابن عساكر في دمشق يروى أنه سمع عن ملكة بنت داود، وأنها أجازت له جميع حديثها، وابن حجر في القاهرة يذكر أنه حصل على إجازتين الأولى من شمس بنت ناصر الدين محمد، والثانية من خديجة بنت العماد الصالحية[2].

وقد كانت النساء يقبلن على مجالس العلم والدين فحرصت كثيرات منهن على الذهاب إلى المساجد والجوامع حيث يجلسن في مكان منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية والوعظ والتعليم. ومن ذلك ما ذكره بعض أصحاب الطبقات والتراجم من أن المرأة في بعض مدن بلاد المغرب كانت حريصة على حضور مجالس العلم إذ يُروى أن أم ماطوس كانت تحضر مجالس العلم بالرغم من معارضة أخيها الذي كان يرقد أمام الباب لمنعها

(1) بشير التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أطروحة الدكتوراه، منشورات دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، وآخرين: دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 276.

فكانت تتركه حتى ينام) فتقوم تفتح الباب وتجاوزه وهو راقد فتمضي وتحضر مجلس الذكر (العلم) ثم ترجع وتجاوزه وتدخل وتغلق الباب كما كان[1]. وكانت هذه المرأة وأضرابها من نساء الأمة حريصات على تلقي العلم.

لقد أدى التطور المذهل للمجتمع الإسلامي بالمرأة إلى اقتناء الفاخر من الثياب فأسرفت نسبة منهن في لباس الديباج والحلى، وقد أفزع هذا الاتجاه الحكام فتدخلوا لمنعه، كما حدث في القاهرة في منتصف القرن الثامن الهجري، حيث كان المنادون يطوفون في الشوارع والطرقات محذرين النساء من الإسراف في لبس الملابس المبالغ فيها، سواء في الكيف أو الثمن. فإذا وجدت امرأة في شوارع المدينة خالفت التعليمات ضربوها.

على أن بعض النساء كان لهن بعض العذر في الخروج عن المألوف - بالرغم من أنهن كنّ من عامة الناس - لأن المدينة الإسلامية في تلك العصور عرفت المستحدثات - أو ما نسميه اليوم بالموضة - فأولعت نساء كل طبقة في المجتمع بمحاكاة نساء الطبقة التي تعلوها. وقد شهد المقريزي أكثر من مرة بأن ما فعلته عامة النساء في عصره في الملبس إنما كان في باب التشبه بما فعلته نساء السلاطين والأمراء.

المجتمع الإسلامي في العصر العباسي:

المتتبع لحياة المجتمع الإسلامي في العصر العباسي يجد اختلافاً كبيراً عما سبقه في صدر الإسلام، والدولة الأموية، ولعل ذلك يرجع إلى دخول الفرس واختلاطهم بالعرب وتقلدهم مناصب قيادية في الدولة العباسية كان لها تأثيرها على حياة المجتمع المسلم.

لقد عاش المجتمع الإسلامي حياة بذخ ورفاهية تمتع بها طبقة الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسي من وزراء وقواد، وكبار رجال الدولة، ومن اتصل بهم من الفنانين والشعراء والندماء والعلماء والمثقفين، أما الطبقة العامة

(1) مقرين بن محمد البغطوري: كتاب سيرة أهل نفوسة، مخطوط خاص، ورقة رقم 36.

في المجتمع العباسي فكأنما قُدر لها أن تكدح لتملأ حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم، أما هو فعليه أن يتحمل من أعباء الحياة ومشاقها ما يطاق وما لا يطاق. ومردُّ ذلك إلى طغيان الحكام وأصحاب السلطة الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف. وقد وصف أحد الأدباء العصر العباسي وأحوال المجتمع الإسلامي. بقوله: «. . .وكانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حدّ، وطبقات قتر عليها في الرزق، فهي تشقى إلى غير حد، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم»[1].

كانت خزائن المجتمع في العصر العباسي يأتيها الخراج بأموال طائلة حتى قيل إن المنصور خلّف حين وفاته أربعة عشر مليوناً من الدنانير، وستمائة مليون من الدراهم[2] وأن دخل بيت المال في عهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدنانير سنوياً[3].

كانت هذه الأموال الطائلة تنفق ـ في معظمها ـ على الخليفة وحاشيته من وزراء وقواد وولاة، وربما علماء وشعراء ومغنين. ونستدل على مدى الإنفاق لهذه الطبقات مما أورده بعض المؤرخين بأن الخليفة المنصور العباسي قد فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم (مليون درهم) في كل عام[4].

ويُقال أن غلة الخيزران زوجة المهدي كانت تبلغ سنوياً مائة وستون مليون من الدراهم[5]. وكانت إقطاعات محمد بن سليمان بن علي العباسي

---

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، مصر، دار المعارف، ط 8، 1966، ص 45 وما بعدها.

(2) المسعودي: مروج الذهب، ج 3، ص 232.

(3) ابن خلدون: المقدمة، ص 143.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 6، ص 327.

(5) المسعودي: مروج الذهب، ج 3، ص 257.

والي البصرة تُدر عليه كل يوم مائة ألف درهم[1]. وكان للفضل بن الربيع وزير الرشيد ثم الأمين قطيعة تُغلُ له سنوياً مليون درهم، ولعلنا لا نعجب إذا عرفنا أن عمرو بن مسعدة وزير المأمون خلَّف بعد وفاته ثمانين ألف ألف دينار ونقل ذلك إلى المأمون فلم يأخذه العجب. بل قال: هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا[2].

وقد كان الوزراء والقواد والولاة يغدقون على الشعراء والأطباء والعلماء والمغنيّن. وكتب الأدب بها تفاصيل كثيرة في هذا الموضوع يمكن الرجوع إليها.

وطبيعي أن يشيع هذا الجو الزاخر بالترف التأنق في الملبس والثياب فقد عم حينئذ في بغداد لبس الأزياء الفارسية، وكانت كل طائفة من طوائف الموظفين يلبسون زياً خاصاً بها يميزها عن غيرها من الطوائف الأخرى. وكان المنصور أول من دفع إلى ذلك إذ رسم للوزراء لبس الدُّرَّاعات والطيلسانات والشاشيات، وأمر أفراد حاشيته بلبس القلانس الطوال.

ولا ريب فإن حياة البذخ التي عاشها علية القوم من الخلفاء والوزراء والقواد وأصحاب السيف والقلم كانت على حساب العامة المحرومة التي كانت تحيا حياة بؤس تقوم على شظف العيش. لينعم الخلفاء وحاشيتهم التي بلغت نحو ثلاثين ألفاً لعهد المأمون[3]. وطبيعي أن يعم الترف والإسراف من جهة ويعم الشقاء والبؤس من جهة أخرى. فالمجتمع كان يعيش في الضنك والضيق لا الرقيق منه فحسب الذي كان يعمل في القصور والضياع، بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار، كأنهم كانوا جميعاً أرقاء في هذا النظام الذي كفلت فيه أسباب النعيم والبذخ لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة.

---

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، ص 46.

(2) أبو المحاسن بن تغري بردى: النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج 4، ص 220.

(3) ابن خلدون: المقدمة، ص 143.

ولعل بذخ الحكام ومن يدور في فلكهم كان سبباً حقيقياً لكثرة الثورات على العباسيين خاصة في بلاد فارس، كما أنه كان سبباً في تعلق الناس بالمهدي المنتظر الذي سيملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً، مما هيأ لكثرة الجمعيات السرية واعتناق الناس لعقيدة التشيع على اختلاف فرقها. غير أن هذه المسألة لم توجه توجيهاً صحيحاً على أساس أنها مشكلة اجتماعية يتم فيها استنزاف الشعب وثروته لمصلحة طبقة تعيش معيشة باذخة مسرفة في البذخ. بل وجهت توجيهاً خاطئاً على شكل دعوات مارقة كدعوة الخرمية، والمانوية، والمزدكية حتى الدعوة الشيعية أعلى أصحابها المقاصد الدينية على مقاصد العدالة الاجتماعية. وبذلك أخفقت تلك الثورات جميعاً، لأنها لم تعبّر عن شعارات المجتمع الإسلامي الحقيقية، ومضى الخلفاء العباسيون في ترفهم وبذخهم.

وقد هيأ هذا الترف لظهور طبقة وسط من التجار والصناع وبخاصة في بغداد ومدن العراق مهمتها القيام بمطالب الترف وأدواته. أما التجار فقد كانت سفنهم وقوافلهم غادية رائحة في البحر والبر تجلب نفائس المقتنيات من ملابس وأثاث وغيرها من مختلف أنحاء العالم. وأما الصناع فقد أبدوا مهارة فائقة في صناعة التحف الثمينة. وكان مركزهم جميعاً في الأسواق التي تتجمع في شوارع عرفت بذلك. أما رؤوس أموال التجار فكانت تختلف كثرة وقلة، وسعة وضيقاً. ويُقال أن ربح بعض التجار بلغ في صفقة واحدة مائة ألف دينار[1]. وكان أكثرهم ثراءً البزّازون والعطّارون وتجار التحف والهدايا النفيسة.

ويتضح البذخ في حياة المجتمع العباسي بين أفراد طبقته المترفة في المطعم والمشرب، فقد طعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة وصحاف الفخار الصيني المزخرف، وفي الأواني الزجاجية الفاخرة والمنقوشة والمحفورة. وتفنن لهم الطهاة فيما يعدونه من مآكل أطلقوا عليها أسماء

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، ص 52.

مختلفة مثل خبّاز، وشوّاء، وطبّاخ وخبّاص وهو الذي يصنع الحلوى، والشرابي وهو صانع الشراب وألوانه.

وفي كتاب البخلاء للجاحظ حشد كبير لأنواع الأطعمة وهي في معظمها فارسية الأصل مثل السكباج وهو لحم يطبخ بخل مع شيء من الزعفران لتطيب رائحته. والطبَّاهج وهو طعام من لحم وبيض وبصل، والشَّبارقات وهي شرائح مشوية من اللحم، والفانيد وهو حلوى من الدقيق والسكر والسمن، والخشكنان وهو كعك يُحشى باللوز والسكر، والفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن، ومنها الجُلّاب وهو شراب من ماء الورد. وكانوا يتفننون تفنناً واسعاً في إضافة الأفاويه إلى الأطعمة وصنع المشهيات والمخللات الحرّيفة وصنوف النُقْل من مثل مملوح البندق والجوز واللوز والفستق، وتكثر عندهم أسماء الفواكه كالتفاح والموز والكمثري والأسفرجل والجوز واللوز والرمان والإجّاص، وكان البطيخ لديهم كثيراً حتى نسبوا إليه سوق الفاكهة، فسموها سوق البطيخ ودار البطيخ.

ومما يدل على أفانين الطهاة وتعدد صنوف الأكل على موائد الخلفاء ما يروى من أن مائدة المأمون قد ضمت ذات يوم ثلاثمائة لون. وقد أخذت الأصمعي الدهشة لكثرة ما رآه من أصناف الأطعمة على مائدة الفضل بن يحيى البرمكي، وما غسلوا به أيديهم بعد ذلك من أنواع الطيب والعنبر والغالية، ويُقال إن المأمون كان ينفق على طعامه يومياً ستة آلاف دينار، بينما كان ينفق وزيره ابن أبي خالد على طعامه يومياً ألف درهم، وهو نفس المبلغ الذي كان ينفقه إبراهيم الموصلي يومياً على طعامه وطيبه»[1]. وإكمالاً لهذا الترف في المآكل فإننا نراهم يتواضعون في مجلس الأكل، فمن ذلك أن يضم الآكل شفتيه أثناء المضغ، وأن لا يستأثر لنفسه بالشهي من الطعام وأن لا يتناول إلاّ ما بين يديه وأن لا ينظر إلى ما بين يدي غيره وأن لا يطلب ما عسى ألا يكون موجوداً.

(1) أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، مصر، دار الكتب. 1960، ج 5، ص 164.

وعلى نحو ما كان للمائدة آدابها كان لمجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم آدابها والمعروفة لديهم بآداب المسامرة[1]. وكان لا بد للنديم أن يتحلى بها ليكون خفيفاً على قلب منادمه، وكثير من هؤلاء الندماء استطاع أن يعتلي منصب الوزارة بما كان يحسنه من البسط إلى الخليفة في الحديث في ساعات صفوه وغضبه، ومن لم يعتل منهم منصب الوزارة أغدق عليه الخلفاء والوزراء الصلات السنية، لذلك لا تعجب إذا أصبح الحزق بالمنادمة وما يتطلبه من كياسة أملاً لكثير من العلماء والأدباء ومن اللغويين والفقهاء، وكل من يريد الحُظوة عند خليفة أو وزير أو والٍ. وقد برز في هذا الجانب عدداً من العلماء كالأصمعي، وأبي يوسف الذي ألف كتاب الخراج ـ منادمي الرشيد، وثمامة بن أشرس نديم المأمون، وكان النديم يورد في أحاديثه أخبار العامة ونوادرهم، وبعض الحكايات القصيرة، وبعض الطُرف والملح الأدبية. وكان بين هؤلاء الندماء مضحكون لا يزالون يوردون فكاهات مضحكة. ومن أشهرهم الشاعر أبو دلامة مضحك السفاح والمنصور والمهدي، وله فكاهات كثيرة تدور في كتب الأدب، ومنهم ابن أبي مريم مضحك الرشيد، وكان محدثاً فكهاً، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته.

أنواع التسلية في المجتمع:

وكانت هناك أدوات للترويح ولعب كثيرة، من ذلك سباق الخيل، وسباق الحمام الزاجل، ولعبة الصولجان وهو كرة تضرب من فوق ظهر الحصان، وكذلك لعبة الشطرنج الذي اشتهر بها شخص عُرف بأبي حفص الشطرنجي، ولعبة النرد (الطاولة) ويُقال إن واضعه أراد به تمثيل الحياة، فرقعته تقابل الأرض المبسوطة لسكانها، ومنازله الأربع تقابل الطبائع الأربع وخطوطها وهي أربعة وعشرون تقابل ساعات الليل والنهار وبيادقه (حجارته) الثلاثون تقابل عدد أيام الشهر واختلاف ألوانها بين البياض والسواد تقابل

(1) المسعودي: مروج الذهب، ج 3، ص 195.

اختلاف الليل والنهار وفصّاه (الزهر) يقابلان القضاء. ويظهر أنهم عرفوا لعبة خيال الظل، فقد هدد دعبل ابناً لأحد طبّاخي المأمون بأنه سيهجوه، فقال له: والله إن فعلت لأحرجن أمك في الخيال[1].

وفي المقابل نجد للعامة ملاهيهم وفي مقدمتها الفرجة على القرّادين والحوّائين، وكانوا يتجمعون حوّل قُصّاص يطرفونهم بحكايات خيالية.

وقد تعددت وسائل التسلية للترويح عن النفس، ومن وسائلها الخروج إلى المنتزهات مثل الغوطة بالنسبة لدمشق، وشاطىء النيل والبرك بالنسبة لمصر، وأشار ابن بطوطة إلى جزيرة الروضة وقال بأنها «مكان النزهة والتفرج»[2].

ولم يكن الإسلام يحبذ التسلية التي تتسم بالعنف مثل مصارعة الثيران، التي كانت عند القوط في أسبانيا ولا تزال. أو مصارعة الرجال التي كانت عند الرومان (المصارعة الرومانية).

ولذا كان من أهم مظاهر التسلية عند المسلمين سماع الشعر والمناظرات والقصص، ومشاهدة رقص الجواري والغناء، فكان الخليفة أو الأمير أو الوالي يقضي جزءاً من الليل يستمع إلى الشعراء والأدباء والقصاص وغيرهم، وعندما يتقدم الليل تحضر القيان، وكل ما هو في صنعة الغناء والرقص. وقد بدأت هذه المسامرات عند المسلمين من عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية الذي يُشار إليه بأنه أول من أدخل الملاهي[3].

أما عن أهل الغناء والطرب فإن أعدادهم كثيرة، وقد صار لهم نفوذ في المجتمع، عند الحكام والمحكومين سواء. وقد وصفت إحدى المغنيات

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، ص 54.

(2) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة بولاق، القاهرة، 1934. ج 1، ص 26.

(3) أبي الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 16، ص 70.

في القرن التاسع الهجري بأنها كانت ذات حظوة كبيرة عند أهل الدولة. ولا أدل على ذلك من أن مؤرخاً شهيراً مثل ابن الأثير يحرص أن يذكر في حولياته في ختام كل سنة مشاهير من ماتوا في تلك السنة على الصعيد الإسلامي بأكمله إذ به في ختام حوادث سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة للهجرة ينتقي أربعاً من مشاهير من ماتوا في تلك السنة من جملتهم مغنية ذائعة الصيت، فيقول ما نصه: «وفيها ـ في ذي القعدة ـ ماتت بدعة المغنية المشهورة، المعروفة ببدعة الحمد ونية، عن اثنين وتسعين سنة»[1].

أما الآلات الموسيقية التي استخدمت عصرئذٍ فكانت عديدة ومتنوعة منها الطبل، والزمور، والكمنجة، والقانون، والعود والرباب والطنبورة والساجات والرق، والنقارات وغيرها.

ومن وسائل التسلية التي سادت في كثير من أنحاء العالم الإسلامي أواخر العصور الوسطى ما يُعرف بخيال الظل أو ظل الخيال أو طيف الخيال أو مسرح الدمى ومنشأ هذه اللعبة غير واضحٍ، وربما يكون أصلها هندياً، وإن كان أول من نشرها هم الفاطميون[2].

ويبدو أن خيال الظل غدا في وقت من الأوقات تسلية لجميع طبقات المجتمع، فكان صلاح الدين الأيوبي شغوفاً ـ وقت فراغه وراحته بحضور تمثيليات خيال الظل ومعه وزيره القاضي الفاضل ـ وحذا حذوه من جاء بعده من سلاطين المماليك واستمرت هذه التسلية حتى بعد فتح العثمانيين لمصر.

وتلهى الناس كذلك بعدد من أنواع الملاهي التي اتخذت طابع المراهنة أو المقامرة، مثل تطيير الحمام، والمناطحة بالكباش، والمناقرة بالديوك، فيراهن الشخص على هذا الطير أو ذاك أو هذا الكبش أو الديك فإذا فاز

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج 6، ص 345.

(2) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الرابعة 1978، ص 144 ـ 145.

كسب الرهان، ويدخل في هذا الرهان أيضاً المعالجة أي حمل الأثقال وغيرها.

وكانت المراهنة أساس معظم الألعاب عدا ألعاب البهلوانات والحواة التي تسلى بها الناس وبخاصة في المدن. فكان هناك الدبابة الذين يلعبون بالدب. والقرادة الذين يلعبون بالقردة.

الاحتفالات:

تعودت المجتمعات الإسلامية أن تقيم احتفالات في أيام معلومات منها الدينية ومنها الوطنية أو القومية التي يحتفل بها المسلمون وغير المسلمين ومنها العائلية.

أما الاحتفالات الدينية فمنها الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والاحتفال بإحياء شهر رمضان الكريم، والاحتفال بعيدي الفطر والأضحى، وخروج موكب الحج. وكان الناس خلال هذه الاحتفالات يقيمون الزينات ويقدمون الولائم ويتصدقون بأنواع الصدقات. أما الخلفاء والأمراء، وولاة الأقاليم فكانوا يبالغون في هذه المناسبات في التوسعة مع العلماء وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين. هذا في حين يستعد الأطفال والكبار على حد سواء بلبس الملابس الجديدة في العيد. ويهرع الكثير منهم لزيارة الأقارب والذهاب إلى المنتزهات كما كانت هناك مواكب حافلة مثل موكب الحج و العيدين، وفيها كان يخرج الخليفة أو السلطان أو الوالي في حفل عظيم في أبهى صورة وسط تهليل الناس وزغردة النساء ودعاء الرجال[1].

وهناك بعض الاحتفالات التي ينفرد بها إقليم من أقاليم العالم الإسلامي دون سائر الأقاليم كأن يتم تولية والي جديد، أو عودة الجيش ظافراً من الحرب أو صد العدوان أو شفاء أمير محبوب لدى شعبه فكانت الدكاكين تزين بالشموع والقناديل ليلاً وتقام الزينة بمختلف أنواعها نهاراً،

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 4، ص 7.

ويشترك المغنون بدق الدفوف فيختلط صوتها بزغاريد النساء ودعاء الرجال. وقد وصف لنا ذلك الرحالة المغربي ابن بطوطة عند مروره بمصر ورأى شعبها يحتفل بمناسبة شفاء سلطان المماليك الناصر محمد من كسر أصاب يده[1].

الحياة في العائلة الإسلامية

لما كانت الأسرة نواة المجتمع لذا كان دورها عظيماً في المجتمع الإسلامي الذي يتكون من مجموع الأسر، وفي ظل الإسلام وتعاليمه ومثله وروحه، وُجد قدر كبير من التشابه في الحياة العائلية والمنزلية بين جميع أنحاء العالم الإسلامي، وانعكس ذلك على بناء وهندسة المساكن بحيث كان جميعها مصححاً على عدم تمكين أي فرد من الخارج أن يرى ما بداخل المنزل، وفي ذات الوقت توفير قدر من الحرية للمتساكنين داخل البيت عن طريق الحجرات الداخلية وطريقة تصميمها.

أما حياة الأسرة الإسلامية فإن طابعها ظل سائداً من ناحية مركز الأب ونفوذه على زوجته وأبنائه واحترام الزوجة لزوجها والأبناء لوالدهم. واعتاد الرجل أن يقضي معظم وقته خارج المنزل في عمله حتى المساء وعندها يرجع إلى منزله ليلتقي بزوجته وأبنائه ويتم نهاره في بيته.

أما الزوجة فتقوم بشؤون منزلها ورعاية زوجها وأطفالها... وقد عني الآباء والأمهات بتربية الأطفال. فإذا ولد صبي في بيت يسر تم تسليمه إلى إحدى المرضعات والمربيات حتى يشب ويكبر، عندها يقوم بتأديبه وتعليمه أحد مؤدبي الأطفال، وتمتع هذا المؤدب بإجلال واحترام الطفل بدرجة قد تفوق احترام والديه حتى اعتادت بعض الأمهات إلى الذهاب لشكوى أبنائهن إلى المؤدب إذا أخلوا بالأدب في المنزل. وأحياناً يقوم الوالدان بتعليم أبنائهما بالمنزل، فيحفظون القرآن الكريم، ويتعلمون الخط والحساب

(1) ابن بطوطة: تحفة النظار في عجائب الأسفار وعجائب الأنصار، ج 1، ص 26.

والفنون والآداب دون أن يحتاجا إلى معلم.

وقد التزمت الأسرة الإسلامية بالأدب في الأكل الذي كان يحضر في البيت أو يؤتى به من خارج البيت. أما تناول الطعام فله آدابه الإسلامية منها التسمية في أول الأكل والحمد والشكر لله في آخره، ومنها الاتكاء عند الجلوس للأكل على الفخذ الأيسر، ويكون الأكل بثلاثة أصابع مع مراعاة تصغير اللقمة وتطويل المضغة، وعدم الكلام أثناء الأكل.

وإذا قام صاحب البيت بدعوة بعض الناس إلى طعامه فعليه أن يراعي القواعد في ذلك منها أنه يجب عليه أن يبدأ الأكل إيناساً للضيوف ويعزم عليهم. ولا يسرف في الأكل حتى يشبع الضيوف ـ أو قاربوا ـ عندها يمكنه أن يأكل بانشراح كذلك يجب أن يقدم لهم قبل الأكل وبعده ما يغسلون به أيديهم، ويحسن أن يتولى ذلك بنفسه، على أن يبدأ بالغسيل أفضلهم. ويكون صاحب الدار آخر من يغسل يديه.

ومن الخصائص البارزة التي اتصفت بها حياة الأسرة الإسلامية كثرة الاحتفالات العائلية، والتفاخر في إحيائها وأول تلك الاحتفالات الأفراح العائلية بالزواج، وتفيض كثير من المصادر المعاصرة بأخبار تلك الأفراح وبخاصة أفراح الخلفاء والسلاطين والأمراء، وما كانت تنطق به تلك الأفراح من مظاهر الترف والإسراف، أما على مستوى عامة الناس فكانت تتم عن طريق الخاطبة التي تدخل البيوت بدعوى بيع البخور والطيب، وغير ذلك من لوازم النساء وبذلك تتاح لها فرصة الإطّلاع على أسرار الحريم، وتأتي للعريس بأخبار العروس التي تتفق مع رغباته وميوله، والغالب أن الفتاة لم يكن لها حق اختيار شريك حياتها، بل ظل الرأي للوالد وربما شاركت الأم في ذلك. فإذا انتهت مرحلة الخطوبة جاء عقد القران، فيكتب صداق يتراوح في الطول والقصر حسب مكانة صاحب العقد. وعادة ما كانت تُعقد الأنكحة بالمساجد طلباً للبركة، فيجتمعون ومعهم المباخر المفضضة التي يحرقون فيها البخور، وبعد كتابة العقد ينصرفون في حفل كبير.

وبعد ذلك تأتي المرحلة الثالثة التي تتمثل في نقل جهاز العروس الذي كان يتناسب ومكانة الزوج المالية والاجتماعية، ففي أفراح الخلفاء والسلاطين والأمراء تحمل الجهاز أحياناً قوافل من الدواب والجمال ومئات الحمالين. وقد أفاضت المصادر فيما فعله الخليفة المهدي عند زواج ابنه هارون الرشيد من السيدة زبيدة وما أنفقه المأمون على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل. وما قدمه خمارويه حاكم مصر عند زواج ابنته قطر الندى من الخليفة العباسي المعتضد. والذي قيل فيه إنه «حمل معها ما لم ير مثله ولا سمع به إلا في وقته...»[1].

أما إذا كان أصحاب الفرح من العامة، فإنه يحتفل بنقل الجهاز في حفل يشترك فيه الأقارب والأصدقاء.

وفي ليلة الزفاف تقام وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء تعرف بوليمة العرس، وهما في الواقع وليمتان إحداهما للنساء وتقام في بيت العروس وأخرى للرجال وتقام في بيت العريس. وفي المساء يخرج العريس قاصداً بيت العروس في حفل بهيج يتم خلاله ضرب الدفوف وزغاريد النساء، وتوقد الشموع.

ومن الاحتفالات الأسرية ذات الأهمية الكبيرة في عصور الإسلام المختلفة تلك الحفلات الخاصة بالولادة، فإذا وضعت أم مولودها، أقبلت عليها النساء يزغردن ويرفعن أصواتهن بذلك مع ضرب الدفوف والرقص واللعب واللهو، وفي ذات الوقت تدوي المزامير والأبواق على أبواب البيت لتعمل ما في وسعها من الهرج والشهرة[2] ويتضاعف الفرح إذا كان المولود ذكراً ففي هذه الحالة يجب على الوالد أن يقيم «وليمة ذكر» يدعو إليها الأهل والأصدقاء، ويفرط في عمل ألوان الطعام الفاخر. هذا عدا مظاهر التكريم

---

(1) المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج 2، ص 112.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 274.

التي تضاعف لأم المولود في هذه الحالة. وتستمر هذه الأفراح عادة مدة سبعة أيام لاستقبال وفود المهنئين. وعندما تحل الليلة السابعة ـ وهي ليلة السبوع يقام احتفال كبير، فتلبس أم المولود الثياب الجديدة وسط مظاهر الزينة والرقص والفرح.

كذلك يُحتفل بختان الطفل فيدعى إليه الأهل والأصدقاء، وعادة ما كان المدعوّون يقدمون النقود لأهل الطفل بطريقة تختلف من أقليم لآخر من أقاليم العالم الإسلامي فإذا كان الختان خاصاً بأحد أبناء الحاكم، نادى المنادي بذلك في الطرقات، حتى يحضر كل من يشاء أن يختن ابنه مجاناً بعد ابن الحاكم، وهذه الظاهرة كانت في المشرق الإسلامي ومغربه على حدٍ سواء فقد ذكر أن المعز بن باديس الصنهاجي ختن مع ابنه عدداً من أبناء الضعفاء وأعطاهم الكساوي والنفقة[1].

أما في موسم الحج، فإن المدن الإسلامية تتحول إلى ساحات للأفراح عند خروج الحجاج، وبعد عودتهم تقام الليالي الساهرة وتضرب الطبول وتنفخ الأبواق على بابه وفي القيروان بتونس كان يُقام احتفال بهيج بمناسبة رجوع الحجيج القادمين من البقاع المقدسة مكللين بالتيجان والرياحين، وقد كانت إبلهم المزينة بأبدع زينة ترش بالعطور[2].

طبقات المجتمع العربي الإسلامي:

ضمت الدولة الإسلامية شعوباً مختلفة الأديان والأجناس والألوان، كانوا يعيشون تحت راية الدولة الإسلامية وينعمون بحقوق المواطنة والحماية، ويقومون بدور مهم في المجتمع الإسلامي ومن هذه الطبقات:

---

(1) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق حسين نصار، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1983، ج 24، ص204.

(2) هادي روجي آدريس: الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1992، ج 2، ص 328.

1) العرب المسلمون: ويُمثل هؤلاء الطبقة الحاكمة في المجتمع الإسلامي بالرغم من قلة عددهم مقارنة بغيرهم من رعايا الخلافة الإسلامية، وكانوا الطبقة الممتازة في الحياة الاجتماعية، والإدارية، والسياسية، والاقتصادية، وكان منهم الشعراء والقواد والأمراء والولاة، وكان جميعهم يتقاضون أعطيات من بيت المال في صدر الإسلام. وقد كان العرب عصبيتين ـ أهل الشمال وأهل الجنوب. وكان لكلا العصبيتين تأثيرها في الحياة السياسية وبخاصة في عصر الدولة الأموية التي اعتمدت على العرب اعتماداً كلياً.

2) الموالي: (أي المسلمون من غير العرب):

لكلمة مولى في اللغة العديد من المعاني فهي تعنى الرب والمالك، وتعني ابن العم، والعصبة كلها وتطلق على الحليف والناصر والجار والشريك والصاحب وعلى السيد وعلى من يُعتق من العبيد على أن الشرع اختص الكلمة بمعنيين فقط هما مولى العتاقة ومولى الموالاة، على ما كان معروفاً في العصر الجاهلي ثم صارت الكلمة بعد الفتوح الإسلامية، ذات معنى اصطلاحي خاص يعني: كل من أسلم من غير العرب. وقد سمى العرب هؤلاء بأسماء أخرى منها حمراء، أعاجم، وعلوج.

وقد سوى الإسلام بين المسلمين جميعاً بقطع النظر عما كانوا عليه قبل الإسلام ومن ثم فإن الرجل إذا دخل الإسلام أصبح له من الحقوق والامتيازات ما يتمتع به العرب المسلمون.

وقد أصبح الموالي منذ عصر الدولة الأموية من شعوب متعددة أشهرها، السند والترك والفرس والروم والبربر والفرنجة وغيرهم.

وقد تميز وضع الموالي بما يلي:

أ ـ الولاء: وذلك أن غير العربي إذا دخل الإسلام سعى إلى أن يدخل في ولاء قبيلة عربية وأسرة عربية أو أن ينتمي إلى رجل عربي بالولاء والاسم مثل أبي تمام الطائي (وكان رومياً) وأبي نواس الحكمي (وكان فارسياً).

ومسلم بن الوليد الأنصاري وغيرهم.

ب ـ اختص العرب أنفسهم بالشعر والقيادة، واختص الموالي بالصناعة لمهارتهم فيها ولانصراف العرب عنها. وكذلك اشتغلوا بالتجارة[1].

جـ ـ اشتغل الموالي بالعلم لأنهم كانوا أهل ثقافة علمية منذ ما قبل الإسلام.

3 ـ المولدون: وهؤلاء كانوا من آباء عرب وأمهات غير عربيات ـ في الغالب ـ وقلَّ من كانت أمه عربية وأبوه غير عربي لأن العرب كانوا حتى نهاية الدولة الأموية يحرصون على الاستعلاء العصبي، فكانوا لا يزوجون بناتهم لغير العرب.

وبانتشار طبقة المولدين برزت ظاهرة الخال غير العربي في مقابل العم العربي وبدأ الترابط العصبي يضعف مما زاد في قوة الشعوبية.

4 ـ أهل الذِّمة:

في الإسلام عدة أسماء تطلق على الجماعات غير المسلمة: فالكافرون اسم أطلق على منكري الرسالة الإسلامية، والمشركون هم من لا يؤمن بوحدانية الله، أما أهل الكتاب فهم أصحاب الكتب المقدسة من النصارى واليهود، ثم ألحق بهم في زمن عمر بن الخطاب المجوس (أتباع الزرادشتية) عبدة النار وكذلك الصابئة زمن المأمون وهم (عبدة النجوم) أما الاسم الذي عم استعماله بصورة خاصة على غير المسلمين فقد شمل النصارى، واليهود، فهم أهل ذمة يعيشون في كنف المسلمين.

وكان أهل الذمة كلهم يعيشون في الدولة الإسلامية متمتعين بحرية الاعتقاد والعمل، وكانوا معفين من الجهاد يدافع المسلمون عنهم وعن أموالهم مقابل جزية يدفعونها عن أنفسهم، وخراجٍ يدفعونه عن أرضهم، غير أنهم لا يتمتعون بأعطيات بيت المال كالمسلمين. ثم إنهم لا يتولون مناصب

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 320.

هامة في الدولة الإسلامية كالإمارة والقيادة مثلاً. ومع ذلك فإنهم كانوا يعملون في بعض مصالح الدولة كالكتابة مثلا[1].

أهل الذمة في المجتمع الإسلامي:

بالرغم من صفة التسامح التي هيّأها الشرع الحنيف في معاملة المسلمين بغيرهم فإن علاقة الذميين بالمجتمع الإسلامي أصابها بعض الخلل في بعض فترات التاريخ وفي بقاع مختلفة من بقاع العالم الإسلامي لأنها كانت تتأثر في بعض الأحيان ـ بالأحوال الداخلية وبأهواء بعض الحكام متأثرة بالأحداث الخارجية التي تترتب عليها بعض القيود كما حدث في عهد الرشيد والمتوكل والحاكم بأمر الله الفاطمي بمصر، ولم يكثر ذلك في عهد الانحطاط بعد الحروب الصليبية. وبالرغم من ذلك فإن الصفة الغالبة هي حسن المعاملة، وقد تمتع بها الذميون في صدر الإسلام وبخاصة النصارى من العرب كبني تغلب فكان الأخطل الشاعر يدخل على عبد الملك بن مروان وفي عنقه صليب ذهبي ولحيته تقطر خمراً فلا يمنع من ذلك:

وبالرغم مما يذكر من أن المسلمين منعوا أهل الذمة من النصارى من بناء الكنائس، فإن استقراء الحوادث التاريخية يفيد أن الكنائس ظلت تبنى، وظل لأصحابها من النصارى حق الاحتفاظ بما كان منها قائماً زمن الفتح وحق ترميمها. وليس هناك إشارة إلى قرار بمنع بناء الكنائس في العهد الإسلامي حتى أواسط القرن الثاني الهجري، وأول من تشدد في ذلك الخليفة العباسي (المتوكل) (أواسط القرن الثالث الهجري)، ولم ينتقل الأمر إلى العامة إلاّ في فترات الهياج الشعبي فقط.

ويذكر أن عهود الفتح تمنع الذميين من إظهار شعائرهم الدينية في أمصار المسلمين عامة نتيجة تشدد بعض الأئمة والفقهاء غير أنه باستقراء أحداث التاريخ ثبت أن تلك الادعاءات لا أساس لها من الصحة وبخاصة في

(1) عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية 1981، ص 175.

البلاد التي يكثر فيها أهل الذمة فكانت النواقيس تقرع والمواكب الدينية تظهر بكامل زينتها من رايات وصلبان ومجامر دون اعتراض إلا من تدخل بعض الأمراء والولاة في ذلك حفاظاً على الأمن العام. وأن تكرار أعمال المنع من وقت لآخر دليل على أن العادة جرت بالتسامح في ذلك. وفي كتب التاريخ الإسلامي أوصاف كثيرة لاحتفالات الأعياد النصرانية خاصة في مصر والعراق وفارس، وكانت هذه الأعياد ـ أحياناً ـ فرصة لهو لجميع الناس.

وقد حظي الذميون تحت راية الإسلام بفرص العمل المختلفة فكانوا يعملون بالزراعة والتجارة والصناعة، وإن معظم الصيارفة والجهابذة في الشام والعراق كانوا من اليهود كما احتكر اليهود تجارة الرقيق والخصيان بين أوروبا والحبشة، وتجارة اللؤلؤ في الخليج العربي.

وتحت سماحة الإسلام احترف النصارى الطب، فكان أغلب أطباء الخلفاء منهم، وكذلك معظم التراجمة في العصر العباسي الأول. كما كان منهم الأدباء، والشعراء، والعلماء.

5 ـ الرقيق: الرّق في اللغة الضعف، وفي اصطلاح الفقهاء «عجز حكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر» والرقيق كلمة عامة تطلق على من فقد حريته من الناس وأصبح ملكاً لغيره، ولكنهم كانوا يدعون المسترق الأبيض مملوكاً والأسود عبداً، والنساء البيض جواري، والسود إماء، وهناك كذلك طائفة الخصيان.

وقد جاء الإسلام بإلغاء الرق. فالمسلم لا يُسترق. وإذا دخل الرقيق في الإسلام أعتق حالاً. ومع ذلك فإن القضاء على الاسترقاق بسرعة لم يكن أمراً سهلاً فقد بقي بعض الأرقاء الذين دخلوا الإسلام عبيداً حتى تم الاتفاق بينهم وبين أسيادهم (على بذل معين لعتقهم).

ومن القواعد التي كانت في صدر الإسلام فيما يتعلق بالرق:

1 ـ إذا تزوج عبد حرة فإن أولاده يكونون أحراراً حتماً.

2 ـ إذا تزوج حر جارية رقيقة فإن أولاده منها يمكن أن يكونوا أحراراً

في الأغلب أو أرقاء له.

- إذا ولدت الجارية الرقيقة لسيدها غلاماً ذكراً أصبحت (أم ولد) لا تباع، ولا توهب، ثم إذا مات زوجها عنها أصبحت حرة.

وقد جاء الرقيق إلى بلاد الدولة الإسلامية عن طريقين:

1 - الأسر.

2 - الشراء عن طريق الأسواق المنتشرة في جميع أنحاء العالم.

وقد يبلغ ثمن العبد إذا كان صقلبياً (أوروبياً أبيض من سكان روسيا أو جرمانياً أو الأندلس) ألف دينار. أما التركي فكان يساوي نحو ستمائة. وأقل من ذلك العبد الأفريقي الأسود.

والمجتمع الإسلامي كأي مجتمع في العصر الوسيط كان مجتمعاً طبقياً فمن الناحية الاقتصادية ظهرت ملامحه واضحة خلال العصر العباسي، الذي تظهر فيه عقلية العصر في تصور طبقاته، فهو ينقسم إلى أربع طبقات:

1 - ملوك قدمهم الاستحقاق.

2 - وزراء فضلتهم الفطنة والرأي.

3 - علية أنهضهم اليسار.

4 - أوساط ألحقهم بهم التأدب.

أما الناس من بعدهم فزبد جفاء... لكع ولكاع.

غير أن الإسلام لا يُقر هذا التقسيم، لأنه ينادي بالمساواة وتقريب الفوارق بين الطبقات، ولذا يمكن اعتماد التقسيم التالي:

1 - **طبقة الحكام**: وهم الخليفة والوزراء والأمراء والولاة في الأقاليم... أي طبقة رجال الحكم في الدولة الإسلامية، وهم في الغالب يكونون من عصبية واحدة. إذ إن ابن خلدون يرى أنه لا رياسة بدون عصبية[1].

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 121.

ـ وإذا كان استقرار الحكم يلغي الاعتماد على العصبية. وهؤلاء جميعاً كانوا من العرب في بادىء الأمر. ثم أصبحوا من أجناس مختلفة كالفرس، والترك، وحتى الرقيق الذي كان الحكام يشترونه ويربونه ليعاونهم في الحكم.

وقد كان بنو هاشم (آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام) ضمن هذه الطبقة من عهد مبكر، وقد تميزوا باسم الأشراف، وقد تم إحصاؤهم أيام المأمون العباسي (198 ـ 218 هـ/ 813 ـ 832م) فكانوا ثلاثين ألفاً بين ذكور وإناث لذلك أصبحوا يكونون نقابة عُرفت بنقابة الطالبيين أو الأشراف لهم ديوان يثبت أنسابهم، وشيخ له حق القضاء بينهم، والتدخل في زواجهم، ولم يكن لهذه الطبقة ميزات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنها ظهرت بعد ذلك.

ثانياً: طبقة الفقهاء: وهم في الإسلام قوام المساجد والقراء والفقهاء والخطباء، والقضاة. ومع ذلك لم يكن لهذه الطبقة مظهر كهنوتي، ذلك لأن الإسلام لم ينشىء طبقة رجال دين، كما هو الحال في الديانات الأخرى، ولكن ظهرت هذه الطبقة لحاجة المسلمين القيام بواجبات دينهم ولكن الحكام المسلمين ـ لغايات سياسية ـ جعلوا لرجال هذه الطبقة سلطة كبيرة لم يخولها لهم الإسلام.

ثالثاً: طبقة أرباب السيوف: وسموا بذلك لاشتغالهم بالحرب، وكان بعضهم في أول الأمر من العرب، لأن أهالي البلاد المفتوحة لا يحاربون، وإنما في ذمة العرب الذين يدافعون عنهم، ولكن لما أسلم أهالي البلاد المفتوحة، من عناصر الفرس والترك والديالمة والسودانيين والمصريين والمغاربة، صاروا قسماً هاماً في الجيش الإسلامي إذ كان للمغاربة دور كبير في فتح الأندلس[1]. ولأهمية هذه الطبقة المحاربة، أصبح لها امتيازات خاصة مثل ركوب الخيل، في حين أن المدنيين لا يُسمح لهم إلاّ بركوب

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج 2، ص 6 ـ 7.

الحمير، وهذه الطبقة كانت تتحين فرصة ضعف الطبقة الحاكمة للسيطرة على شؤون الحكم.

رابعاً: طبقة أرباب الأقلام: اتخذ هؤلاء العلم وسيلة للرزق والإبداع أيضاً، وكان يُطلق عليهم عادة الكتاب، مفردها كاتب، وهذه الطبقة في معظمها ـ في أول الأمر ـ من رجال أهل الذِّمة، لمعرفة هؤلاء بالكتابة دون العرب، فكانوا يعملون في دواوين الخلافة، وكانوا يكتبون بلغاتهم الأصلية حتى عهد عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد اللذين قاما بتعريب الدواوين.

خامساً: طبقة ذوي المهن من سكان المدن: وهم أصحاب الحرف من التجار، لأن هؤلاء يتجمعون في المدن، وكان معظمهم من أهالي البلاد المفتوحة أو حتى من العبيد، لأن العرب اشتغلوا بالجندية بعد إسلامهم، ومن الأصل أبعد الناس عن الصنائع لبداوتهم[1]، وقد هيىء الاستقرار السياسي في الدولة الإسلامية الفرصة لقيام الصناعات والتجارة. مما أدى إلى ظهور نظام النقابات الذي يعتبر النظام الشعبي الوحيد في الدولة الإسلامية. فقد كانت كل طبقة من أصحاب الحرف والتجار تتجمع في مكان واحد يُعرف باسمهم، ونتج عن ذلك التدرج المهني في الجماعة الواحدة من شيخ ومعلم ومتعلم وصناع وصبيان.

وأصبح لكل طائفة من هؤلاء تقاليد معينة يُعرفون بها دون سواهم. ونعرف من أسماء بعض طوائف الصناع والتجار في الإسلام بأسمائهم مثل: الحبوبيين، والدقاقين، والخبازين، والفرانين، والجزارين ـ يذبحون الشياه ـ والقصابين ـ يبيعون اللحم ـ والطباخين، والحلوانيين، والصيادلة والعطارين، والبزازين ـ بائعي الثياب ـ والدلالين ـ والحاكة ـ والصباغين والبياطرة، والنخاسين، والحجامين، والأطباء، والكحالين ـ أطباء العيون ـ والوراقين، ومؤدبي الصبيان وغيرهم[2].

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 360.

(2) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص 21، وما بعدها.

سادساً: طبقة الفلاحين والزراع: وهم غالبية سكان البلاد المفتوحة حيث كان اعتماد العصر الوسيط على الاقتصاد الزراعي. وقد كانت هذه الطبقة تسكن القرى والأرياف. وهذه الطبقة تعيش في دولة الإسلام في العصر الوسيط ظروفاً سيئة لأن الأراضي أصبحت ملكاً للحكام، ويعمل الفلاحون فيها بالأجرة أو بالسخرة، وتساوى في ذلك أهالي البلاد المفتوحة سواء فتحت صلحاً أو عنوة. وفي العصر الوسيط ظهرت فئة من كبار المزارعين نتيجة ظهور نظام التزايد أو القبالات أو الالتزام، وذلك أن الفلاحين منهم أشبه برقيق الأرض، ونجد ذلك الصراع ضد الهاربين من العمل في الأرض لدى معظم المؤرخين المسلمين[1]. ولمنع حركة هجرة الفلاحين إلى المدن وضعت قيود مشددة غير أنه في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ/ 717 ـ 721م) سُمح للفلاحين بالهجرة إلى المدن والاستقرار فيها، ولكن الأمور عادت إلى ما كانت عليه بعد وفاته. وبالرغم من ذلك فإن الإسلام لم يعرف نظام الإقطاع الذي عرفته أوروبا في العصور الوسطى، والذي يجعل من الفلاح ملكاً للمقطع (Serfs)، وإن كانوا في دولة الإسلام ملكاً للأرض.

سابعاً: الرقيق: بالرغم من أن الإسلام قد وضع قيوداً على نظام الرّق للحدّ منه، وأعطى حق المواطنة لمن يسلم منهم، ومع ذلك فقد وُجد نظام الرّق في الإسلام، كما في أي مجتمع آخر في ذلك الزمان. بالرغم من أن نظام الرّق نظام قائم على الاستعباد، وعدم احترام حقوق الإنسان الأساسية، فإن المسلمين قد أكثروا من استخدام الرقيق وبخاصة المجلوب من بلاد السودان لاتصال العرب بالأفارقة، فكانت قصور الأمراء والخلفاء مليئة بهم حتى إنهم استطاعوا أن يقوموا بثورة في الشرق عُرفت بثورة الزنج دامت من (255 إلى 270هـ/ 868 ـ 883م)، وبعد هذه الثورة ـ وربما قبلها ـ أكثر المسلمون في المشرق من استخدام الرقيق الأبيض، وبخاصة الأتراك في

---

(1) المقريزي: الخطط، ج 1، ص 133.

وسط آسيا. وكذلك بالنسبة لمسلمي المغرب والأندلس استخدموا الصقالبة كرقيق أبيض مجلوب من وسط أوروبا.

وبمقارنة الرق في الإسلام بمثيله في أوروبا نجد أنه أحسن حالاً، وذلك لأن الإسلام يبيح الزواج من الإماء والجواري وهن مؤنث عبد أو عبيد، وأن الأمة إذا أنجبت تسمى أم ولد، وتصبح حرة بموت سيدها قانوناً، وابنها يكون حراً. في حين يمنع المسيحيّون من الزواج بالإماء أو الاقتراب منهن، ومن يفعل ذلك يعتبر زانياً، وأن للزوجة الحق في بيع جاريتها.

وفي الإسلام يستطيع العبد أن يشتري حريته بدفع قدر من المال يتفق عليه مع مالكه، ويصير حراً.

وقد دعا الإسلام ممثلاً في القرآن الكريم في آيات عدة إلى تحرير الرقيق. كما جاء في قوله تعالى: «فك رقبة» و«تحرير رقبة». واعتبر هذا العمل قربى لله، وحفظاً لأدمية الإنسان، وقد جرى العُرف أن يسمى الصبي فتى، والأمة فتاة. ومما يدل على أن حالة الرق في الإسلام أفضل من غيرها، فإن هؤلاء الرقيق قد كونوا ارستقراطية ملكية نتيجة ضعف السلطة المركزية في معظم دول الإسلام، ويلاحظ ذلك في مصر بالذات بظهور دولة كبيرة لهم سميت بدولة المماليك استمرت زهاء الأربعة قرون. وكذلك في شمال الهند ظهرت لهم دولة كبرى أيضاً.

الفصل السادس عشر

الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية

أولاً: الصناعة:

حرص الإسلام على تكوين مجتمع منتج، فجعل من الإنتاج عبادة وتقرباً إلى الله بل جهاداً في سبيله قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾. فالمقصود هنا القوة في الحرب والقوة في العمل والإنتاج. وفي الحديث الشريف: «**إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**».

ولقد اعتمد العرب في حياتهم ـ بالدرجة الأولى ـ على أعمال التجارة والنقل وتربية الماشية كما اشتهروا ببعض الصناعات اليدوية كالمنسوجات، والجلود والأسلحة وعلى الأخص في اليمن وعمان والبحرين والطائف والمدينة المنورة.

ومع اتصال الفتوحات العربية شرقاً وغرباً، وانتشار الإسلام بين الموالي أو أهالي البلاد المفتوحة، واختلاط العرب بهم عن طريق الزواج أو المصاهرة، نشأت الشعوب الإسلامية والعربية التي حافظت على تراثها الحضاري القديم في ميداني الزراعة والصناعة وعملت على تطويره لأن

طبيعة التطور الحضاري تحتم استفادة الخلف من تراث السلف.

ويضاف إلى هؤلاء المسلمين من العرب والموالي أهل الذمة من الصناع وأصحاب الحرف الذين استوطنوا البلاد الإسلامية، مستفيدين من الحماية التي تقدمها لهم الدولة، ولم يكن عليهم إلاّ الاعتراف بسيادتها ويطيعوا نظمها، ويدفعوا الضرائب لها.

والواقع أن الدولة الإسلامية قد منحت رعاياها جميعاً فرص العمل في الصناعة، عدا بعض الصناعات التي تتطلب الحصول على إذن خاص لمزاولتها مثل سك النقود، وتصنيع الأسلحة وتركيب الأدوية، والعمل في دور الطراز، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أسباب تتعلق بالمصلحة العامة أو الأمن العام.

ومما لا شك فيه أن المجتمع الإسلامي قد تطور صناعياً ما بين صدر الإسلام وعصر الدولة العباسية، وذلك بتوفر المواد الخام النباتية والمعدنية، واتصال العمران في المدن الإسلامية وقد بقيت الصناعة تعتمد على العنصر اليدوي ومن ثم فإنها تحتاج أن يكون الصانع ماهراً صبوراً أو حاذقاً مما أعطى إنتاجه صفة الاتقان والجودة رغم قلته. ولهذا كانت حالة العامل الاقتصادية متواضعة، وتكفي لضروريات عيشه فقط منطبقاً عليه القول المأثور «صناعة في اليد أمان من الفقر وأمان من الغنى». وأعتبر أهل الصناعة من الطبقة العامة في المجتمع المسلم. ولذا نال أهل الصناعة عطف عدد من الكُتاب المسلمين، وأفردوا لها الرسائل والفصول في مؤلفاتهم، ومثال ذلك ما نجده في رسائل إخوان الصفا، وفيما كتبه المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون عن الصنائع في مقدمة تاريخه، وعلق عليها بملاحظات خلاقة تستحق التنويه. فهو يرى أن الصناعة بمهنها المختلفة رمز للحضارة ولا توجد إلاّ في أهل الحضر ولا تكتمل إلاّ بكمال العمران الحضري وكثرته، لأنها مركبة وعملية تصرف فيها الأفكار والأنظار، بينما الفلاحة أو الزراعة في نظره من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو[1]. كذلك يرى ابن خلدون أن

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 317.

العمل هو المقياس الأساسي للقيمة أي إنه أبرز أهمية العمل ودوره في تحديد قيمة السلع والمنتجات متبعاً بذلك المنهج الذي رسمه لنفسه في مقدمته، والذي يقوم على طبيعة العمران الحضري، مثال ذلك قوله: ففي كل مصر توجد الصنائع الضرورية، كالخياط والحداد والنجار وأمثالها، أما ما يستدعي لعوائد الترف وأحواله، فإنما يُوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصنائع والدهان والطباخ وأمثال هذه وهي متفاوتة. وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف، تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره[1].

الطوائف الصناعية:

تُعتبر المدينة الإسلامية أساس الحضارة وازدهار الحرف والصناعات. ففي مساحتها المحدودة يتجمع عدد كبير من العمال من مختلف الأجناس والأديان، متقاربين في السكن ومتصلين بعضهم ببعض في حياتهم اليومية بالأسواق، تجمعهم روابط اقتصادية واجتماعية وفكرية، كل في مجال تخصصه ومن هنا نشأ نظام الطوائف والتكتلات الصناعية التي عرفت بأسماء متعددة لكل الأصناف، وأرباب الصنائع، وأصحاب المهن، وأهل الحرف، وهي كلها تعابير تعطي معنى الجماعة لأبناء الصنعة الواحدة، وإن كان قد أطلق اسم على أصحاب الحرفة كالصباغين، والبزازين والعشابين...[2].

ومع نمو المدن واتساعها، وتطور الحياة الاقتصادية وتعقدها في العالم الإسلامي، قوى الشعور المشترك بين أصحاب كل حرفة، وصار لهم في نطاقها نظام أو عُرف خاص يكفل لهم الحماية من الطوائف المنافسة، ويتدرج بمستواهم المادي، ويعمل على تدريب الأبناء الجدد أو المبتدئين في الصنعة.

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 318.

(2) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص 20 وما بعدها.

وكان لكل حرفة شيخ أو رئيس اختلف في تلقيبه من بلد لآخر مثل الأمين (في المغرب) والمعلم أو الأسطى (في مصر) ومثل لقب العريف الذي استخدم في بلدان كثيرة، وكان تعيين شيخ الطائفة يتم بالاختيار أو الانتخاب، وبموافقة المحتسب ممثل الحكومة، كما كان يعاونه في بعض الأحيان مجلس من كبار معلمي الصنعة. مهمتهم القيام بدور الخبير الفني في الخلافات التي تقع بين أهل الحرف وعملائهم حول سلعة من السلع. وكان رأيه مقبولاً لدى القاضي أو المحتسب. كذلك كان حلقة الوصل بين أصحاب الصنعة وبين عملائهم حول سلعة من السلع، كما أنه كان يبلغ المحتسب رأي طائفته حول تكاليف السلع التي يصنعونها وتحديد ثمنها في البيع.

وقد جرى العُرف: أن يتدرج الحرفيّ من مبتدىء أو صبي صغير إلى صانع مدرب. وكانت هذه النقلة تعتبر هامة في حياة الصانع لأنها تمكنه من الاستقلال بنفسه في حانوت خاص، وتوصله بعد ذلك إلى الرئاسة والمعلمة، ولهذا كان يصحب هذه الترقية احتفال بهذه المناسبة تتلى فيه الفاتحة وتنشد فيه المدائح النبوية، ثم تقام مراسيم تعرف بالشد أي شد المحتفل به، وذلك بأن يقوم شيخ الطائفة بشد وسط المحتفل به بحزام مع عقده عدة عقد يقوم كبار المعلمين الحاضرين في الحفل بحلها. ثم يلبس المحتفل به لباساً خاصاً يُعرف بالسروال، ويوضع في كتفه شال ويعرف بواجباته الجديدة، ويؤخذ عليه العهد والميثاق بأن يلتزم بها ولا يخرج عليها وأن يظل مخلصاً لها، وهي كلها مبادىء تنبع من الشرع الحنيف كالتحلي بمكارم الأخلاق مثل القناعة بالقليل والصبر على العمل، والتواضع مع الآخرين والإخلاص للمعلم وأسرته. وفي آخر الاحتفال يتناول الجميع طعام وليمة يقدمها لهم الصبي المحتفل بترقيته.

وعلى ذلك يمكن تلخيص ما تقدمه الطوائف المهنية في الآتي:

1 ـ تعليم الصبيان أسرار المهنة وتحديد العلاقة بين المعلم والصبي بشبه تعاقد أو التزامات بين الطرفين.

2 ـ المراقبة الفنية على المشتغلين بالصنعة الواحدة، وحماية المستهلك من الغش وسوء الصنعة.

3 ـ المشاركة في تحديد الأجور وأسعار السلع.

4 ـ التحكيم فيما ينشأ بين أعضاء الطائفة الواحدة من نزاعات.

5 ـ اعتبار الأمين أو العريف مسؤولاً أمام موظف الحكومة (المحتسب) في تمثيل طائفته.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن هؤلاء الحرفيين والصناع بحكم كونهم من طبقة العامة في المجتمع فقد لعبوا دوراً كبيراً في الحياة العامة إذ شاركوا في ثوراتها الشعبية وجمعياتها السرية وفرقها الدينية، وفي احتفالاتها ومواكبها العامة في المواسم والأعياد.

وفي بلاد المغرب، والمشرق انخرط الحرفيّون في النشاط الصوفي التقشفي، واشتركت مجموعات أخرى في بعض النشاطات التي اتسمت بطابع العنف والسرية ومن أمثلة ذلك إقبال بعضهم على اعتناق دعوة القرامطة السرية التي قامت على حمدان قرمط بالعراق في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، نتيجة سوء التوزيع الاقتصادي، وكان من مبادئها تطبيق المساواة على الجماعة الإسلامية.

وكذلك انضم الحرفيون في بغداد إلى جماعة العيارين أو الشطار أو الفتيان، الذين كان أول ظهورهم إبان الفتنة بين الأمين والمأمون، وأبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن بغداد ضد جيوش المأمون عام 197هـ.

نماذج لبعض الصناعات في بعض المدن الإسلامية:

تعددت الصناعات في المدن الإسلامية حتى صارت مظهراً من مظاهر ازدهارها الاقتصادي ويكفي للتأكيد على هذه الحقيقة أن نقرأ ما كتبه الرحالة والمؤرخون في وصفها أو أن نشاهد ما بقي منها في المتاحف الإسلامية والدولية وحسبي في هذا المجال أن أشير إلى بعض الصناعات الحيوية التي

كان للإسلام فضل فيها، والتي تتعلق في تصنيفها بمعيشة الإنسان أي المأكل والكساء والشراب والثقافة والدفاع عن النفس. وأعني بذلك صناعة الملابس، والسكر، والورق، والأسلحة.

أولاً: صناعة المنسوجات:

كانت صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها حريرية أو كتانية أو صوفية أو قطنية قديمة في الكثير من بلاد العالم الإسلامي وبخاصة مصر وبلاد فارس والعراق وبلاد الشام والمغرب ويؤيد ذلك كتابات الجغرافيين والمؤرخين التي تدل على وجود اتصالات وثيقة وتشابه كبير بين صناعات النسيج في المدن الإسلامية إلى درجة المنافسة، فالنسيج الحريري العتابي الذي كان يصنع أصلاً في محلة العتابية بغرب بغداد لم يلبث أن انتقلت صناعته إلى مصر والأندلس وبلاد المغرب بنفس الاسم. والألوان الديبقية المصرية الموشاة بالحرير والذهب والتي كانت تصنع في ديبق قرب دمياط، لم تلبث هي الأخرى أن صارت تصنع في العراق وفارس بنفس الاسم أيضاً والمقاطع الكتانية الرقيقة التي كانت تصنع بمدينة الإسكندرية صار الصناع في البلدان المختلفة يصنعونها ويبيعونها على أنها من الإسكندرية كما أن المنسوجات التي اشتهرت بأصبهان وجرجان سرعان ما صارت تصنع في الأندلس وغيرها باسم الأصبهاني والجرجاني أيضاً.

هذه أمثلة وحسب حول إنتاج الأصناف المختلفة من الثياب والمنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية والكتانية التي كانت تنتج في كثير من الأقطار الإسلامية في المغرب والمشرق معاً.

وهذا التشابه في الإنتاج إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإسلام كان عامل توحيد فني وصناعي إلى جانب كونه عامل توحيد ديني وثقافي بين بلدان العالم الإسلامي.

وبالرغم من التشابه الكبير في إنتاج المنسوجات فإن كل مدينة من مدن العالم الإسلامي قد تميزت بنوع خاص من أنواع المنسوجات.

فالمشرق بصفة عامة امتاز بزراعة وصناعة القطن الذي انتقل إليه من الهند من قديم وصارت أهم مراكزه في بلاد ما وراء النهر (تركستان) وشرق فارس. فقد اشتهرت بخارى وقراها بنسيج قطن خاص وهو الكرباس ويسمى أيضاً الزندريخي لأنه ظهر لأول مرة في قرية من قراها تسمى زنده، وكان هذا القماش يحمل إلى العراق وفارس ومصر والشام وبلاد الروم وغيرها. ويتخذ فيه الملوك العظماء ثياباً ويشترونه بثمن الديباج. وكان منه الأبيض والأحمر والأخضر. وكان ببخارى صناع مهرة مخصّصون لهذا العمل ودار صناعة (بيت الطراز) لعمل هذه الثياب والبسط والسرادقات وسجاجيد الصلاة. وفي كل عام كان يذهب إليها عامل خاص من بغداد ويأخذ من هذه الثياب ما يُقابل خراج بخارى.

وكذلك اشتهرت مرو ومعظم نيسابور ومعظم مدن خراسان بثياب القطن اللينة الفاخرة وفي ذلك يقول الثعالبي: «وقد علم الناس أن الكتان لمصر، وأن القطن لخراسان»[1]

ولم تلبث زراعة القطن أن انتشرت عبر فارس إلى العراق وبلاد الشام، وصنعت منه بدمشق أقشمة مشجرة سميت باسمها «الدمشقيات» ثم انتقلت زراعته بعد ذلك إلى الأندلس في القرن الثالث الهجري، حيث اشتهرت مدينة إشبيلية Savilla بزراعته وصناعته وتصديره لدرجة أنها استطاعت إنتاج أقمشة تقي من بلل الأمطار[2].

وكيفما كان الحال فإنه يكفي المسلمين فخراً أنه عن طريقهم عرفت أوروبا هذا النبات الهام وأبقت على اسمه العربي في لغاتها coton، ثم أصبح القطن هو والفحم المصدر الأساسي لقيام ثورة أوروبا الصناعية.

أما الكتان فقد انتشرت زراعته على نطاق واسع في مصر حتى قيل إنه

(1) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، ج 1، ص 70.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة، 1979، ص 110.

في أيام المجاعات كان الناس لا يجدون ما يأكلون سوى بذرة الكتان.

وقد قامت على الكتان الصناعة في مصر وبخاصة منسوجات التيله بأنواعها الرقيقة والسميكة.

كذلك اشتهرت الأندلس بإنتاج نوع من المنسوجات الكتانية الرقيقة البديعة الغالية والتي تشبه الورق في رقته وبياضه. وقد اشتهرت كل من سرقسطة Zaragiza ولاردة Leride وباجه Beja بصناعة الكتان في الأندلس. هذا ويشير المقدسي إلى أن الكتان كان يزرع بالعراق وتصنع منه الملابس الكتانية الرقيقة المطرزة والبسيطة وبخاصة في الأبلة والبصرة. وكذلك انتشرت صناعته في إقليم أذربيجان بإيران[1].

أما صناعة الحرير فالمعروف أنها انتقلت قديماً من الصين شرقاً وبيزنطة غرباً. وانتشرت على شواطىء بحر قزوين، وفي إقليم طبرستان، وفي أرمينية وخوزستان (الأهواز)، ولم تلبث هذه الصناعة في العصور الإسلامية أن عمت الأراضي الإيرانية كلها. وحملها العرب أينما ذهبوا، فانتشرت على أيديهم تربية دودة القز، وانتشرت معها صناعة الحرير، حتى أصبحوا زعماء تجارة الحرير في العالم خلال العصر الوسيط.

وتعتبر الأندلس من أهم البلاد التي ازدهرت فيها صناعة الحرير بأنواعه المختلفة، وذلك بفضل عناية أهلها بتربية دودة القز، ووفرة أشجار التوت التي تتغذى دودة القز على أوراقها. ويشير المؤرخ الأندلسي عريب بن سعد (ت 370 هـ) إلى دور النساء في انتقاء الشرانق ورعاية بيض دودة القز من شهر فبراير إلى أن يفقس في شهر مارس من كل سنة.

ومن أهم مناطق تربية دودة القز في الأندلس البيرة (غرناطة)، ومالقة Malaga وجيان Jaen، وبسطه Baza، وجبال شيلر، ولورقة Lorca وغيرها. وكان حرير البيرة أجودها، ولذا كان يصدر إلى داخل وخارج الأندلس[2].

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 128.

(2) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 24، 45.

وقد تطورت صناعة المنسوجات الحريرية في الأندلس، وبخاصة في مدينة المرية Almeria الواقعة على شاطىء البحر المتوسط، ويُقال إنه كان يوجد بها نحو ثمانمائة حرفة في نسيج الحرير، كما يُقدر عدد الأنوال فيها بحوالى 5800 نول[1]. ومن أمثلة منسوجاتها: الديباج الموشى والسقلاطون، والأصبهاني والجرجاني، والعتابي المموج، والثياب المعينة أي التي تزدان بنقط صغيرة تشبه عيون الوحش أو بزخرفة هندسية على هيئة العين.

كذلك اشتهرت مدينة إشبيلية بالحلل الموشية ذات الصور العجيبة والموسومة برسم الخلفاء فما دونهم. وبالمثل يُقال عن الثياب الحريرية السرقسطية في شمال إسبانيا حينما زار الرحالة العراقي ابن حوقل بلاد الأندلس خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. أشاد بأنسجة الديباج الأندلسية وبالسروج الحريرية، وقال إنها فاقت في صنعها أي مكان في العالم، كما أنها تزيد في كميتها على ما ينتجه العراق[2].

أما صناعة المنسوجات الصوفية، فقد انتشرت في عدد من المدن الإسلامية، ولكن منتجات فارس وأرمينية وبخارى، حظيت بشهرة عالمية متميزة لجودة الصوف فيها. ونخص بالذكر منها سجاجيد أصبهان، والبسط الأرمينية القرمزية التي تجلب بلونها الأحمر الفرح والسرور. ويروى أنه كان للخليفة العباسي المستعين بساط عليه صور عدد كبير من الحيوانات من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأعينها يواقيت وجواهر، وكان لليمن شهرة كبيرة في صناعة المنسوجات الصوفية وبخاصة منسوجات عدن والموشاة أو المخططة.

2 ـ الصناعات المعدنية:

برع سكان الامبراطورية الإسلامية بالصياغة والترصيع، وذلك بوضع

(1) المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مصر 1976، ج 1، ص 162.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 109.

رسومات وزخارف على بعض الحلى كالذهب والفضة، كما عرفت عدد من المدن الإسلامية بصناعة الأسلحة وبخاصة دمشق، واليمن وامتازت الموصل بصنع الأدوات النحاسية التي تختص بالمائدة.

3 ـ الصناعات الغذائية:

أشهرها صناعة السكر الذي نقل من موطنه الأصلي في الهند إلى بلاد فارس ومصر، وأنشئت له المعامل، واستخرجوا منه أصنافاً لم يكن لها مثيل. وكانت منطقة الأهواز تدفع في عهد المأمون مع الجباية (30,000) رطل سكر، واشتهرت بلاد فارس أيضاً بصناعة ماء الورد التي كانت ترسل منه (30,000) قارورة مع الجباية. وكانت أنواع العطور وعصير الفواكه في كل مدن العالم الإسلامي تقريباً وقد تميزت مدن الشام وفارس بإنتاج العطور بصورة خاصة، ولعل ذلك يرجع إلى وفرة الزهور فيهما.

4 ـ الصناعات المختلفة:

برع العالم الإسلامي في كثير من الصناعات كانت موضع إعجاب كثير من الأوروبيين قروناً عديدة مثل صناعة الورق الذي اشتهرت به بلاد الشام. وازدهرت صناعته في عهد المعتصم إذ أسس المصانع وجلب لها العمال من مصر. واشتهرت البصرة في عهده بصناعة الزجاج والصابون وقد عُرفت بهما بلاد الشام التي كانت تصدر في القرن الثاني الهجري الزجاج الملون المطلي إلى كثير من موانيء العالم. وكان يُضرب بزجاج الشام المثل حتى قيل «أرق من زجاج الشام» وذلك لما تميز به من رقة وصفاء.

ومن الصناعات الراقية في مصر وبلاد فارس صناعة الفخار والخزف. وقد اقتبس الصناع المسلمون صناعة الخزف من الصين. وطوروا تلك الصناعة فصنعوا الخزف ذا اللون الأزرق الممتاز. وعُرفت بلاد المغرب بصناعة الجلود، وصناعة الأحذية والوسائد والسروج وجلود الكتب المزخرفة... كما اهتم المسلمون بصناعة السفن (المراكب والقوارب) لغرض صيد الأسماك والنقل البحري والنهري أما الأندلس فيوجز ابن خلدون

صناعتها بقوله: . . . فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار. . .»[1].

ثانياً: التجارة

أ ـ تجارة العرب قبل الإسلام:

اعتمد سكان شبه الجزيرة العربية في حياتهم الاقتصادية على التجارة بالدرجة الأولى لأن العوامل الطبيعية والاجتماعية كانت غير ملائمة لممارسة النشاط الزراعي والصناعي. لذا ركز السكان جهودهم في استثمار موقع بلادهم التجاري الممتاز. فشبه الجزيرة تحتل مكان القلب في العالم القديم، ولا يمكن أن يتم الاتصال في البر والبحر إلا عن طريقها وبواسطة سكانها.

وقد كانت التجارة ظاهرة متأصلة في الحضارة العربية القديمة ترجع إلى عهد المصريين والآشوريين، وكان أكثر اشتغال ملوك اليمن بالتجارة لتوسط بلادهم بلاد الهند والحبشة والصومال ومصر والشام والعراق، فكانوا ينقلون التجارة عبر هذه البلدان، فكان بذلك تمدنهم تجارياً وليس حربياً كما كان الحال عند الآشوريين والفرس والمصريين. وبقيت سيطرة اليمن التجارية لأجيال طويلة كما كان لأخوانهم الفينيقيين وكان لعرب الحجاز وبخاصة بعد سيطرة قريش على مكة ـ نصيب وافر من تلك التجارة التي حمل اليمنيون لواءها. ونظموا رحلتين رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام عدا الرحلات إلى الحيرة، وعقدوا اتفاقات تجارية مع الحبشة واليمن وفارس والمناذرة والغساسنة والرومان.

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 319.

تطور التجارة في ظل الإسلام:

لم تنقطع تجارة قريش ولم تتوقف قوافلها إلاّ بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حيث قوي أمره فيها وأخذ يضعف من شأن أعدائه بتهديد تجارتهم ومورد رزقهم وثرائهم وقوتهم. ثم ضعفت حركة التجارة وتوقف نشاطها في دور التوسع والفتوحات، ولكنها لم تتعطل تماماً، بل ظلت في شكل رحلات متباعدة زمنياً. واستمرت الأحوال التجارية بطيئة حتى استتب الأمر للعرب المسلمين في كافة أنحاء الجزيرة ودانت لهم الشام والعراق وفارس ومصر. وبسبب غنى هذه البلدان ومواردها الغنية المتنوعة انتعشت التجارة ورجعت إلى سابق عهدها، ثم نمت واتسعت باتساع الفتوحات حتى بلغت أوجها في العصر العباسي.

وكانت أهم عوامل نجاح التجارة عند المسلمين يرجع إلى:

1 ـ ازدياد رقعة العالم الإسلامي حتى بلغت ثلاثة ملايين ونصف الميل مربع أي نحو مساحة أوروبا تقريباً.

2 ـ وحدة العملة المتداولة في العالم الإسلامي مما سهل التبادل التجاري بين مختلف المدن الإسلامية.

3 ـ ازدياد حركة الإنتاج الصناعي وتنوعها مما دفع التجار إلى تصريف ونقل الفائض.

4 ـ حياة الترف والبذخ التي عاشها المسلمون بعد الفتوحات الكبرى.

5 ـ منافسة الدول المستقلة وتطلعها إلى حياة البذخ التي تعيشها الخلافة في بغداد من حيث البلاط والحاشية والأبهة.

كانت هذه الأسباب الرئيسية علاوة على عدد من الأسباب الثانوية سبباً في ازدهار التجارة العربية واتساع نطاقها، وكان التجار المسلمون يتقنون التجارة علماً وعملاً حتى أنهم ألفوا فيها كتباً، وفي الاقتصاد السياسي، فقد وضع أبو جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس الهجري كتاباً

عنوانه «الإشارة إلى محاسن التجارة» شرح فيه عدداً من الفضائل التجارية التي لم يسبقه إليها أحد. كما يحوي أبحاثاً في معنى النقود والسلع والعروض والأثمان وغيرها. وهي أبحاث قيمة ومتطورة بمنظور ذلك العصر والعصور التي تلته. وقد دفعت الأرباح التجارية الهائلة التي كان يحصل عليها التجار المسلمون إلى المخاطرة في البر والبحر، فقد عرفوا سواحل إفريقيا الشرقية، ومناطقها الوسطى النائية، والهند والملايو، والصين، وجزر سرنديب وجاوة وسومطره. وجابت قوافلهم في كثير من بقاع العالم فوصلت إلى روسيا وألمانيا وإنجلترا، والبلقان ولم يمنعهم خطر.

أ ـ تجارة المسلمين مع القارة الأفريقية:

تبادل التجار المسلمون التجارة مع القارة الأفريقية في شرقها وغربها لما تتوفر عليه من معدن الذهب.

فالمنطقة الشرقية: وهي بلاد البجة أو البيجا، وتمتد من شرق مدينة أسوان بين النيل والبحر الأحمر شرقاً، وإلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة جنوباً وتسكنها قبائل البجة، وهي قبائل حاميّة الأصل، وقد اشتهرت هذه المنطقة منذ زمن بعيد بوجود الذهب في أرضها، فضلاً عن أحجار الزمرد التي وردت في بعض الكتب الجغرافية باسم الزبرجد، ولذا عرفت هذه المنطقة باسم أرض المعدن. ووادي العلاقي.

ولما فتح العرب مصر عام (21هـ) كانت مناجم العلاقي لا تزال غنية بالذهب والزمرد، ولذا اتجهت سياستهم وتجارتهم نحو بلاد النوبة وشمال السودان، فأرسلوا الحملات التأديبية ضد قبائل البجة التي كانت تقوم بأعمال السلب والنهب في جنوب مصر.

وفي عام (34هـ/ 654م) احتل المسلمون دنقله وهي أهم مراكز تجارة الذهب في السودان. وعقدت معاهدة مع النوبة تسمح بفتح حدودها أمام المسلمين تجاراً وباحثين عن الذهب، ومن ثم ازدادت هجرة القبائل العربية وبخاصة قبيلتي ربيعة وجهينة في القرن الثالث الهجري.

ولقد وصف اليعقوبي (ت 282هـ/ 895م) هذا النشاط الكبير في حقول الذهب بأعالي النيل فقال عن وادي العلاقي إنه أشبه بمدينة كبيرة مزدحمة بالسكان من كل الأجناس من العرب وغيرهم، وكلهم من الباحثين عن الذهب[1].

وقد استمرت ظاهرة البحث عن الذهب انطلاقاً من مصر مدة طويلة شملت عهد الطولونيين والأخشيديين ثم الفاطميين.

وقد جرت العادة أن يحمل الذهب إما عن طريق النيل إلى القاهرة شمالاً أو عن طريق ثغري سواكن وعيذاب على البحر الأحمر شرقاً، والتي أصبحت طريقاً آمناً وبخاصة أثناء الحروب الصليبية حيث كان يعبره التجار والحجاج. وظل الأمر كذلك من القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر حيث زال الخطر الصليبي نهائياً عن ساحل الشام في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وقد أدى ذلك إلى عودة الحياة من جديد إلى خليج السويس، فصارت كل من السويس والطور مكان حط وإقلاع السفن عابرات البحر الأحمر والمحيط الهندي وكان ذلك على حساب نشاط طريق عيذاب في الجنوب، وقد واكب الكساد التجاري لعيذاب اضمحلال معدن الذهب والزمرد في وادي العلاقي. ومن ثم فقدت عيذاب أهميتها شيئاً فشيئاً حتى خربها السلطان الأشرف برسباي سنة 1421م.

منطقة غرب أفريقيا:

نشطت تجارة المسلمين في تجارة الذهب مع مملكة غانا الوثنية الواقعة على نهر النيجر في السودان الغربي. فيروي صاحب كتاب روض القرطاس أنه في خارج حدود هذه المملكة كانت تقع جبال الذهب في بلاد ونجاتا التي كانت شعوب الماندنجو تستخرج الذهب منها وتستبدله بالملح والسلع الأخرى من غانا ولذا كان تجار المسلمين من المغاربة وغيرهم يقومون

(1) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص 90.

برحلة طويلة إلى هذه البلاد تستغرق عادة عدة أشهر، ويسلكون خلالها الطريق من سجلماسة ثم مدينة أودغست التي كانت على مسيرة أربعة عشر يوماً إلى شمال غانا.

وقد لعبت سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى دوراً بارزاً في تجارة المغرب والأندلس نحو غرب أفريقيا، فقد أفاض كل من ابن حوقل (ت 367هـ) والبكري (487هـ) في وصفها وتحدثا عن غنى أهلها الذين كانوا يخرجون بالملح والنحاس والودع إلى بلاد السودان الغربي ويرجعون بالذهب التبر إلى بلادهم، ويُقال أن الحمالين كانوا يحملون الذهب والملح على رؤوسهم حتى أصبحت صلعاء لا أثر فيها للشعر[1]!.

كذلك حرص خلفاء بني أمية في قرطبة على توطيد علاقتهم مع أمراء سجلماسة من بني مدرار، وذلك لضمان وصول الذهب عبر سجلماسة في المغرب إلى قرطبة وقد جنى الأمويون في الأندلس مكاسب اقتصادية كبيرة.

ويشير ابن حوقل أيضاً إلى أن التجار العراقيين كانت لهم علاقات تجارية مربحة مع المغاربة، وأن أهم ما يطلبونه منهم هو الذهب! ثم يضيف أن التجار العراقيين كانوا يتاجرون مباشرة مع زنوج إفريقيا فيحملون الثياب البصرية البراقة ويستبدلونها بالذهب. ولا يخفي ابن حوقل دهشته عندما يقول إنه رأى (صكاً) بمبلغ وقدره إثنان وأربعون ألف دينار مسحوبة على تاجر بمدينة في جنوب المغرب! وهذا دليل على ما بلغته تجارة الذهب في هذه المنطقة[2].

وقد تأثرت تجارة الذهب عبر الصحراء أواخر القرن الرابع الهجري، بسبب رحيل الفاطميين إلى مصر، ومحاولة الصنهاجيين الانفصال عنهم حوالى (435هـ) مما دفع الفاطميين إلى إرسال الأعراب من قبائل بني هلال وسليم.

---

(1) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 90.

(2) المصدر نفسه، ص 96.

وقد عاد هذا العمل الانتقامي بالضرر على الدولة الفاطمية بمصر نفسها إذ حُرمت من مصادر الذهب وذلك بقطع الطرق التي كانت تمدها بالذهب السوداني عن طريق الصحراء الغربية. مما كان له أثره في ضعف هذه الدولة، وجعلها عُرضة للغزو الصليبي بعد ذلك.

ومع قيام دولة المرابطيين في بلاد المغرب، وسيطرتها على الأندلس أيضاً وقهر مملكة غانا في الجنوب، والاستيلاء على مراكز تجارة الذهب مثل سجلماسة وأودغست، سيطروا بذلك على جميع المسالك الغربية التي تربط بين المغرب والأندلس من جهة، وبين السودان الغربي من جهة أخرى، ولعل هذا هو السبب الذي جعل للدينار المرابطي Marabotin تلك الشهرة العالمية والسمعة الاقتصادية الممتازة حتى غدت دول العالمين الإسلامي والمسيحي تتنافس عليه.

ثالثاً: الزراعة والري والمحاصيل الزراعية:

عرف العرب الزراعة من قديم الزمان، إذ إنه بالرغم من توفر الصحراء بمساحات شاسعة في شبه الجزيرة العربية إلاّ أن ذلك لا يمنع من وجود بضع أقاليم خصبة ذات مياه وفيرة. انتجت محاصيل كثيرة. ومتنوعة من أشجار الفواكه والخضر والزهور والورود فاشتهرت اليمن ببساتينها ومراعيها ومياهها المتدفقة، واشتهرت حضرموت ببخورها، واشتهرت منطقة الأحساء على امتداد شاطىء البحر الأحمر بواحتيها القطيف، والهفوف هذا إلى جانب بعض المناطق الحجازية الخصبة مثل يثرب والطائف:

وجاء الإسلام، وأشارت آياته في مواضع كثيرة إلى أهمية الماء والأرض والزرع والتمر مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

(1) سورة البقرة، آية 22.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[1].

كذلك اهتم الرسول الكريم بإحياء الأرض الميتة وذلك في قوله: «**من أحيا أرضاً ميتة فهي له، فإن مات فهي لورثته، وله أن يبيعها إن شاء**».

وهكذا أحدث الإسلام ثورة زراعية شملت مختلف أنحاء الجزيرة العربية.

هذا في الحجاز وقبل التوسع والفتوحات، ولكن بعد أن انتشر العرب في الشام والعراق وفارس ومصر. خاف الخليفة عمر بن الخطاب أن يركن العرب إلى حياة الدعة والاستقرار والاشتغال بالزراعة بعد أن رأوا الأرض خصبة والمياه وفيرة والمناخ معتدلاً، فأمر المنادي أن ينادي في الجنود أن عطاءهم قائم، وأن رزق عيالهم سائر فلا يزرعوا. وهذا لا يعني أن الخليفة عمر بن الخطاب قد نهى عن الاشتغال بالزراعة أو اهمالها، ولكنه كان يطلب من الجنود ألا يركنوا إلى حياة الدعة والاستقرار، والإسلام في حاجة إليهم لزيادة انتشاره في أقطار كثيرة لم تُفتح بعد.

ومع قيام الدولة الأموية، واتخاذها الشام مقراً لها، غلب على أهلها الاستقرار فعملوا بالزراعة وأغفلوا وصية الخليفة عمر بن الخطاب فقد اهتم الأمويون بإصلاح وترميم شبكات الري التي وجدوها في البلاد المفتوحة وبخاصة في بلاد الشام، ويؤثر عن الخليفة يزيد بن معاوية أنه أمر بحفر مجرى نهر يزيد في دمشق لسقاية الأراضي المرتفعة التي لم تصلها مياه بردى.

كذلك اهتم الولاة في الأقاليم بإصلاح طرق الري لتأمين مرافقها ومنابع ثروتها، فيؤثر عن عمرو بن العاص أنه استخدم آلاف العمال

(1) سورة الأنعام، آية 141.

المصريين في إصلاح طرق الري في مصر صيفاً وشتاء. وكذلك فعل ولاة العراق في حفر شبكة من الأنهار والقنوات فيما بين نهري دجلة والفرات بعضها قديم مجدد، والبعض الآخر جديد مستحدث، وأطلقوا عليها اسم النواظم لأنها نظمت توزيع المياه في سهول وادي الرافدين، ولا سيما الجزء الجنوبي منها المعروف بالسواد لخصوبة أرضه وكثرة أشجاره ونخيله. ويؤثر عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه حفر في هذه المنطقة الجنوبية بين الكوفة والبصرة أنهاراً عديدة مثل الصيني، والزابي، والنيل. ومن الطريف أن هذا النهر الأخير كان عرضه ثلاثين متراً ويأخذ مياهه من الفرات إلى دجلة في منطقة تقع في شمال بابل وقد سماه بهذا الاسم تيمناً بنهر النيل في مصر[1].

وقد أبدع مسلمو الأندلس في هندسة الري، ويشهد على ذلك آثارهم التي لا زالت حية إلى الآن. وأكبر مثال على ذلك محكمة المياه في بلنسية Valencia شرق أسبانيا. لتقسيم المياه على الفلاحين كما كان يفعل أهل الأندلس قديماً، وهي محكمة أهلية لا دخل للحكومة فيها، وحكمها نافذ، ويُحرم المخالف من المياه، وهذه المحكمة من التراث العربي الأندلسي. كما يلاحظ انتقال أسماء بعض آلات الفلاحة إلى اللغة الأسبانية مثل الناعورة Noria والساقية Acequia.

وبفضل الجهود الزراعية التي بُذلت، والثروة الزراعية الضخمة التي أصبح عليها العالم الإسلامي بحيث لا يقع البصر بها إلاّ على خضرة يتصل خضارها بلون السماء الأزرق. كل تلك المناظر الخلابة عبرت عنها قريحة الشعراء في وصف الطبيعة.

ملكية الأراضي الزراعية:

من المعلوم أن الأراضي الزراعية كانت مقسمة إلى أنواع. فهناك أراضي مملوكة للأفراد، وأراضي الوقف للأغراض الدينية، وهناك الأراضي

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، وآخرين: دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 375.

السلطانية التي تشمل ضياع الخلفاء والسلاطين، وهناك الإقطاعات المدنية التي كانت تمنح للوزراء والموظفين بدل الرواتب، فإذا ما عزلوا من مناصبهم أخذت منهم.

وهناك إقطاعات خاصة تمنح للشعراء والمحدثين والمغنيين، وهناك الإقطاعات العسكرية التي كانت توزع على قادة الجند عوضاً عن الراتب، الذي لا تستطيع خزينة الدولة دفعه. وهذا النوع من الأراضي الزراعية يملكها الأفراد ملكية مؤقتة. وقد ساد هذا الإقطاع العسكري مشرقاً ومغرباً.

ويروي المؤرخون أن المنصور محمد بن أبي عامر ألغى النظام الإقطاعي العسكري في الأندلس في القرن الرابع الهجري، واستبدله بجيش نظامي يتقاضى كل فرد فيه راتباً شهرياً من الدولة حسب رتبته بدلاً من استغلاله للإقطاع الزراعي كما كان الحال سابقاً.

وأهمية هذه الإصلاحات أنها أزالت العصبية القبلية وجعلت الجيش وحدة واحدة متماسكة خاضعة لقيادته. واستطاع المنصور بذلك أن يفرض على الجيش نفوذه وسلطانه، وأن يتمكن من إحراز انتصاراته الشهيرة ضد الأسبان ولكن بعد موت المنصور عام 392هـ/ 1002م. وابنه المظفر بعده سنة 399هـ، دب الفساد في جسم الدولة، فلم تستطع الحكومة دفع رواتب الجند، فكثر شغبهم، وانتقل الفساد إليهم، فضعفوا وهزموا أمام العدو. وظل الأمر كذلك حتى جاء المرابطون في القرن الخامس الهجري، فرأوا أن خير طريقة لإصلاح الجيش هي إعادة النظام الإقطاعي العسكري من جديد، وفي ذلك يقول المؤرخ الأندلسي الطرطوشي في كتابه سراج الملوك «وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون: «ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم، وأمر العدو في ضعف وانتقاص، لما كانت الأرض مقطعة في يد الأجناد، فكانوا يستغلونها، ويرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربي التاجر تجارته، وكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة، والأجناد متوافرين، والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر، فردَّ عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال، وقدّم

على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا، وضعفوا عن العمارة، فقلّت الجباية المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد، وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها. ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدو في ظهور إلى أن دخلها المتلثمون (المرابطون) فردوا الإقطاعات كما كانت في الزمن القديم».

ضريبة الأرض الزراعية:

لعلنا نستطيع أن نتبين مدى ما وصلت إليه الزراعة في العالم الإسلامي إذا تصفحنا قوائم الخراج التي وردت في قائمة الجهشياري (ت 331 هـ) في كتابه الوزراء والكتاب، وهي تمثل الخراج في عصر هارون الرشيد (170 ـ 193هـ)، وقائمة ابن خلدون في مقدمته، وهي منسوبة إلى عصر المأمون (189 ـ 218هـ) وقائمة ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك، وهي تمثل خراج الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري، وقائمة قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) في كتابه الخراج وصنعة الكتابة وهي تمثل الخراج الكلي للدولة العباسية.

كذلك حفظت لنا المصادر الأندلسية مقدار جباية الأندلس في عصورها المختلفة فيروى ابن عذارى، وابن الكردبوس أن جباية الأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي بلغت خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانية آلاف دينار (5,408,000)، وأنه قسمها ثلاثة أثلاث. ثلث للجند، وثلث للشعراء والخطباء، والقضاء، وثلث مُدخر في بيت المال[1].

وقد حرصت الدولة الإسلامية من وقت لآخر على تحديد تاريخ مناسب لجباية الخراج السنوي يتفق مع تاريخ نضج المحاصيل وجمعها تخفيفاً عن الفلاحين.

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2، ص 231 ـ 232. ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس تحقيق، أحمد مختار العبادي، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1971، ص 59.

الحاصلات الزراعية:

كانت الحاصلات الزراعية في العالم الإسلامي كثيرة ومتنوعة بتنوع المناخ واختلافه من منطقة إلى أخرى. وأهم تلك الحاصلات، القمح والشعير والذرة والأرز. وكانت الحنطة أو القمح أهمها لأن معظم السكان كانوا يأكلون الخبز، ولهذا كان القمح يزرع في أي مكان في السهول والجبال وبخاصة المناطق التي يتوفر فيها الماء كالعراق والأندلس ومصر. وما يقال عن القمح يُقال عن الشعير. أما الذرة فكانت تزرع في الأماكن الجافة مثل جنوب شبه الجزيرة العربية والنوبة وكرمان. لأن البذرة تصلح زراعتها بالماء القليل مثل السمسم. أما الأرز فيزرع في الأماكن الرطبة الحارة الغزيرة الأمطار ويأتي في المرتبة التالية من حيث الأهمية، وقد أدخلت زراعة الأرز إلى بعض المناطق في العراق والأندلس وبخاصة منطقة بلنسية التي تعتبر المستودع الرئيسي للأرز في أسبانيا.

وكانت زراعة الخضروات منتشرة في مختلف الجهات من بلاد الإسلام أما الفواكه، فكانت أصنافها كثيرة. وكان العنب أكثرها يزرع منها في العراق والطائف واليمن والأندلس. أما شجر الزيتون وزيته، فيكثر في الشام وبلاد الأندلس وبلاد المغرب وكثيراً ما كان العنب والزيتون يزرعان في مكان واحد. وأحياناً يُضاف التين إليهما وقد اشتهرت الأندلس بهذه الأصناف الثلاثة ولا تزال إلى اليوم.

أما زراعة النخيل، فكانت تكثر في سواد العراق وبخاصة في منطقة البصرة التي كانت ولا زالت، تنتج أنواعاً كثيرة من التمور الجيدة، كما اشتهرت بعض بلدان بلاد المغرب بإنتاج التمور مثل قسطيلية وقابس، ولكن أشهرها كانت سجلماسة وهي مدينة ومقاطعة في أقصى جنوب المغرب الأقصى، وقد اهتم بها الجغرافيون العرب ومن بينهم البكري الذي يصف أرض سجلماسة بأنها كانت تزرع عاماً وتحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام، لأنه بلد شديد الحرارة، فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد وأرضهم مشققة فيقع ما يتناثر منه داخل الشقوق، فإذا كان العام التالي فإنهم يحرثون دون

بذر، وكذلك في العام الثالث وهكذا.

وقد اهتم المسلمون في المشرق بتنسيق الحدائق وزراعة الأزهار والرياحين مثل النرجس والياسمين والقرنفل والبنفسج والورد.

كما اشتهرت الأندلس بأراضيها وبساتينها وجنانها التي كانت متاحة للأغنياء والفقراء على السواء. ومنها جبل الورد بالقرب من قرطبة، وثنية الرصافة التي بناها عبد الرحمن الداخل على سفح جبل قرطبة في شمالها الغربي.

على أن ظاهرة إقامة الحدائق بقصور الأمراء والأغنياء ما لبثت أن شاعت في الأندلس. وقد اشتهرت ضواحي بلنسية بأزهارها وورودها التي كانت تعطر أجوائها بأريجها حتى عُرفت باسم «مطيِّب الأندلس» أي عطرها. ولا يفوتنا أن نشير إلى جنة العريف، وهو اسم الحديقة الشهيرة التابعة لقصر الحمراء مقر ملوك بني الأحمر ملوك مملكة غرناطة آخر دولة إسلامية بالأندلس.

كما لا يفوتنا أن ننوه بالجهود التي بذلها العلماء المسلمون في تقدم الزراعة فقد صنفوا فيها كتباً علمية، وأجروا عليها تجارب تطبيقية. ومن بين هؤلاء: أبو بكر أحمد بن وحشية الكلداني أو النبطي: والذي عاش في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وكتب كتاباً مشهوراً أسماه (الفلاحة النبطية) تعرض فيه لطرق الزراعة القديمة بابلية وآشورية ويونانية، وكذلك النظريات الزراعية التي كانت سائدة في البلاد العربية القديمة وبخاصة مملكة الأنباط أو البتراء، والتي قامت في جنوب الأردن حتى دمشق والأجزاء الجنوبية والشمالية من فلسطين وحوران ومدين إلى سواحل البحر الأحمر.

ومهما قيل عن هذا الكتاب إلاَّ أنه أفاد كثيراً، واعتمد عليه العلماء الذين جاؤوا في فترات لاحقة فدرسوه واختصروه وأضافوا عليه.

- أبو عبدالله محمد بن البصال:

ألف ابن البصال كتابه «القصد والبيان» الذي أصبح موضع مديح العلماء الذين عاشوا بعده، واعتبروه عملاً علمياً ممتازاً. وكذلك ألف أبو زكريا يحيى بن العوام كتابه «الفلاحة في الأرضين» استهله بمقدمة مدح فيها عمل ابن البصال الأندلسي، وأشار إلى أنه استفاد من كتابه المبني على تجاربه وعمله، وقد أوضح ابن العوام في كتابه طرق استخدام السماد ومنافعه وأنواعه والمياه وطرق تخطيط مجاريها، ونبه إلى الطرق المثلى في استغلال المياه في الزراعة دون إسراف، ونصح باستخدام جرار صغيرة تثبت بجذوع الشجر بحيث تصل المياه بجوار الشجرة نقطة نقطة وهذه الطريقة تستخدم في العصر الحديث فيما يُعرف (الري بالتنقيط)، وكذلك شرح ابن العوام طرق زراعة وغراسة الأشجار المثمرة وغير المثمرة، تناول منها ما يقرب من (600 نبات) منها 55 شجرة مثمرة، ثم تكلم عن عمليات التطعيم، والتشذيب والتقليم، ومكافحة الآفات والحشرات، والصقيع، والأمراض التي تصيب الأشجار وطرق حفظ البُذور والحبوب والتين والزبيب. ثم عرج في آخر كتابه على طرق تربية النحل، وتربية الماشية والدواجن وكيفية تغذيتها وعلاج أمراضها فالكتاب أشبه بدائرة معارف تاريخية عن الفلاحة فضلاً عن أنه يعطي فكرة عن الفلاحة في الأندلس.

على أننا لا ننسى ما قدمه الصيادلة المسلمون من جهود في مجال التعريف بالنباتات وخصائصها وإمكانية استخدامها في تحضير العقاقير الدوائية لعلاج عدد كبير من الأمراض.

كما أن جهود اللُغويين المسلمين في التعريف بأسماء الأشجار وأنواع الإنتاج الزراعي المختلفة في معاجم اللغة التي ألفوها بداية من الخليل بن أحمد الفراهيدي وكتابه العين والذي أورد فيه عدداً من أسماء الأشجار والنباتات. وابن الأعرابي الكوفي (ت 231هـ) في تصانيفه العديدة عن النخل والنبات والبقل وصفة الزرع. واللغوي المشهور عبد الملك الأصمعي (ت 216 هـ) في مؤلفاته العديدة مثل كتاب النخل والكرم، وكتاب النبات والشجر. وابن خالويه اللغوي وكتابه في أنواع الأشجار، والعالم اللغوي

الضرير أبو الحسن بن سيدة (ت 458هـ) وكتابه الكبير «المخصص» الذي يقع في 17 جزءاً خصص منه أبواباً كاملة عن الأرض والحرث والزرع والنبات. وكذلك ابن منظور (ت 711هـ) في معجمه لسان العرب الذي جمع فيه مادة غزيرة عن أسماء النباتات وما صُنف فيها من كتب.

وهكذا قدم المسلمون لعلم الزراعة نظرياً وتطبيقاً جهوداً أسهمت في تقدم هذا العلم، ومكنت الحضارة الحديثة أن تأخذ من حيث وصل المسلمون في هذا العلم الذي حققوا فيه تقدماً ملموسا.

الفصل السابع عشر

الحركة العلمية في الإسلام

الإسلام والعلم:

حث الإسلام على التعليم فدفع المسلمين دفعاً قوياً إلى العلم والتعلم، إذ إنه لم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم الدينية واللغوية توضع أصولها، وحتى أخذ العرب يُلموِّن بما لدى الشعوب المفتوحة من ثقافات متباينة، فسعوا إلى ترجمتها إلى لغتهم فنهض التعليم نهضة واسعة امتد أثرها في جميع بلاد الإسلام...

وعادة كان النشء يبدأ بالتعليم في الكتاتيب حيث يتعلم مبادىء القراءة والكتابة وبعض سور القرآن وشيئاً من الحساب وبعض الأشعار والأمثال[1].

وكان بعض معلمي هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضاً السنن والفرائض والنحو والعروض[2]. وكانوا يؤثرون في تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم.

---

(1) محمد بن سحنون: أدب المعلمين، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1972، ص 102.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين، ج 2، ص 214.

وكان يقوم بالتعليم - في أغلب الأحيان - معلمون متخصصون اشتهر من بينهم أبو البيداء الرياحي اللغوي، ومحمد بن السكن المحدث في المشرق. وأبو إسحاق الجبنياني (ت 369هـ) وأبو بكر يحيى بن خلفون المؤدب الهواري (347هـ) وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد القصري (ت 343هـ) في بلاد المغرب.

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادي أو الأبنوس يكتبون فيها دروسهم، وكلما حفظوا درساً محوه منها وأثبتوا مكانه درساً آخر. وكانت معاملة المعلمين للصبيان تختلف من معلم إلى آخر وإن اتصفت في أغلبها بالعنف والشُدة.

وكان المعلمون في الكتاتيب يتقاضون أجوراً زهيدة، لا تتجاوز أحياناً رغيفاً من الخبز يختلف في حجمه ونوعه باختلاف أحوال آباء الصبيان غنىً وفقراً.

وكان بجانب معلمي أولاد العامة في الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة، وكان منهم اللغوي والأخباري والفقيه والمحدث والمقرىء، وكانوا أحسن حالاً من معلمي أبناء العامة، وفي الغالب كان هؤلاء المؤدّبون يعلمون أبناء الطبقة الوسطى من أبناء المسلمين.

أما مؤدّبو أبناء الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والقواد ومن في طبقتهم فقد كانت تفرض لهم رواتب سخية. جعلتهم يعيشون في سعة من الرزق.

لقد أدت الكتاتيب الدور الأساسي في العملية التعليمية لأنها تعتبر المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الصبية مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم. وتعدهم إلى مرحلة التعليم في المسجد[1].

(1) بشير رمضان التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ج 2، ص 365.

التعليم في المسجد:

كانت المساجد ساحات التعليم الكبرى، فلم تكن بيوتاً للعبادة فحسب، بل إنها كانت أيضاً معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلقون حول الأساتذة، يكتبون ما يلقونه أو يملونه، وكان الأستاذ يستند عادة إلى إسطوانة في المسجد، ثم يأخذ في إلقاء محاضرته أو إملائها، وفي الحلقات الكبيرة كان يردد مستمل كلامه حتى يسمعه ويكتبه من بَعُدَ عن الحلقة، وكان لكل فرع من فروع المعرفة حلقة، فحلقة لفقيه، وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمفسر، وحلقة للغوي، وأخرى لنحوي وثالثة لمتكلم، وكانت حلقات الفقهاء أكثر الحلقات ازدحاماً، وكان يقصدها الطلاب الذين يريدون أن يتولوا مناصب في القضاء أو الحسبة، وكذلك الحال في حلقات المتكلمين! إذ يلتقي فيها أصحاب الملل والنحل المختلفة يتجادلون ويتناظرون.

ولم تكن هناك شروط للحصول على المعرفة سوى الرغبة من الشخص المتلقي في السماع والتي كانت مباحة لكل وارد كي يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة. وكان لتلك السياسة التعليمية الإسلامية نتائجها الكبيرة والتي أدت إلى:

1 ـ كثرة العلماء المتخصصين في كل علم وفن، حتى إنه يُروى أن النضر بن شُميل تلميذ الخليل بن أحمد الفراهيدي حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيعه نحو ثلاثة آلاف شخص بين محدث ونحوي ولغوي وعروضي وأخباري[1]. ولا بُد أنْ يكون وراء هذا العدد الضخم من العلماء عدد آخر من العلماء الذين تخلفوا عن توديعه وتشيعه. وإذا كانت البصرة قد اشتملت على هذا العدد الكبير من العلماء فإنه مما لا شك فيه أن بغداد كانت تشتمل على أضعاف هذا العدد وكذلك الحال في سائر بلاد الإسلام مشرقاً ومغرباً.

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج 9، ص 238.

2 ـ أما الظاهرة الثانية فهي ظهور طبقة من العلماء والأدباء الذين نوعوا معارفهم تنويعاً واسعاً، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة متخصصة واحدة، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين من كل علم بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون رجال الصحافة في أيامنا هذه. الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثاً علمياً شائقاً في كل صور المعرفة والثقافة. وكان يطلق على هذه الطائفة في البصرة مثلاً اسم المسجديين، وكانت لهم حلقات خاصة بهم في المساجد تقوم على استعراض معلومات مختلفة يتم فيها الجدال والنقاش. وكثيراً ما كان علماء هذه الطبقة لهم سوق نافقة لدى الخلفاء والوزراء وعلية القوم، إذا كانوا يستطيعون أن يُطرفوهم بالأحاديث المسلية ويروحون عنهم في ساعات سرورهم وغضبهم، وذلك بما يوردونه من أخبار وطرائف.

وقد استقر في أذهان الناس في العصر العباسي أن كلمة الأدب تعني الأخذ من كل علم وفن بطرف.

وبالرغم من أن الخلفاء قد أغدقوا عطاياهم على هذه الطبقة من العلماء غير المتخصصين فإنهم لم يحرموا العلماء المتخصصين، بل كثيراً ما كانوا يغدقون عليهم عطاياهم الجزيلة، وجاراهم في ذلك الولاة وكبار القادة، وكان أول من سن ذلك وجعله تقليداً للدولة الخليفة المهدي العباسي فإنه أكثر من مكافأة العلماء مما جعلهم يشدون إليه الرحال من كل بلدة. واقتدى به في ذلك ابنه الرشيد، ويُقال إنه وصل الأصمعي يوماً بمائة ألف درهم[1].

وكان المأمون أكثر الخلفاء العباسيين اهتماماً وعطاء للعلماء فقد أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرو خمسين ألف درهم[2].

وليس من شك في أن تشجيع الخلفاء وبخاصة في العصر العباسي - للعلماء كان من أهم أسباب ازدهار الحركة العلمية بالمساجد، إذ كان من

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 6، ص 541.

(2) القفطي: أنباء الرواة على أنباء النحاة، ج 3، ص 349.

يبرز نجمه في حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء، فإذا العطايا تسبغ عليه وإذا الرواتب تفرض له شهرياً.

وبالرغم من وجود فئة من العلماء المتكسبين بعلمهم، فإن عدداً من علماء الفقه والحديث ـ خاصة ـ كانوا لا يبغون بعلمهم سوى ثواب الله. ولعله من أجل ذلك شاع بينهم التكسب من الحرف أو التجارة كأبي حنيفة كان بزازاً (تاجر قماش).

لقد أشاع الإسلام جواً من الحرية والتسامح لم يعرفهما العالم من قبل، فأباح الاستفادة بالعناصر البناءة في ثواب السابقين ـ يهوداً كانوا أو نصارى أو وثنيين، عرباً كانوا أم أعاجم ـ ولم يمانع أن يتعلم المسلم على يد معلم غير مسلم، وأن يقوم طبيب غير مسلم بعلاج مريض مسلم. ويكفي أن نشير إلى أن جيورجيس بن بختشيوع الفيلسوف الطبيب النصراني، ونوبخت وولده سهل ـ الفارسيين المجوسيين ـ كانوا جميعاً من العلماء المقربين من الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي. وقد وكّل الرشيد ديوان الترجمة إلى يوحنا بن ماسويه فظل يوحنا في خدمة الخلفاء العباسيين حتى عهد المتوكل[1] وكذلك استخدم الأغالبة أطباء من اليهود أمثال إسحاق بن عمران الإسرائيلي وسليمان بن عمران وغيرهم في بلاد المغرب[2].

وحسب الإسلام أنه آتخذ من أسلوب المحاورة والمنطق السليم وإمعان العقل، في الدعوة إلى الإيمان بالله يرتكز على التأمل في آيات الله الباهرة من شمس وقمر ونجوم، وتعاقب الليل والنهار، واختلاف الظل... ويطالب المسلم أن يمعن التفكير فيما خلق الله ويتعقله..

هذا إلى أن الإسلام اتخذ السلام شعاراً له وجعل منه تحية المسلم، وبذلك حقق للناس جميعاً دون استثناء الأمن والطمأنينة التي لم يعرفها أي

---

(1) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، 1970، ص 487.

(2) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق حياة العبد بوعلوان، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى 1985، ص 203.

جزء من أجزاء العالم من قبل. وفي ظل ما ساد العالم الإسلامي من استقرار وأمن، صار في وسع أهل العلم والفكر ـ من معلمين ومتعلمين ـ أن يباشروا نشاطهم في هدوء وراحة بال، وأن ينتقلوا من بلد إلى آخر في المشرق والمغرب جميعاً آمنين.

وإذا كانت الرحلة لها أهدافها السامية الكبرى في الإسلام، فإن طلب العلم كان في مقدمة هذه الأهداف، بحيث غدا من المألوف أن يشد طالب العلم الرحال إلى بلد بعيد ليحظى بشرف الأخذ على يد شيخ أو أستاذ سمع عنه ورغب في التتلمذ على يديه، وهو حيثما نزل وحل لا يشعر بالغربة أو الخوف.

وكان من الطبيعي أن يتصدر الفكر الديني الحركة العلمية في الإسلام، إذ من واجب المسلم أن يتعلم أصول دينه والأبعاد الحقيقية لذلك الدين. إذ يروى عن أحد الفقهاء قوله: إن الغرض من التعليم هو أن تظهر به سُنة أو تُخمد به بدعة، أو يُتعلم به حكم من أحكام الدين. غير أننا عندما نقول إن المسلمين بدأوا حياتهم الفكرية والعلمية من منطلق العلوم الدينية، فإن علينا ألا نعتقد أن الإسلام كان مجرد ظاهرة محدودة الأفق ترتبط بركن واحد من أركان الحياة. بل إن الإسلام ثورة كبرى شاملة، أتت بمفاهيم جديدة عن الحياة الدنيا والآخرة. ونظر نظرة عميقة إلى الحياة ومشاكلها وأبعادها، وطلب من أتباعه أن ينظروا إليها من زاوية جديدة اختلفت عن تلك التي أطل منها غير المسلمين على جوانب الحياة المتعددة.

لقد وضع الإسلام الإطار العام للحياة بين الحاكم والمحكوم، وبين الناس بعضهم ببعض. ووصفت الشريعة حدوداً لهذه المعاملات. سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها. ولذا كان من الطبيعي أن ينكب المسلمون على فهم تعاليم الإسلام وتفسيرها ـ سواء في الأمور الدينية أو الدنيوية ـ لأنه في ضوء هذه التعاليم يتحدد سلوكهم السليم، ويحققون النجاح في دنياهم وآخرتهم.

ومن هذا المنطلق يمكن تقسيم العلوم عند المسلمين إلى:

أولاً ـ العلوم الدينية:

1 ـ القرآن الكريم:

من الخطأ أن يعتبر البعض أن القرآن الكريم مجرد كتاب ديني يُبشِّر بعقيدة جديدة. إلاّ أنه في حقيقة أمره ظاهرة حضارية كبرى تسمو بالحياة الإنسانية إلى أزهى مراتبها من السمو الروحي والفكري والاجتماعي. ونستطيع أن نؤكد أن القرآن الكريم يمثل حجر الزاوية في بناء أعظم حضارة إنسانية عرفتها العصور الوسطى.

ومن المعروف أن القرآن الكريم هو كتاب الله أنزله الروح الأمين (جبريل عليه السلام) على قلب محمد بن عبدالله ليكون دستوراً أبدياً خالداً. يهدي البشر في كل زمان ومكان. والهدف الأساسي من القرآن الكريم هو هداية الناس: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾. وإخراجهم من الظلمات إلى النور والمعرفة الحقة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

وقد نزل القرآن مجزءاً على مدى بضع وعشرين عاماً، وحفظه عدد من الصحابة، وقد أمر الرسول الكريم بكتابته، واختار لهذه المهمة عدداً من الصحابة ممن يعرفون الكتابة وطلب منهم تدوين ما ينزل عليه من آيات الله. ولذا أطلق عليهم اسم كُتَّاب الوحي. وكانت الكتابة تتم بالوسائل المتاحة، على رقاق من الحجارة المصقولة، وجريد النخيل، والجلد، والعظام ونحوها.

ثم كانت الخطوة الثانية وهي جمع القرآن الكريم في كتاب واحد، ولم تتم هذه الخطوة إلاّ في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق بإشارة من عمر ابن الخطاب وذلك بعد موت عدد من حفاظ القرآن في حروب الردَّة. وبموافقة أبي بكر تم تكليف زيد بن ثابت القيام بهذه المهمة الصعبة وفي ذلك يقول زيد: «والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن».

وبعد مراحل صعبة تم جمع القرآن وكتابته من صدور الحفاظ. على أن ذلك لم يكن قد جُمع في مصحف واحد، وإنما المقصود وهو جمع الصحف العديدة التي فيها آيات القرآن الكريم وسوره.

وقد حفظت صحف القرآن بعد جمعه وتسجيله عند أبي بكر حتى وفاته، ثم انتقلت إلى عمر بن الخطاب، ثم إلى حفصة بنت عمر.

ثم جاءت مرحلة جمع القرآن في كتاب واحد، وتم ذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إذ يحدثنا أنس بن مالك عن نشأة فكرة جمع القرآن عند عثمان، فيقول: قدم حذيفة بن اليمان على عثمان ـ وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ـ فأفزع حذيفة اختلافهم في قراءة القرآن، وقال حذيفة لعثمان: «يا أمير المؤمنين: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى». فأرسل عثمان إلى حفصة ابنة عمر أن أرسلي إلينا بالصحف، فنخطها في المصحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وأوصى عثمان اللجنة التي شكلها لتجمع القرآن بقوله: «إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم». وبعد نسخ المصاحف رد الأصل إلى حفصة، ثم أرسل لكل بلد إسلامي نسخة منه، وأمر بإحراق المصاحف الأخرى.

ولما كان القرآن الكريم هو دستور الإسلام والمسلمين، والمصدر الأول الذي تستقى منه أحكام الإسلام وشريعته وآدابه، فقد عكف المسلمون على قراءته واستيعابه، لأن في ذلك صلاح دينهم ودنياهم.

ومن ثم ارتبطت بالقرآن الكريم عدة علوم. أهمها علم القراءات ـ وعلم التفسير وعلم الحديث، وعلم الشريعة.

1 ـ علم القراءات:

أدى انتشار الإسلام في كثير من الأقطار إلى تباين في نطق بعض

الألفاظ في القرآن الكريم مع عدم الإخلال بوحدة المعنى، الأمر الذي دفع المهتمين بعلوم القرآن إلى تدارك تلك الفجوة، فاختير من أئمة القراء المشهورين بالثقة من مختلف الأمصار سبعة كلهم من أهل العلم والدراية ومشهود لهم بالأمانة، واعتبرت قراءاتهم هي القراءات السليمة، وكل قراءة من هذه القراءات لها سند ثابت وهؤلاء القراء السبعة هم: ابن عامر (ت 118 هـ) ابن كثير (ت 120هـ)، عاصم بن أبي النجود (ت 127)، وأبو عمرو المازني البصري (ت 154هـ)، وحمزة بن حبيب الكوفي (ت 154هـ)، ونافع ابن عبد الرحمن (ت 169هـ)، وأبو الحسن الكسائي (ت 189هـ).

وهناك قراءات ثلاث زيدت على هذه القراءات السبع، ولكنها موضع جدل واختلاف بين القراء، ثم ألحقت بالقراءات السابقة قراءات أربع أخرى، أجمع القراء على شذوذها، ولو أنها قريبة في الرواية والسند من روايات وإسناد القراءات السبع أو العشر[1].

وعندما كثر القراء وتفرقوا في البلاد، ظهر منهم المتقن للتلاوة المستندة إلى أساس من العلم والرواية والسند. ومنهم غير المتقن. لذلك وضع ابن الجزري وهو شمس الدين أبو الخير محمد (ت 833هـ) مقاييس للقراءة الصحيحة لخصها بقوله: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أو العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين... ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها خفيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أو عمن هو أكبر منهم...»[2].

ومن ثم يكون ابن الجزري قد وضع ثلاثة مقاييس للقراءة الصحيحة

---

(1) ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ص 361.

(2) المصدر نفسه، ص 361.

للقرآن هي:

1 ـ موافقة العربية ولو بوجه.

2 ـ موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

3 ـ صحة سند القراءة.

وقد لوحظ أن تباين القراءات لم يخل من فائدة. لخصها ابن الجزري فيما يلي:

1 ـ التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة.

2 ـ إن هذا التباين يدل على قوة البلاغة وكمال الإعجاز وجمال البيان.

3 ـ يستدل أيضاً على عظيم البرهان، لأنه مع كثرة التباين وتنوع القراءات لم يحدث خلل في المعنى أو تناقض في المفاهيم. وإنما تختلف القراءات والمعنى واحد «يصدّق بعضه بعضاً، ويبين بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد...».

4 ـ يؤدي هذا التباين إلى سهولة حفظ القرآن وتيسير نقله على هذه الأمة، وبخاصة أنه على مستوى كبير من البلاغة والإيجاز، لأن من يحفظ كلمة ذات أوجه، كان ذلك أسهل عليه وأقرب إلى فهمه وأوعى لقبوله من حفظه جملاً من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات المختلفات.

2 ـ علم التفسير:

نشأ علم التفسير كفرع من فروع الحديث، يكاد يقتصر على الأحاديث التي أثرت عن النبي عليه الصلاة والسلام، والتي تتناول فضائل القرآن الكريم وتفسير بعض آياته. ثم أخذ يتطرق بإيجاز إلى توضيح المعنى اللغوي بألفاظ محدودة موجزة. ثم اجتهد الصحابة والتابعون جهدهم في تفسير بعض آيات القرآن وسبب نزولها، حتى أصبحت قضية التفسير متابعة جيلاً بعد جيل[1].

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 348.

ولم تأتِ تلك التفسيرات باديء الأمر مرتبة وفق ترتيب المصحف، ولكنها جاءت متفرقة متناثرة، وهكذا حتى صار التفسير علماً مستقلاً منفصلاً عن الحديث. ومع نشاط الحركة الفكرية وتطورها أخذ التفسير يواكب ذلك التطور ليصبح صورة عاكسة لما حفل به العصر الجديد من تيارات فكرية ونظريات علمية، ومذاهب دينية. وبدأ المفسرون يتعرضون لآيات القرآن الكريم يستنبطون منها الأحكام العامة والخاصة بالمعاملات والأسرة والاقتصاد وشؤون المجتمع وغيرها، فضلاً عن قواعد اللغة والنحو والبلاغة.

وهكذا غدا القرآن منبعاً لجميع العلوم التي ازدهرت في العصر العباسي، فعلماء النحو اتخذوا منه مادة خصبة اعتمدوا عليها في استنباط قواعد اللغة العربية، والفقهاء استنبطوا منه آراءهم الفقهية، والمؤرخون وجدوا في القرآن الكريم مصدراً للرواية التاريخية ولم تلبث أن أصبحت كتب التفسير موسوعات ضخمة لغوية وأدبية وفقهية وتاريخية وعلمية.

ومن أشهر المفسرين ومؤلفاتهم نذكر الطبري (ت 310 هـ/ 923م) وكتابه جامع البيان في تفسير القرآن، والبغوي (ت 516هـ/ 1122م) وكتابه معالم التنزيل، والرازي (فخر الدين) (ت 606 هـ/ 1209م): وكتابه التفسير الكبير، والبيضاوي (ت 685هـ/ 1286م) وكتابه: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. وأبو حيان الأندلسي (ت 745هـ/ 1353م) وكتابه: البحر المحيط[1].

3 ـ علم الحديث:

ونقصد به ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير. ولا شك أن للحديث أهمية كبيرة في حياة المسلمين. تأتي بعد القرآن مباشرة. لأنه يمثل تراث نبيهم عليه الصلاة والسلام، الذي هو قدوتهم في حياتهم الخاصة والعامة.

وكان أغلب الحديث قد حفظ في الصدور، وإن كان بعضه قد دوِّن

---

(1) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص 168.

في صحائف عرفت بصحائف الحديث.

ومن المعلوم أن كثيراً من قضايا الدين قد جاءت في القرآن مجملة وأن النبي عليه الصلاة والسلام قد أوضحها بالقول أو الفعل، وقررها لجماعة المسلمين مثل الوضوء والصلاة. هذا إلى جانب أنه في مرحلة تنظيم المجتمع الإسلامي الوليد عرضت للرسول مسائل وأحكام تصرف فيها، ووجد الحلول المثلى لها، مما جعل منها جميعاً سوابق وأحكاماً يأخذ عنها المسلمون ويقيسون عليها ما يستجد في مجتمعهم من مسائل مشابهة. وحسب الحديث أهمية قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

وتكمن الصعوبة بالنسبة للحديث في أنه لم يدّون أو يسمح بتدوينه في حياة الرسول لنهيه عن ذلك حتى لا يختلط بالقرآن من ذلك ما يروى عنه قوله: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه. وحدثوا عني فلا حرج. ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**».

وهكذا نهى الرسول الكريم عن تدوين الحديث في الوقت الذي اتخذ فيه كُتاباً للوحي يدونون ما ينزل على قلبه من القرآن، مما أدى ـ عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ إلى وجود كتاب مدّون هو القرآن الكريم، وأحاديث غير مدونة أثرت عن الرسول صلى الله عليه وسلم تروى شفاهاً. وحفظت في الغالب في صدور الرجال. وكان على المسلمين أن يعملوا بالقرآن والحديث جميعاً لأن الحديث جاء مفصلاً ومتمماً للقرآن.

على أن عدم تدوين الحديث مدة ثلاثة وعشرين عاماً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بدء الوحي حتى وفاة الرسول ـ جعل من الصعب بعد ذلك حصره وجمعه.

وقد دعت ظروف التطور في المجتمع الإسلامي والتغيرات التي حدثت بدءاً من منصب الخليفة الذي كان قائماً على الشورى إلى حكم الوراثة في العهدين الأموي والعباسي وما تبع من اختلاق لأحاديث نسبوها إلى الرسول

دفع ذلك بعض الحريصين على صورة الإسلام المشرقة وتراثه الوضاء إلى تنقية الحديث واستبعاد المدسوس فيه. ووضع قواعد ومعايير لاكتشاف الموضوع. والتمييز بين الحديث الصحيح والحديث الضعيف والمدسوس، وأدى هذا إلى الاهتمام بالحديث، وأطلق على المشتغلين به المحدّثون والحفاظ.

والواقع أنه لم تجر محاولات جادة في القرن الأول الهجري لجمع الحديث النبوي بعد تنقيته، مثلما جرى من جهود لجمع القرآن الكريم، ولعل ذلك يرجع إلى أن الخلفاء قد سمعوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى في وقت ما عن ذلك. هذا بالإضافة إلى صعوبة المهمة، وصعوبة التثبت من الحديث الصحيح. رغم كل المقاييس التي وضعت لتنقية الأحاديث مما دخلها من دس ووضع. ولذلك شرع العلماء في القرن الثاني الهجري في جمع ما صح لديهم من أحاديث، وشرعوا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري في التأليف. واتبعوا في ذلك طريقتين الأولى تأليف المسانيد والثانية التأليف على الأبواب.

ففي الطريق الأولى يرتبون الأحاديث على حسب الرواة من الصحابة، فتجمع الأحاديث التي رواها أحد الصحابة في موضوعات مختلفة من صلاة ومعاملات وجهاد وغيرها.

وفي الطريقة الثانية يكون الجمع على أساس موضوعي، فتحت باب الصلاة تجمع الأحاديث في هذا الباب على تعدد رواتها.

ثم كان أن شهد علم الحديث نشاطا كبيراً في مطلع القرن الثالث الهجري بعد أن اتسعت حركة الجمع، وتعمق الناقدون في التدقيق للتمييز بين الصحيح والضعيف، إذ شهد هذا القرن إنجازات محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ) ومسلم القشيري (ت 261هـ) والترمذي (ت 279هـ) وغيرهم من كبار المحدثين في المشرق والمغرب[1]. واتصفت حياة معظم

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 350.

هؤلاء بالرحلة في طلب الحديث وجمعه، كما اتصفوا بقوة الذاكرة والقدرة على الاستيعاب والحفظ والمهارة في نقد الرجال والتمييز بين الصادق وغير الصادق، حتى استطاعوا نتيجة ذلك الجهد من استخلاص الأحاديث الصحيحة بعد عملية غربلة واسعة دقيقة.

وقد تفرعت عن علم الحديث عدد من العلوم. كعلم التاريخ الذي بدأ عند المسلمين فرعاً من فروع الحديث على أن المؤرخين الأوائل قد اتبعوا أسلوب المحدثين في الإسناد، حتى استقل علم التاريخ بعد ذلك وصار علماً قائماً بذاته وقبل ذلك يُقال عن التفسير، كما استمد التشريع الإسلامي ركناً هاماً من أركانه من الحديث.

4 ـ علم الفقه:

الفقه لغة العلم بالشيء والفهم له. والفقه اصطلاحاً: العلم بالدين والفهم له. فالفقه الإسلامي إذن: هو التعمق في فهم الدين الإسلامي والقدرة على استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الرئيسية المتمثلة في القرآن والسنّة.

وقد اهتم المسلمون بالتشريع منذ وقت مبكر، وما زال هذا التشريع ينمو مع نمو دولة الإسلام مبرهناً على ديناميكية هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان.

والمعروف أن العرب في جاهليتهم عاشوا في ضوء الأوضاع القبلية التي أملتها عليهم ظروف البيئة، فكانت رابطة الدم هي الرابطة الأولى التي يتعصبون لها، وعلى القبيلة أن تدافع عن أبنائها، تثأر لمن يتعرض منهم لعدوان. وتطالب بدمه إذا قتل، والحكم في ذلك كله لما تعارف عليه الناس «وسمي بالعرف» ويكون الاحتكام بين أفراد القبيلة بعضهم وبعض، أو بينهم وبين القبائل الأخرى لشيوخ القبائل، وربما الكهان وذوي الرأي الراجح المعروفين بالخبرة والتجربة والفكر الصائب.

وعندما ظهر الإسلام مستهدفاً الإصلاح، وليس التغيير لمجرد الرغبة في التغيير. وهكذا تعرض الإسلام لعرف العرب وتقاليدهم في الجاهلية،

فأقرّ منها ما لا يتعارض مع أحكام الدين الجديد وآدابه وروحه، وعدّل منها ما يمكن تعديله، ورفض كل ما لا يتفق وروح الدين وآدابه وأحكامه. والمصدر الأول للفقه (التشريع الإسلامي) هو القرآن الكريم الذي أنزل منجماً على بضع وعشرين سنة، أكثر آياته المدنية هي آيات تشريعية، بحثت في الأمور الدنيوية ونظمت علاقة الأفراد ومجتمعهم، وتعرضت لأمور البيع والشراء، والزكاة وأنواعها والعائلة وحياتها الاجتماعية وما شابه ذلك... والقرآن كلام الله لا تبديل فيه ولا تغير والتشريع الإسلامي على هذا النحو تشريع إلهي بعكس التشريعات والأعراف التي يصوغها البشر.

وقد أخذ التشريع الإسلامي ينمو تدريجياً وفقاً لحاجات المجتمع، وما كان يُعرض له من حوادث ويستجد من أحداث، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ـ يصدر الأحكام فيما يحدث بين المسلمين أو يسألون عنه، ويحدد لذلك نوع العقوبة التي يعاقب بها المذنب أو المخالف.

وبعبارة أخرى فإن نمو التشريع الإسلامي في المدينة المنورة سار سيراً مطرداً مع نمو الجماعة الإسلامية، وتطور المسلمين الحضاري في ظل تعاليم الإسلام ومثله. واستهدف التشريع إقامة صرح كبير على أسس من الخير والحق والعدل والمحبة والحرية. ولم يترك الإسلام جانباً من جوانب الحياة الخاصة أو العامة إلا شرع له. فشرع لحقوق المرأة زوجة كانت أو أماً أو أختاً أو ابنة. ولحقوق الوالدين على الأبناء، ولحقوق المحكوم على الحاكم ولحقوق الجار على جاره.

وإذا كان القرآن الكريم هو المصدر الأول للشريعة الإسلامية، بوصفه دستور الإسلام والمسلمين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولكونه كتاباً سماوياً صالحاً لكل زمان ومكان فإن الأحكام التي صدرت عنه أحكامٌ كلية لا تتعرض للمسائل الجزئية الصغيرة. وكان لا بد للمسلمين من الالتجاء للرسول لتوضيح ما أشكل عليهم فهمه فيسألونه ويستوضحونه ويستفتونه، مما جعل من السنّة النبوية المصدر الثاني للشريعة الإسلامية.

وهكذا فإن القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي، مما جعل من ذلك التشريع قانوناً دينياً مستمداً من كتاب الله عزّ وجل، وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام.

ومع اتساع حركة الفتوح الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من شعوب البلاد المفتوحة وتباين عاداتها وتقاليدها وأعرافها مع الفاتحين أدى كل ذلك إلى ظهور مشاكل وقضايا جديدة ليس لها أحكام صريحة في الكتاب أو السنة، مما دعا إلى الاجتهاد وإعمال الرأي والعقل لحلها.

وفي تتبعنا لتاريخ الفقه (التشريع) الإسلامي عند المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين نجد أنه بعد أن كان أبو بكر الصديق يفصل فيما يعرض عليه من قضايا وذلك بعد أخذ رأي الصحابة، اضطر الخليفة عمر بن الخطاب نتيجة لاتساع الفتوح الإسلامية - إلى تعيين قضاة في الأمصار. وهؤلاء استعانوا بمن كان حولهم من الصحابة والتابعين الذين نزحوا إلى الأمصار واستقروا فيها.

أما في العصر الأموي فإن التشريع لم يحظ باهتمام كبير من جانب الخلفاء الأمويين - باستثناء القليل منهم مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز - ولم يتصلوا بالفقهاء ورجال التشريع إلاّ في حالات قليلة نادرة، واكتفوا بتعيين القضاة وأطلقوا أيديهم في الحكم بين الناس. وليس من الحقيقة في شيء ما أشاعه بعض المستشرقين من أن التشريع الإسلامي تأثر في العصر الأموي بالقانون الروماني. ذلك أن الشريعة الإسلامية لها روحها ومصادرها وخصائصها المميزة وإذا وُجد تشابه جاء نتيجة لحرص الشرائع المتباينة - إلهية كانت أو وضعية راقية - على تحقيق العدالة والخير للمجتمع. فإن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن المسلمين تأثروا بمدارس القانون الروماني التي وجدت في بعض مدن الشام عند الفتح الإسلامي.

وبقيام الدولة العباسية دخل التشريع مرحلة جديدة، وذلك أن العباسيين استغلوا وضعهم باعتبارهم من آل البيت النبوي - فأضفوا على أنفسهم

وخلافتهم صبغة دينية. وصحب ذلك اتصال الخلفاء العباسيين بالعلماء والفقهاء وتقريبهم منهم، والتدخل في الشؤون الدينية، ومحاولة صبغ كل أعمال الدولة بصبغة دينية واضحة.

وكان أن تركت هذه السياسة أثراً واضحاً في الفقه والتشريع بصفة خاصة فنما الفقه نمواً كبيراً ساعد عليه التوسع في الاجتهاد من ناحية، واتساع رقعة الدولة الإسلامية وانتشار الإسلام من ناحية أخرى. أما فتح باب الاجتهاد فقد أدى إلى اختلاف وجهات النظر في بعض المسائل الفقهية التي لم يرد فيها نص صريح في القرآن والسنّة. فكثرت المناظرات بين العلماء، مما ترك أثراً في إثراء الحياة الفكرية بوجه عام وفي نمو التشريع بوجه خاص وأما اتساع الدولة الإسلامية وازدياد عدد الداخلين إلى الإسلام تبعاً لذلك فكان معناه تنوع المواهب وتباين وجهات النظر، ونشاط الرحلة في طلب العلم في مشارق الأرض ومغاربها، فضلا عن أن فقهاء الإسلام كان لا بد لهم من تجديد موقفهم من تراث شعوب البلاد المفتوحة التي دخلت الإسلام بتقاليدها وعاداتها وأعرافها وقوانينها.

على أن ما يميز النشاط الفقهي في العصر العباسي كان ظهور المذاهب عند أهل السنّة فضلاً عن فقه الشيعة والخوارج الذي لا يخلو من اجتهادات واضحة، ويعبر عن وجهة نظرهم في المسائل الخاصة والعامة. مما يدل على ديناميكية الفكر الإسلامي وخصوبته وصلاح هذا الدين لكل زمان ومكان.

ثانياً: علوم اللغة والآداب:

سبق الإشارة إلى العلوم الدينية في الإسلام، وهي العلوم التي شكلت حجر الزاوية فيما أسماه علماء الإسلام «العلوم النقلية» وتشتمل هذه المجموعة من العلوم النقلية ركناً آخر من العلوم النظرية غير التجريبية أهمها العلوم اللغوية والأدب والتاريخ. ومن الأهمية بمكان أن نؤكد على جميع العلوم لما لها من أهمية في صقل حياة الفرد والمجتمع. حتى أن جزءاً كبيراً

منها نسميه اليوم بالعلوم الإنسانية. وعلى رأس هذه العلوم تأتي اللغة العربية وعلومها وآدابها بوصفها أداة التعبير عن الحضارة الإسلامية بعلومها وفكرها.

1 ـ اللغة العربية:

لعل كثرة المترادفات في اللغة العربية فضلاً عن المرونة والقدرة على صياغة المشتقات من ألفاظها هو الذي جعلها أغنى اللغات السامية وأرقاها. مع سهولة التعبير الدقيق داخل إطار من سمو البلاغة وسحر البيان. وحسب اللغة العربية أنها لغة القرآن الكريم الذي وصف لسانه بأنه عربي مبين.

وبفضل قوة اللغة العربية وغناها وقدرتها على البحث واشتقاق اللفظ المعبر، استطاعت أن تكون أداة صالحة للتعبير عن أعظم حضارة عرفها العالم في العصر الوسيط ذلك أنها قد احتوت علوم اليونان والفرس والهنود وغيرها من الحضارات السابقة وعبرت عن علومهم بما فيها من معان ومصطلحات لم يكن للعرب معرفة بها من قبل تعبيراً علمياً دقيقاً وهكذا تفوقت اللغة العربية على غيرها من اللغات السابقة لها كالسريانية والنبطية واليونانية وغيرها. في حين انكمشت اللغة الفارسية، ولم تعد أكثر من لغة تخاطب ونقاش بعد أن استخدم أدباء الفرس وعلماؤهم اللغة العربية في الكتابة والإبداع الذي تفتقت عليه قرائحهم في ظل الإسلام.

ومهما قيل عن سبب انتشار اللغة العربية فإن العامل الأساسي في هذا الانتشار يرجع إلى انتشار الإسلام. ذلك أن دخول أهالي البلاد المفتوحة إلى الإسلام ترتب عليه حرصهم على الوقوف على أحكام هذا الدين الجديد، والإحاطة بسيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام، والرجوع إلى القرآن وتلاوته بلسانه العربي المبين. ذلك أن انتشارالإسلام سبق انتشار اللغة العربية. وحتى البلاد التي انتشر فيها الإسلام عن طريق التجارة ولم تطأها أقدام جيوش الإسلام مثل جنوب آسيا وشرقها وأجزاء كبيرة من أفريقيا، فإنه يندر أن تجد مسلماً فيها لا يعرف العديد من مفردات اللغة العربية. ومن الطبيعي أن يهتم العلماء المسلمون منذ وقت مبكر بعلم اللغة، فاتجه العلماء إلى البادية

يجمعون الكلمات والمرادفات التي استعملها العرب، في الوقت الذي رحل فيه عرب البادية إلى الحضر ليأخذ العلماء عنهم. وبالرغم من أن علماء اللغة نحوا نحو علماء الحديث، فكانوا يذكرون السند، ويرتبون الأفصح بالفصيح، ومع ذلك فإن صعوبات عديدة اعترضت عملية جمع اللغة، ومنها أن اللغة لم تكن منقوطة أو مشكولة، وأن بعض علماء اللغة لم يكن على ثقة فيما يرويه، فضلاً عن قلة معرفة العلماء الأوائل بلغات من حولهم من الشعوب كالفرس والروم والسريان. وكان القرآن الكريم أول مصدر جمع منه العلماء مفردات اللغة العربية، وذلك بحكم أنه يمثل قمة البيان في اللغة ـ ولما حواه من ثروة لغوية دسمة من ناحية ثانية وبعد ذلك جاء دور الشعر الموثوق بصحته ونسبته، وتم جمع الكلمات في أول الأمر حيثما اتفق، فهذه كلمة في النبات والزرع وأخرى في السلاح والسيف، وثالثة في الحيوان والإبل... وهكذا. وبعد ذلك جاءت المرحلة التالية التي تقوم على جمع الكلمات ذات الموضوع الواحد في كتاب واحد فهذا كتب في النحل وآخر في العسل وثالث في المطر... وهكذا. ثم جاءت المرحلة الثالثة وهي وضع معجم شامل للكلمات العربية، وكان أول من فكر في اتخاذ هذه الخطوة هو الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري (100 ـ 175 هـ). وقد رتب الخليل بن أحمد الكلمات على حسب أوائلها مراعياً مخارج الحروف فبدأ بحروف الحلق وهي: ع، ح، هـ، خ، غ، ف، ك. ج، وبعد ذلك جاءت حروف الحنك وهي: ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ظ، ذ، ت، ر، ل، ن وتتبعها حروف الشفاه وهي: ف، ب، م، وأخيراً الحروف الهوائية، هي حروف العلة: و، أ، ي.

وقد سمّى الخليل بن أحمد كتابه: «كتاب العين» باعتباره بدأ بحرف العين. ومن الطبيعي أن يتبع جهد الخليل بعد ذلك جهود العلماء آخرين، وبخاصة أن عمل الخليل بن أحمد لم يكن عملاً متكاملاً ولكنه كان محاولة إبداعية خلاقة ومبتكرة. وبعد الخليل جاء الجوهري في القرن الرابع الهجري فاخترع النمط الذي جرى عليه فيما بعد صاحب القاموس المحيط، ولسان

العرب وغيرهما من معاجم اللغة التي بلغت درجة من الرقي تفخر بها اللغة العربية.

2 ـ الآداب:

اهتم العرب منذ العصر الجاهلي بالأدب وبخاصة الشعر، ذلك أن طبيعة شبه الجزيرة العربية وصفاتها ساعدت على إنتاج نوع من الشعر الرقيق في الغزل والفخر والمدح والهجاء وغيرها من الأغراض. وقد ساعدهم على ذلك ثراء اللغة العربية وغناها بالألفاظ والمترادفات كل ذلك ساعد على نظم القصائد الطويلة. وفي مقدمتها تأتي المعلقات التي جمعت بين البلاغة وجزالة اللفظ من ناحية، والقدرة على حسن التعبير من ناحية ثانية. هذا فضلاً عن أحاديث أهل البادية وحكمهم وقصصهم التي تتناول أيامهم وما كان فيها من أحداث.

وجاء الإسلام باعتباره ظاهرة حضارية ليساعد مع انتعاش الأدب. وليس من الصحة في شيء ما ردده بعض المستشرقين من أن الدين الإسلامي قلل من أهمية الشعر حتى لا يطغى على القرآن. ذلك أن القرآن ليس من الشعر في شيء. فقد نفى القرآن أن يكون الرسول شاعراً بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾. حقيقة أن القرآن الكريم قلل من أهمية بعض المتاجرين بالشعر وبعض المنافقين، وهم أعداء الإصلاح ودعاة الفوضى وارتكاب المعاصي. فقال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. والمقصود هنا فئة محدودة من منافقي الشعراء بدليل أن الرسول الكريم يقول: «**إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة**». واشتهر من شعراء صدر الإسلام حسان بن ثابت وكعب بن زهير، وكان لحسان مكانة خاصة عند الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان لارتباط اللغة بالأدب أثره في العلماء الذين ارتحلوا لجمع اللغة فجمعوا أيضاً الأدب وبخاصة من الشعر والقصص والأمثال والحكم والأخبار والأيام، غير أنه كان من المستحيل أن يجمعوا كل ذلك التراث لضخامته

فاكتفوا بما استطاعوا جمعه من شعر ونثر ومن أمثلة هذه المختارات جمهرة أشعار العرب، والمفضليات نسبة إلى المفضّل، والأصمعيات نسبة للأصمعي. وكلها مجموعات من القصائد لمشاهير الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام.

الأدب في العصر الأموي:

كان من الطبيعي أن يعالج الأدب في صدر الإسلام موضوع الجهاد والثواب والعقاب والجنة والنار تأكيداً لما أتى به النبي عليه الصلاة والسلام. وبقيام الدولة الأموية أخذ الخلفاء الأمويون يبحثون عن دعامة تأييد قيامهم في الحكم وتوارثهم له، وتضفي عليهم هالة تحقق لهم نوعاً من المجد الذي أحسوا أنهم في حاجة إليه. فشجعوا المادحين من الشعراء واغدقوا لهم العطايا، فضلاً عن أن الحياة الاجتماعية قد شهدت تطوراً مادياً الأمر الذي انعكست صورته في الشعر، فظهرت أنواع منه لم تكن معروفة من قبل. كما أن اتصال العرب بغيرهم من الشعوب ذات الحضارات القديمة ـ كالفرس والروم ـ أدى إلى تشكيل الحياة الاجتماعية في العصر الأموي، فانتشر الغناء والموسيقى، ووصف بعض الخلفاء الأمويين بالإقبال على مجالس الشراب والطرب. ومن الطبيعي أن تترك هذه الاتجاهات أثرها في الأدب عامة والشعر بصورة خاصة. ولا شك أن ما عرف عن الأمويين من نزعة بدوية تحب الشعر كانت سبباً في ارتقاء الشعر في العصر الأموي. وقد اشتهر من بني أمية أنفسهم بعض الشعراء أمثال يزيد بن معاوية حتى قيل: «بُدِىء الشعر بملك وخُتم بملك» يعنون بدىء بإمرىء القيس وخُتم بيزيد.

وقد ساعد على ازدهار الشعر في العصر الأموي ظهور الفرق والمذاهب السياسية التي جعلت من الشعر وسيلة للمساجلة والمنازعة والمناظرة هذا فضلاً عما كان بين الشعراء أنفسهم من منافسة كتلك التي عُرفت بين جرير والفرزدق أدت إلى ظهور نوع من الهجاء المقذع. وعرفت المساجلات بينهما باسم (النقائض).

الأدب في العصر العباسي:

ثم شهد الأدب نقلة قوية أيام العباسيين الذين قربوا إليهم الفرس بصورة خاصة اعترافاً بفضلهم في قيام دولتهم فكان منهم الوزراء والقادة والولاة كما كان منهم الشعراء والأدباء الذين انتهجوا في شعرهم مناهج جديدة في معاني الشعر وموضوعاته وأساليبه. وكان أشهر هؤلاء الشعراء أبو فراس الذي نظم في الخمر والغزل والصيد. وأبو تمام الطائي الذي اشتهر بنزعته العقلية والفلسفية في شعره والبحتري صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة. وابن الرومي صاحب المعاني النادرة في شعره الغزير، وأبو العتاهية صاحب قصائد الغزل والحكمة والموعظة... وغيرهم كثيرون.

ومما لا شك فيه أن هناك أسباباً ساعدت على ارتقاء الشعر في العصر العباسي، وظهور مفاهيم جديدة فيه. ومن هذه الأسباب اختلاف صورة الحياة في العصر العباسي واختلاف قيم الأشياء عما كانت عليه من قبل في العصور السابقة. وكذلك احتكاك العرب بالفرس وثقافتهم عامة والشعر بشكل خاص. ومن هذه الأسباب أيضاً أثر الثقافة الأجنبية عامة والفارسية خاصة في الشعر والأدب العباسي، وانتشار الشعوبية التي قامت على الحط من شأن العرب ونقد أشعارهم. ومنها كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والولاة والقادة والوزراء للشعراء. هذا فضلاً عما كان من خلاف بين الفرق كالشيعة والمعتزلة والخوارج، واستعانة كل فرقة بعدد من الشعراء للدفاع عن مبادئها ومحاولة الانتصار على خصومها.

ولم يكن النثر أقل شأناً وثراءً من الشعر في العصر العباسي. فظهر في هذا المجال عبدالله بن المقفع الذي نقل كثيراً من كتب الفهلوية إلى العربية. ومنها كتاب كليلة ودمنة. وعبد الحميد الكاتب الذي يعتبر شيخ صناعة الكتابة. وابن قتيبة الذي نادى بالتجديد في الكتابة، والجاحظ البصري الذي اتصف بحرية الفكر وغيرهم كثيرون.

4 ـ الشعر في المغرب والأندلس:

نافس خلفاء الفاطميين في المغرب، وخلفاء بني أمية في الأندلس شعراء المشرق خلال القرن الرابع الهجري. فقد قرب الخلفاء الشعراء واستخدموهم في الدعاية لحكمهم. غير أن هناك عدداً من الشعراء في المغرب والأندلس ممن غلب على شعرهم الخيال ودقة التعبير وبخاصة في وصف مجالس الشراب والحدائق والطبيعة والقصور. فمال شعراء الأندلس إلى الأوزان القصيرة وابتدعوا نوعين من الشعر هما: شعر الموشحات التي لا تلتزم قافية واحدة ولا وزناً واحداً. والزجل وهو شعر فريد من العامية لا يتقيد بقواعد اللغة وأصولها. وأشهر شعراء الموشحات في الأندلس، أحمد بن عبد ربه، ولسان الدين بن الخطيب، وأشهر الزجالين أبو بكر بن قزمان القرطبي.

أما شعراء المغرب فهم كثيرون من بينهم محمد بن هانيء الأندلسي (ت 361هـ/ 971م) وكان يسمى متنبي المغرب لعذوبة شعره. وكذلك علي بن محمد القيادي الذي برع في وصف البحر ووصف الأساطيل وله أشعار كثيرة ذكرها الحصري[1].

5 ـ علم النحو:

برزت الحاجة إلى علم النحو بعد الفتوحات الكبرى التي حققها العرب، واختلاطهم بغيرهم من الأمم أدى إلى فساد اللسان العربي فاندفع عدد من الحريصين على اللغة وسلامتها إلى وضع قواعد وأسس للغة العربية حيث يذكر الزبيدي ذلك بقوله: «... فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب. فعظم الاشتقاق من فشو ذلك وغلبته، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم، إلى أن سببوا الأسباب في تقيّدها لمن ضاعت عليه وتثقيفها لمن زاغت عنه».

---

(1) الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق محمد علي البجاوي، القاهرة 1953، ج 1، ص 184 ـ 190.

وقد تصدى لتقويم اللغة العربية ووضع منهاج لها بعض العلماء العرب كان أولهم أبو الأسود ظالم بن عمرو الدُؤلي ثم تلميذه نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز فوضعوا للنحو أبواباً وأصّلوا له أصولاً[1].

وكان لأبي الأسود فضل السبق وشرف التقدم في إظهار علم النحو إلى حيز الوجود، ويُقال إن ذلك كان بإشارة من الخليفة علي بن أبي طالب لأنه سمع لحناً فأشار عليه بوضع قوانين للغة ثم تابع العلماء بعد ذلك مسيرته إلى أن ظهر في العصر العباسي ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي زمن الخليفة هارون الرشيد. فهذب اللغة، وأخذ عنه سيبويه فأكمل تفاريعها ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار قدوة لمن كتب في النحو من بعده. ثم برز عدد من العلماء المهتمين بعلم النحو منهم: أبو علي الفارسي، وأبو القاسم الزجاج اللذان وضعا مختصرات للمتعلمين. على أن علم النحو لم يتوقف حيث تركه أبو الأسود الدؤلي أو الخليل ابن أحمد ولكن استمرت جهود العلماء غيرة على اللغة.

ثم تتابعت طبقات النحويين بين مؤلف مطوّل، ومتوسط، ومختصر كل تلك الجهود كانت تهدف للمحافظة على سلامة اللغة دون لحن، لأن ذلك يؤثر في القراءة لا سيما في كتاب الله العزيز.

2 ـ مساهمة المغاربة في علم النحو: اهتم المغاربة بعلم النحو فعكفوا على دراسته ودراسة الكتب التي تم تأليفها فيه. فقد روي أن ابن الوزان القيرواني كان يُعرف بشيخ المغرب في النحو واللغة[2].

وإلى جانب ابن الوزان ظهر عدد من النحويين منهم أبو الوليد المهري الذي ألف كتباً في النحو منها كتاب الألفاظ، وكتاب اشتقاق الأسماء مما لم يأت به قطرب.

---

(1) أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1963، ص 10.

(2) جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، مصر 1965، ص، ج 1، ص 419.

أما القزاز النحوي الذي عاصر الدولة الفاطمية بالمغرب فقد قال عنه القفطي: «إن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أمر النحوي القزاز سنة 361هـ بأن يؤلف له كتابا يجمع فيه سائر الحروف التي ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وأن يقصد في تأليفه إلى شرح الحرف الذي جاء لمعنى، وأن يجري ما ألفه من ذلك كله على حروف المعجم، فسارع لما أمر وجمع المتفرق من الكتب النفيسة في هذا المعنى على أقصد سبيل وأقرب مأخذ وأوضح طريقة فبلغ جملة الكتاب ألف ورقة. ورفع صور منه إلى الخليفة الفاطمي.

وقال مؤلف الكتاب ما علمت أن أحداً سبق إلى تأليف مثل هذا الكتاب، ولا اهتدى أحد من أهل هذه الصنعة إلى تقريب البعيد وتسهيل المأخذ وجمع المفرق على مثل هذا المنهاج[1].

ثانياً: العلوم الاجتماعية والإنسانية:

تعتبر الحضارة العربية حضارة إنسانية في المقام الأول، فقد عنيت بالإنسان فكرياً وجسدياً وروحياً واجتماعياً ومعيشياً. لذا كان من الطبيعي أن تحتل العلوم الاجتماعية أو الإنسانية مكان الصدارة في النشاط الفكري والعلمي الذي تميزت به تلك الحضارة وعلى رأس تلك العلوم يأتي علم التاريخ، وعلم الجغرافيا.

(1) علم التاريخ: التاريخ لغة التعريف بالوقت، يقال: أرخ الكتاب وورخّه أي بيّن وقت كتّابته كما جاء في لسان العرب.

وعلم التاريخ يعني العلم الذي يتضمن زمن وقوع الحوادث وأساليبها والحضارة ومظاهرها، وعوامل تفرقها واضمحلالها... والمؤرخ: هو كاتب التاريخ.

---

(1) جمال الدين القفطي: أنباء الرواة على أنباء النحاة. القاهرة، دار الفكر العربي، 1986، ج 3، ص 87.

ويعتبر التاريخ من أهم العلوم الاجتماعية بوصفه مدرسة لكل الناس حكاماً ومحكومين تساعدهم على الاعتبار من دروس الماضي وأحداثه. فضلاً عن أن النفس البشرية ميالة دائماً لسماع القصص وتجد فيه المتعة النفسية والحكمة والموعظة.

وقد شغف العرب بالتاريخ منذ القدم، فتطلعوا إلى سماع تاريخ الأمم التي سبقتهم بما في ذلك أيامهم قبل الإسلام، هذا بالإضافة إلى سماعهم ما حدث بمنطقة شبه الجزيرة قبل الإسلام من حوادث جسيمة قبل تصدع سد مأرب وانهياره، وهجرة الأزد، وظهور قصي بن كلاب وغلبته على مكة. كما أن التبادل التجاري القائم بين عرب شبه الجزيرة العربية وبين بلاد الشام وفارس قد أدى إلى معرفة طرف من أخبار وتاريخ هذه البلدان.

المسلمون والتاريخ:

تعرض القرآن الكريم في عدد غير قليل من الآيات لتاريخ الأمم القديمة، فزادت مادتهم في معرفة التاريخ، وإن كانت الأخبار في القرآن قد جاءت مقتضبة بغرض العبرة والعظة، فدفع المسلمين للمزيد من التساؤل والبحث عن المزيد من الأخبار كقصة بدء الخليقة، وخلق آدم، وقصص الأنبياء وغيرها مما ورد في ثنايا القرآن الكريم.

ومع بداية الفتوح الإسلامية الكبرى صار العرب أكثر دراية بتاريخ البلاد المفتوحة وبخاصة تلك التي لها حضارة كبلاد فارس، ومصر، وبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين (العراق).

وقد عكف الخلفاء المسلمون على معرفة سيرة الملوك قبلهم فقد روى المسعودي أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان كان «يسمر إلى ثلث الليل في سماع أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها، وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة»[1]

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر. ج 3، ص 60.

وقد استمرت هذه النزعة لدى الخلفاء والأمراء المسلمين للإفادة من دروس التاريخ.

ولعل رغبة المسلمين في معرفة سيرة الرسول الأعظم ومغازيه وأعماله وأقواله وأخبار الخلفاء الراشدين من بعده، وما جرى فيها من حوادث، كان له تأثيره في زيادة الاهتمام بعلم التاريخ الذي كان ينقل شفاهاً ويخضع لعامل التغير والتبديل، والمبالغة والاقتضاب، ولما جاء عصر التدوين اهتم العرب بعلم التاريخ للأسباب الآتية:

(1) رغبة العرب في معرفة تاريخهم السياسي والاجتماعي وسير زعمائهم وحكمائهم.

(2) رغبة المسلمين في معرفة كل ما يتصل بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

(3) الرغبة في معرفة أنساب العرب وقبائلهم وعلاقة الأسر بعضها ببعض وبخاصة بعد ظهور الحركة الشعوبية.

(4) تشجيع الخلفاء والأمراء لكتابة تاريخهم لتطّلع عليه الأجيال التي تأتي بعدهم.

(5) ميل الكتاب الذين ينتمون إلى فرق وطوائف مختلفة بالكتابة عن فرقهم الدينية والسياسية وتتبع أخبار الفرق المناوئة، كما أن الشعوبية قد دفعت كل من العرب والعجم إلى ذكر مناقبهم ومساوىء خصومهم.

(6) إقبال علماء اللغة على تدوين الأدب العربي وما يحتويه من شعر وخطابة وأحكام وأمثال ومفردات لغوية، فذكروا الحوادث المتصلة بكل هذا ولا تزال كتب الأدب العربي مرشداً لرواد التاريخ بما تحتويه من مادة تاريخية غزيرة.

(7) رغبة بعض العلماء المسلمين في توثيق حوادث التاريخ بغرض إطلاع الأجيال اللاحقة على الحقائق مجردة من المصالح والمكاسب المادية

أو الدعاية لفرقة ومهاجمة أخرى أو إرضاء حاكم أو خليفة. وهؤلاء كانت أبحاثهم أكثر موضوعية وتجرداً.

ويمكن أن نجمل أهم ألوان الكتابة التاريخية التي خلفها لنا المؤرخون العرب والمسلمون قبل الإسلام وبعده:

1 ـ **القصص التاريخية وأيام العرب**: وهذا النوع من القصص تناقله المسلمون حتى بعد الإسلام فقد تعرضوا في رواياتهم إلى حروب داحس والغبراء وحرب البسوس، وموقعة ذي قار، وما أظهر فيها المقاتلون من صنوف الشجاعة والإقدام والصبر على الشدائد، وما أضفى عليها المحدثون من خيال خصب، بهدف جذب السامع وشده إلى متابعة الأخبار، والتعصب لهذا البطل أو ذاك أو لهذه القبيلة أو تلك، وكانت هذه القصص تنقل شفاهاً، ويدخل عليها التعديل والتغير، ويستشهد فيها بالأراجيز والقصائد الشعرية التي تعتبر توثيقاً للرواية، ومن أشهر القصاصين بعد الإسلام عبيد الله بن شريه الذي ألف لمعاوية بن أبي سفيان كتاب «أخبار الماضين» ووهب بن منبه (ت 110هـ).

2 ـ **كتب المغازي والسير**: وتبحث كتب المغازي في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم والحروب التي اشترك فيها هو والصحابة، فضلاً عن البحث في مناقب المجاهدين.

أما كتب السيرة فهي تتضمن دراسة لشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام وأقواله وأفعاله، وكان هذا اللون من ألوان الكتابة التاريخية في أول أمره جزءاً من الحديث يرويه الصحابة مثلما يروون الأحاديث، ولذا أتبع فيه أسلوب المحدثين في الإسناد. وأكثر كُتاب السيرة الأوائل كانوا من أهل المدينة، نظراً لما شهدته المدينة من أحداث الهجرة وقيام الدولة العربية الإسلامية، وانتشار الدعوة وخروج الغزوات منها، ويستمد كتاب السيرة الأوائل أمثال ابن إسحق، وابن هشام، وابن سعد معلوماتهم ـ مما رواه الصحابة والتابعون من أحاديث تلقي أضواء على سيرة النبي صلى الله عليه

وسلم. وأعماله وغزواته، ويمثل ابن إسحق مكانة خاصة بين كتاب السيرة بوصفه أقدم إن لم يكن أول من كتب سيرة منظمة لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان ابن إسحق من جمّاع الحديث المجدين حيث رحل إلى مصر وبغداد لهذا الغرض ولم يصلنا من كتاب ابن إسحق إلاّ صورة مختصرة ضمن سيرة ابن هشام المتوفي (218هـ) أما ابن إسحاق نفسه فقد توفي ببغداد عام (153هـ).

3 ـ **كتب الطبقات**: صنف المحدثون بعد جمع الحديث والتحقق من صدقه في الطبقات حسب أهميتها على نفس الطريقة التي جمعوا بها الحديث فكانت طبقات الصحابة، أو الأطباء، أو الشعراء، أو الأدباء، أو الفقهاء أو النحاة أو العلماء. وأشهر كتب هذا النوع: طبقات الصحابة للواقدي (ت 207هـ) طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (ت 232 هـ) الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت 276هـ) قضاة قرطبة وعلماء أفريقية لمحمد بن حارث الخشني (ت 361 هـ) وكتاب رياض النفوس لأبي بكر المالكي (ت 450 هـ) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ت 668هـ).

4 ـ **كتب الفتوح**: بعد أن جمع المؤرخون غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وحروبه في كتب سموها المغازي وأصبحت مرادفة لكتب السيرة، اهتموا بفتوح البلدان للتعريف بما فتح منها صلحاً وما فُتح عنوة (حرباً) لأن الضرائب تختلف في كل من الحالتين. وأشهر كتب هذا النوع: فتوح الشام للواقدي، فتوح البلدان للبلاذري (ت 279هـ) فتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم (ت 257هـ).

5 ـ **تواريخ البلدان**: وضعت كتب خاصة لتأريخ مدن وأقطار خاصة مثل تاريخ دمشق لابن عساكر (ت 571هـ) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت 463هـ) كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع الفاسي (ت 726هـ) وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ) وغيرها.

6 ـ **التراجم**: وتبحث في تاريخ مشاهير الرجال، وأعمالهم وأقوالهم سواء كانوا علماء أو أدباء أو خلفاء، مثل معجم الأدباء لياقوت الحموي ووفيات الأعيان لابن خلكان، والحلة السيراء لابن الآبار القضاعي.

7 ـ **التواريخ العامة**: ولا يقتصر موضوعها على تاريخ العرب أو جزء من بلادهم وإنما يتناول التاريخ منذ بدء الخليقة إلى عصر المؤلف وما شاهده من أحداث، وقد اعتمد كتاب هذا النوع على الكتب التي ألفها المؤرخون قبلهم والتي فُقدت واحتفظوا لنا بنتف من تلك الكتب في مؤلفاتهم ومن أمثال هذه المؤلفات: تاريخ الأمم والملوك للطبري (ت 310هـ) ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (ت 346هـ) والكامل في التاريخ لابن الأثير (ت 630هـ) وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر... لابن خلدون (ت 808هـ)

طرق تدوين التاريخ عند المسلمين:

اتّبع المسلمون في تدوين التاريخ طريقتين:

أ ـ **الحوليات**: ومؤرخو هذا النوع اتبعوا في مؤلفاتهم ذكر الأحداث سنة بعد سنة، فلكي تستقصي حادثة وقعت في زمن ما واستغرقت عدداً من السنين فإنك تظفر بأخبار تلك الواقعة سنة بعد سنة. فنجد الكاتب يقول: وفي سنة كذا حدث كذا من الحوادث حتى إذا انتهى من هذه السنة انتقل إلى التي بعدها. ومن أشهر مؤلفي الحوليات عز الدين ابن الأثير الجزري (ت 630 هـ) وكتابه الكامل في التاريخ.

ب ـ **التاريخ المتسلسل**: ويبدأ المؤرخ الحادثة فيقصها من أولها إلى آخرها. أو يتعرض لتاريخ دولة أو مدينة فيعرضها كوحدة مستقلة. وأشهر هؤلاء محمد بن جرير الطبري وكتابه تاريخ الأمم والملوك ويعتبر من أمهات الكتب التاريخية العربية. وكذلك المسعودي وكتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر. وابن خلدون أعظم مؤرخي المغرب إن لم يكن أعظم المؤرخين المسلمين على الإطلاق وكتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب

والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. إلى جانب عدد من المؤرخين المسلمين الذين برزوا في كل عصر من عصور الحضارة العربية الزاهرة.

علم الجغرافيا:

انتشرت بين العرب قبل الإسلام كثير من المعارف الجغرافية وخاصة فيما يتعلق بالأنواء وعلم النجوم لمعرفة الجهات والمسالك والطرق الصحراوية وإنتاج الممالك المجاورة، ومدى أهميتها في التبادل التجاري، وبخاصة أن العرب كانوا يقومون بدور الوسيط التجاري. فكان لقريش نفسها في كل عام رحلتان: رحلة في الشتاء، ورحلة في الصيف، ورد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾[1].

تطور علم الجغرافيا عند المسلمين:

عرف المسلمون علم الجغرافيا وتنبهوا لأهميته بين العلوم نظراً للحاجة إليه في الحل والترحال، وفي العبادة والحج وطلب العلم، وفي الزراعة والتجارة... وفي ذلك يقول الجغرافي المقدسي: ... «إن الجغرافيا علم لا بد منه للتاجر والمسافر، والملوك والكبراء، والقضاة والفقهاء».

وقد شجعت وحدة الدولة الإسلامية، وما وفره الحكم في الدولة الإسلامية من استقرار فضلاً عن أن الإسلام كان يحث المسلمين على السفر والرحلة في طلب العلم ونشر الدين، لذا قام المسلمون بنشاط واسع، فجابوا البلاد شرقاً وغربا وأقاموا علاقات تجارية مع بلدان لم يسمع الأوروبيون عنها في العصر الوسيط، أو شكوا في وجودها. وكان المسلمون سباقين إلى تصحيح كثير من المعلومات الجغرافية التي توصل إليها علماء الجغرافيا قبلهم من الإغريق أو غيرهم.

وقد بدأ أدب الرحلات عند المسلمين قرابة منتصف القرن التاسع

---

(1) سورة قريش، الآية 1 و2.

الميلادي على يد تاجر يدعى سليمان البحار. جاب البحار إلى الهند والصين وكتب عما شاهده مبرزاً عادات أهلها وتقاليدهم، وقد نُشر كتابه في فرنسا عام 1922م.

ولعل الاهتمام بتأمين طرق الرحالة والمسافرين وإقامة الاستراحات والخانات لهم، فضلاً عن إقامة الثغور والعواصم والرباطات على السواحل وتخوم الصحراء لإقامة المرابطين، ولكنها استخدمت أيضاً لاستراحة المسافرين. يضاف إلى هذا كله ما أقامه المسلمون من منارات في الصحراء والسواحل لفرض اهتداء المسافرين بها في البحر والبر.

ويضيق المقام بذكر جميع الجغرافيين المسلمين وما قدموه لعلم الجغرافيا، ولذا سنكتفي بذكر عدد منهم على سبيل التوضيح. ومن هؤلاء: اليعقوبي: أواخر القرن الثالث / التاسع الميلادي. وهو أول جغرافي من المسلمين، قدم لنا وصفاً لما شاهد أثناء سفره إلى أرمينية، وخراسان وأقام بمصر وبلاد المغرب، وارتحل إلى الهند، وقد جمع بعض معلوماته من رجال موثوق في صدقهم فكانوا يخبرونه عن أوطانهم وما تنتجه من محاصيل، وعن ساكنيه، وعن شرب أهله ومساكنهم ولباسهم وديانتهم «ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق في صدقه»[1].

وقد عُرف كتاب اليعقوبي في الجغرافيا باسم «كتاب البلدان».

أما ابن خرداذبَة (ت 912هـ) وكتابه المسالك والممالك، فقد كتبه معتمداً على كتاب بطليموس السكندري، وقد توسع في وصف البلدان مع العناية بذكر الطرق المؤدية إليها وأبعادها محدداً إياها تحديداً دقيقاً.

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ظهر المسعودي كأبرز الجغرافيين المسلمين. يقول في مقدمة كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر: «أما بعد فإنا صنفنا كتابنا في أخبار الزمان، وقدمنا القول فيه في هيئة الأرض

(1) أحمد بن واضح (اليعقوبي): كتاب البلدان. . دار صادر، بيروت (د. ت) ص 232.

ومدنها، وعجائبها، وبحارها، وأغوارها، وجبالها، وأنهارها، وبدائع معادنها، وأصناف مناهلها، وأخبار غياضها، وجزائر البحار، والبحيرات الصغار...»[1].

وقد بلغ علم الجغرافيا ـ عند المسليمن ـ ذروته في القرن الرابع الهجري. على يد المقدسي، وابن حوقل. أما المقدسي فقد كتب لنا كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. وهو كتاب اشتهر شهرة واسعة لما حوى من معلومات جغرافية عن العالم الإسلامي، ويكفي ما تجشمه كاتبه من مشاق الرحلة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه يدون ما يراه ويسمعه ممن يثق في أقوالهم. كما أنه أنفق في رحلته ما يزيد عن عشرة آلاف درهم وهو مبلغ كبير في وقته.

وأما ابن حوقل صاحب كتاب «المسالك والممالك» فقد كان قدوة لمن جاء بعده من الجغرافيين، ويقول إنه شغف بكتب المسالك والممالك منذ صباه وعكف على دراستها، وقد زود كتابه بخريطة لكل إقليم.

كما ألف الهمداني كتاب (وصف جزيرة العرب) معدداً أقاليمها ومواضعها.

أما في بلاد المغرب فقد ذكر ابن الآبار أن محمد بن يوسف الوراق الجغرافي القيرواني وضع كتاباً في مسالك إفريقية وممالكها للخليفة الأموي الأندلسي الحكم المستنصر بالله[2]. وهذا الكتاب نقل عنه الجغرافي الأندلسي أبي عبيدالله البكري (ت 487هـ) في كتابه المسالك والممالك كما ألف ابن الجزار القيرواني (ت 396هـ) كتاب في الجغرافيا باسم (عجائب البلدان) نقل عنه ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان.

---

(1) المسعودي، أبي الحسن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مصر، المكتبة التجارية، الطبعة الثانية، 1938، ج 1، ص 9.

(2) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، مدريد 1886، ج 1، ص 101.

ثم كان أن برز في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، الشريف الإدريسي الذي تلقى تعليمه في قرطبة، وينحدر من أسرة الأدارسة العلويين بالمغرب، عاش في بالرم (بالرمو) بصقلية، وخلال حكم الملك النورماني روجر الثاني ألف كتابه الشهير بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق وزود كتابه هذا بأكثر من أربعين خريطة وهو عمل لم يسبقه إليه جغرافي من قبل. وقد بلغ إعجاب الأوروبيين به أن ترجموه إلى اللاتينية في وقت مبكر. كما أنه كان من أوائل الكتب التي طبعت. وحسب الإدريسي أنه قال بكروية الأرض، وقدم مصورات تتفق وهذه الحقيقة. كما قسم العالم سبعين جزءاً رسم لكل جزء مصوراً.

ولا يفوتنا أن نشيد بما ألفه ياقوت الحموي (1179 ـ 1228م) الذي تجول في كثير من البلدان، واطلع على ما تحتويه مكتبات مرو، وطشقند وبلخ وغيرها. ثم ألف موسوعته (معجم البلدان)، وهو يدل من عنوانه أنه جمع فيه أسماء المدن والبلدان والقرى الشهيرة وغيرها من المواضع الجغرافية، والتاريخية والأثرية، والاقتصادية، والاجتماعية، مما لا يجمع في كتاب واحد آخر. من خلال ما تقدم من مؤلفات الجغرافيين المسلمين يتضح أنهم قد قدموا لعلم الجغرافيا الكثير، فقد صححوا الأخطاء التي وقع فيها بطليموس السكندري وغيره من الجغرافيين السابقين، كما أضافوا معلومات جديدة وغزيرة وبخاصة فيما يتعلق بكروية الأرض التي قال بها ابن خرداذبة في القرن الثالث وأكدها الجغرافي الإدريسي في القرن السادس الهجري. كما عبر عن ذلك المسعودي بقوله «كرة الأرض» وكذلك ابن رسته «القرن الثالث الهجري يقول: «إن الله عزّ وجل ـ وضع الفلك مستديراً. . . كاستدارة الكرة، أجوف دواراً، والأرض مستديرة أيضاً كالكرة، مصمتة في جوف الفلك[1].

(1) أحمد بن عمر بن رسته: الأعلاق النفيسة، بيروت، دار صادر، طبعة بريل ليدن 1893، المجلد السابع، ص 9.

وعندما طلب روجر الثاني ملك صقلية من الجغرافي الإدريسي وضع صورة جامعة للأرض، أجاب الإدريسي بأن الأرض كروية، فصنع له الملك كرة كبيرة من الفضة رسم عليها الإدريسي معالم الأرض.

والواقع أن ما توصل إليه المسلمون من نتائج في كل فروع علم الجغرافيا ـ الطبيعية ـ والبشرية ـ والفلكية والمناخية وغيرها. أعظم من أن تتسع لها هذه الحوصلة. ويكفي أن عالماً مثل الإدريسي رسم في خريطة محفوظة إلى اليوم في أحد متاحف فرنسا ـ نهر النيل نابعاً من بحيرات كبيرة تقع إلى الجنوب من خط الاستواء، وهذا هو أول تحديد علمي واقعي لمنابع نهر النيل بعد أن كان القدماء يرددون أنه نابع من الجنة. هذا فضلاً عما ذكره الجغرافيون والرحالة المسلمون من أوصاف لأقاليم الأرض وخصائص البلدان والأجناس والشعوب، وغير ذلك من المعلومات المستمدة من المشاهدة الفعلية والمعاينة الواقعية ذات الأساس العلمي.

رابعاً: العلوم العقلية التجريبية:

اعتمد العرب في العلوم العقلية التجريبية. أول أمرهم ـ على ما كتبه غيرهم من أهل الحضارات السابقة كاليونان، والفرس، والهنود، وما كان لأصحاب الحضارات التي صادفوها في وادي النيل، وبلاد الرافدين عند توسعهم على حسابها، والواقع أنه لا يمكن الإدعاء بأن للعرب حضارة قبل ظهور الإسلام، وأن أقصى ما يمكن قوله باستقراء التاريخ أن لعرب جنوب شبه الجزيرة العربية ـ بلاد اليمن ـ نشاطاً حضارياً مكن أهلها من الوقوف على نظريات علمية وهندسية ظهرت واضحة في بناء السدود وخزن مياه الأمطار والإفادة من المياه الجوفية بطرق علمية.

وبالرغم من افتقار العرب إلى تراث قديم في العلوم العقلية والتجريبية مثل ـ الفلسفة ـ والطب والكيمياء والفيزياء وغيرها ـ لكنهم امتازوا دائماً بما أنعم الله عليهم من قدرة على الاستيعاب والتعلم. وجاء الإسلام داعياً ومؤكداً على طلب العلم النافع في الحياة من ناحية، والتعامل مع أصحاب

الحضارات الأخرى من ناحية ثانية، مما دفع المسلمين إلى العمل سريعاً للإفادة من كل ما هو نافع من تراث السابقين العلمي مما لا يتعارض وتعاليم الإسلام وقيمه وآدابه.

وبتلك الخصائص التي كان عليها المسلمون أقدموا على علوم الأوائل يدرسونها ويناقشون ما بها من آراء ويصححون ما قد يجدونه من أخطاء ويضيفون إليها الجديد من المعلومات التي يتوصلون إليها بالتجربة والبرهان العلمي وكانت نقطة البداية للاطلاع على تراث الآخرين هي ترجمة ذلك التراث.

حركة الترجمة قبل الإسلام:

أدت فتوحات الإسكندر الأكبر وتقسيم تركته بعد موته سنة 323 ق. م. إلى انتشار الحضارة الإغريقية في أجزاء كبيرة من آسيا وإفريقيا. مما جعل المؤرخين يطلقون على تلك الفترة ـ حتى الفتح الإسلامي ـ اسم العصر الهلينستي. وفي ذلك العصر وجدت عدة مراكز للحضارة الإغريقية أشهرها: الاسكندرية وبرقة ـ وأنطاكية ونصيبين وجُنديسابور.

وفي الفترة السابقة على ظهور الإسلام قام السريان بدور كبير في ترجمة معارف اليونان وعلومهم إلى اللغة السريانية. وقد ساعد على ذلك حركة انتقال العلماء اليونان تحت تأثير الاضطهاد الديني والمذهبي فاستقر بعضهم في مدينة الرها بإقليم الجزيرة شمال العراق، وهناك تأسست مدرسة انتعشت في القرن الخامس الميلادي. ثم تأسست مدرسة نصيبين لذات الأسباب اشتهرت في ميادين الفلسفة والطب اليوناني.

وعندما قام جستنيان ـ امبراطور القسطنطينية ـ بإغلاق مدرسة أثينا الوثنية عام 528م. هاجر علماؤها شرقاً للبحث عن مأوى في أحضان الدولة الفارسية واستقروا في جنديسابور التي تقع في إقليم خوزستان ـ حيث أقام كسرى أنو شروان (531 ـ 579م) بيمارستان ومدرسة للطب.

وقد استمرت مدرسة جنديسابور قائمة حتى بعد الفتح الإسلامي لبلاد

فارس، حتى أن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ـ عندما مرض ـ استحضروا له جورجيس ابن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور للإشراف على علاجه وفي ذات الوقت اشتهر إلى جانب مدينة جنديسابور مدينتا الإسكندرية وأنطاكية منذ أن أسسهما اليونان الأولى 331 ق. م والثانية 300 ق. م.

على أنه من الملاحظ أن الفلسفة والفكر اليوناني في الشرق قد اصطبغا بصبغة شرقية واضحة أبرز ما تكون في الأفلاطونية الحديثة التي اشتهرت بها مدرسة الإسكندرية وأصبحت مدارس الشرق مراكز إشعاع للفكر والحضارة اليونانية فاشتهر من علمائها بعض من اشتغل بالفلسفة والطب والتشريح والرياضيات والفيزياء والكيمياء، وغيرها من العلوم. وقد واكب هذا التطور العلمي في الشرق حركة الترجمة النشطة التي قام بها السريان الوثنيون فترجموا الكتب اليونانية والفكر اليوناني إلى اللغة السريانية التي أصبحت لغة دولية. والغالب على الترجمات السريانية أنها كانت حرفية بمعنى أن السريان نقلوا بأمانة ودقة علوم اليونان التي ضاعت أصولها. كما أسهم السريان في ترجمة الكتب من الفهلوية إلى السريانية، ومن أمثلة تلك الكتب كتاب كليلة ودمنة، والسندباد.

حركة الترجمة في العصر الإسلامي:

ما إن ظهر الإسلام وفتح المسلمون بلاد فارس، ومصر، وبلاد الشام في القرن السابع الميلادي، ليروا في هذه البلاد مدارس تحتضن فكر وفلسفة اليونان وعلومهم. والواضح أن العرب لم يجهلوا تلك العلوم جهلاً تاماً، إذ كانت بعض تلك الثقافات قد تسربت إليهم أو عرفوها أثناء رحلاتهم التجارية إلى تلك الأقطار من ذلك ما يرويه القفطي في أخبار الحكماء من أن الحارث ابن كلدة رحل إلى أرض فارس، وأخذ الطب عن أهل جنديسابور، حتى اشتهر أمره بين العرب. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باستدعائه ـ رغم أنه لم يكن مسلماً لعلاج سعد بن أبي وقاص أثناء مرضه في حجة الوداع.

وعندما استقر العرب في البلاد المفتوحة، وأصبحت مراكز الثقافة اليونانية والسريانية تابعة لهم تغيرت الأوضاع، إذ تطلع العرب بفضل ما أثاره الإسلام فيهم من حماسة للعلم، وما حثهم عليه من تسامح مع أهل الديانات الأخرى إلى التزود بقسط نافع من تلك العلوم ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بترجمتها إلى لغتهم.

ويمكن القول إن الجذور الأولى لحركة الترجمة الإسلامية ترجع إلى العصر الأموي، إذ تردد في المصادر أن خالد بن يزيد بن معاوية ـ الملقب بالحكيم. والمتوفي عام (85هـ/ 704م) اهتم بترجمة عدد من الكتب في الطب وعلم الصنعة (الكيمياء) إلى العربية. ذكر ابن النديم أن خالد بن يزيد بن معاوية كان يسمى «حكيم آل مروان» ووصفه بأنه كان فاضلاً محباً للعلم. خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربية. وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة...»[1].

أما ابن خلكان فقد وصف خالد بن يزيد بن معاوية بأنه: «كان من أعلم قريش بفنون العلم، وكان له كلام في صناعة الكيمياء والطب، وكان بصيرا بهذين العلمين مُتقناً لهما، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته...»[2].

والواقع أن حركة الترجمة إلى العربية أخذت تنشط وتزداد قوة في العصر العباسي بفضل تشجيع الخلفاء العباسيين ورعايتهم لها. ذلك أن حركة الترجمة في العصر الأموي كانت تعبر عن محاولات فردية ومع ذلك فهي تعبر عن ولادة هذه الحركة العلمية التي بدأت ـ شأنها شأن أية حركة مشابهة

---

(1) ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران 1971، ص 419.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1968، ج 2، ص 224.

في التاريخ ـ بداية بسيطة حتى إذا ما كان العصر العباسي اشتد ساعدها، وغدت تمثل ركناً من أركان سياسة الدولة وحكامها. هذا فضلاً عن أنها اقتصرت في العصر الأموي على بعض العلوم كالكيمياء، والطب والفلك، في حين أنها صارت في العصر العباسي أوسع أفقاً حيث شملت الفلسفة والمنطق، فضلاً عن العلوم التجريبية والكتب الأدبية والاجتماعية وغيرها.

وتؤكد الشواهد التاريخية على الاهتمام الكبير الذي أبداه الخلفاء العباسيون نحو العلماء بصرف النظر عن مللهم وعقائدهم فنزح كثير منهم من نصيبين وحران وجنديسابور وغيرها من مراكز العلم والفكر القديمة، من ذلك ما يُقال من أن الخليفة أبا جعفر المنصور عني بترجمة الكتب إلى العربية، سواء الكتب اليونانية أو الفارسية أو الفهلوية. وفي تلك المرحلة نقل حنين بن إسحاق بعض كتب أبقراط وجالينوس في الطب. في حين نقل عبدالله بن المقفع كتاب كليلة ودمنة عن الفهلوية، كما قام عدد آخر من العلماء بالمساهمة في ترجمة عدد من الكتب العلمية من الفهلوية واليونانية والسريانية إلى العربية من بينهم يحيى بن عدي، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وأبو عثمان الدمشقي، ويوحنا البطريق وغيرهم.

والحقيقة أنه قد ظهرت في عصر الدولة العباسية ترجمات رائعة في شتى العلوم توخت الصدق والجدية والدقة، ولكن ما هو أجدر بالملاحظة من كل هذا هو أن العقلية الإسلامية بعد أن تمثلت تفكير اليونان وغيرهم، كانت بحاجة إلى أن تقف وقفة تأمل. نعم تأمل في النص القرآني وأصول العقيدة. هل يقبل المسلمون الفلسفة اليونانية التي تخالف في طبيعتها وأصولها ما جاء بالنصوص القرآنية وأصول العقيدة؟ أم ينظر هؤلاء في أصول تلك الفلسفات فيأخذون ما يشاؤون ويلفظون ما يخالف العقيدة؟ أم يحاولون التوفيق بين العقل والنقل[1].

---

(1) عمر فروخ، وآخرون: تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار النهضة العربية، 1990، ص 429 ـ 430.

لقد مرَّ التفكير الإسلامي بكل تلك التساؤلات فأعطى للعلوم التجريبية التطبيقية حقها في الترجمة والعمل بها لأنها لا تخالف روح الدين، وتحفظ بعض علماء المسلمين عن الموضوعات الفلسفية التي تتنافى وروح الدين، محاولين بذلك نقدها وإظهار خطأها.

ثم كان تأسيس بيت الحكمة العباسي في عهد المأمون في بغداد عام 830م. حدثاً من أحداث العصور الوسطى، وليس من المغالاة في شيء أن نقول إن هذه المؤسسة قد لعبت دوراً هاماً فكانت تجمع بين الأكاديمية والمكتبة ومركز للترجمة.

وهكذا استطاع المسلمون ـ عن طريق الترجمة أولاً ـ أن يحافظوا على تراث اليونان والسريان والهنود وغيرهم من الاندثار، وأن دورهم لم يقتصر على النقل ولكنه تعداها إلى النقد والزيادة والابتكار.

إن عظمة الحضارة الإسلامية تنحصر في أن علماءها وبناتها قاموا بدور التلميذ الذي لم يلبث أن كبر وفاق أستاذه.

ومن بين العلوم التجريبية العقلية التي تفوق فيها علماء المسلمين وحققوا فيها إنجازات جديدة باهرة هي:

1 ـ الطب:

اهتم الإنسان منذ القدم بالمحافظة على الصحة حتى ينعم بحياة سعيدة رغدة، وسعى من أجل ذلك لتحقيق ما توصل إليه عقله عبر مراحل التاريخ المختلفة فكان يعتمد على السحر والشعوذة وبعض الطقوس. غير أن هذه الاعتقادات لم تحقق للإنسان الشفاء الذي كان يسعى إليه.

وقد عرف أصحاب الحضارات العربية القديمة كالمصريين، والعراقيين، والشاميين نوعاً من الطب أشاد به عدد من المؤرخين القدماء وكان لهم الفضل على ما قدمه اليونان والفرس والسريان من علوم طبية بعد ذلك.

ومع بزوغ فجر الإسلام الذي دعا إلى الرحمة والاهتمام بالإنسان وصحته. فنادى الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بأن العلم علمان «علم الأديان وعلم الأبدان». ولما كان الإسلام دين التسامح والمحبة فإنه لم يمنع أن يتداوى المسلم على يد طبيب غير مسلم، أو أن يتعلم المسلم أصول الطب عن طبيب غير مسلم. وقد دأب حكام المسلمين على إرسال البعثات الطبية إلى أطراف البلاد، من بدو وحضر، ومدن وقرى، وأمروا أعضاء هذه البعثات بتقديم العلاج والدواء لكافة المرضى على اختلاف دياناتهم وعقائدهم، وليس لمرضى المسلمين فقط. وكان على الإسلام الذي أمر بالرأفة بالحيوان أن تعم رأفته جميع البشر بغض النظر عن معتقداتهم وأجناسهم.

روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم استدعى الحارث بن كلدة - ولم يكن على دين الإسلام - لعلاج سعد بن أبي وقاص عندما مرض وقال صلى الله عليه وسلم: **«ادعوا له الحارث بن كلدة فإنه رجل يتطبب»**. وعندما أصيب الخليفة أبو جعفر المنصور بعلة في معدته، استدعى طبيباً نسطورياً في جنديسابور - هو جورجيس بن بختيشيوع - لعلاجه. وقد ظل هذا الطبيب في خدمة الخليفة مداوماً على علاجه.

وقد اتجه المسلمون منذ بداية عصر الترجمة في عصر الدولتين الأموية والعباسية إلى ترجمة كتب الطب اليونانية، وأشادوا بما قدمه أبقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان، وأخذوا عنهم كل ما لا يتعارض مع الإسلام ومبادئه التي تستهدف السموّ بمهنة الطب. ولم يتنكر الأطباء المسلمون لما قدمه أبقراط اليوناني ولا أدل على ذلك من أنهم شرطوا على كل من رغب في مزاولة مهنة الطب أن يستوعب ما شرطه أبقراط على نفسه من قواعد وشروط، وأن يحلف على احترام هذه الشروط والقواعد.

ولم يكتف العلماء المسلمون بما ترجموه من كتب الطب اليونانية لأبقراط وجالينوس وغيرهما. ولكنهم عكفوا على دراستها وتصحيح ما بها من أخطاء وأضافوا الكثير إلى مهنة الطب. علماً وعملاً. وكان منهج

المسلمين يقوم دائماً على أساس التجربة والملاحظة. فالحقوا دراسة الطب بالبيمارستانات ليتمكن المعلمون والمتعلمون من تشخيص الحالات المرضية ومتابعتها، والوقوف على تطور المرض وأعراضه، وإجراء الفحوص اللازمة.

ولما كان من آداب الإسلام ضرورة مراعاة حرمة الميت، لذا كره الأطباء المسلمون دراسة التشريح لمعرفة وظائف الأعضاء وتركيبها. وما يلم بها من عوارض. وقد تغلب العلماء في العصور الإسلامية على هذه العقبة بتشريح أجساد القردة باعتبارها أقرب الحيوانات في تركيبها الوظيفي للإنسان.

لقد توسع المسلمون في علم الطب وبناء البيمارستانات لحفظ الصحة حتى أن عدد الأطباء في بغداد وحدها وصل إلى ثمانمائة ونيف وستين طبيباً سوى من كان في خدمة الخليفة المقتدر بالله (295 ـ 320هـ/ 908 ـ 933م) ونجد أسماءهم على الخصوص في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ت 668هـ/ 1270م) مؤرخ الطب العربي الذي ترجم لثمان وستين وثلاثمائة طبيب مشهور، وكتاب تاريخ الحكماء للقفطي (ت 636هـ/ 238م)، وتاريخ الأطباء والحكماء لابن جلجل. ونجد هؤلاء الأطباء من المسلمين واليهود والنصارى ومن جنسيات مختلفة وقد وصلت شهرة بعض الأطباء درجة لا تقل عن شهرة الخلفاء والملوك، لتواجدهم في بلاطهم نذكر منهم أسرة بختيشوع في بلاط العباسيين، وبني زهر في بلاط الأمويين في الأندلس، وآل العزار في بلاط الفاطمين في المغرب ثم مصر.

وللدلالة على ما قدمه الأطباء المسلمون نذكر بعض من اشتهر منهم وذاع صيته، وأسهم في تقدم مهنة الطب ومنهم:

1 ـ **أبو بكر الرازي** (250 ـ 320هـ/ 864 ـ 932م)

ولد في الرّي، وكان في أول عمره عازفاً للعود، واستمر حتى سن الثلاثين، وبعد ذلك أقدم على تعلم الطب ونبغ فيه حتى سماه العرب جالينوس العرب، وأصبح رئيساً لبيمارستانات الريّ وبغداد، ثم عمي في آخر عمره، وعرف عند الأوروبيين باسم «Rhozes» وقد ألف الرازي أكثر من مائة

مؤلف منها كتابان اشتهرا في أوروبا شهرة كبيرة، وهما كتاب الحاوي وكتاب الجامع الخاص لصناعة الطب، الذي جمع فيه كل ما عُرف من صناعة الطب، وإن كان يبدو أنه أكمله أحد تلامذته. ويذكر من تفوق الرازي أنه أول من استخدم الماء البارد في علاج الحميات، وله رسالة في الجدري والحصبة. كما أنه تكلم عن الحصى في الكلية والمثانة بدقة متناهية.

2 ـ **أبو علي بن سينا**: (370 ـ 428هـ/ 980 ـ 1037م)

يعتبر ابن سينا من أشهر العلماء المسلمين حتى لقب بالمعلم الثاني تشبيهاً له بأرسطو (المعلم الأول). وكان عالماً موسوعياً له عدد من المؤلفات في الفلسفة، والطب والهندسة والفلك والموسيقى وغيرها. لكن كتابه (القانون في الطب) يعتبره الأوروبيون خير ما أنتجته القريحة الإسلامية، والحق أن هذا الكتاب جاء موسوعة طبية ضخمة، تناولت شتى الأمراض، وأسبابها وأعراضها وعلاجها، فضلاً عن تشريح أعضاء الجسم الإنساني عضواً عضواً، ولأهمية هذه الموسوعة فقد قام الأوروبيون بترجمتها إلى اللاتينية، وطبعها عدة طبعات قبل أن يعرف العالم الإسلامي الطباعة.

3 ـ **أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد (المعروف بابن الجزار)** (ت 369هـ/ 980م)

وهو طبيب مغربي من أطباء القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، له عدد وافر من المؤلفات التي وردت في كتب طبقات الأطباء، وإن كان ابن الجزار كغيره من علماء عصره موسوعة في علوم شتى إلى جانب الطب.

وقد أثرى ابن الجزار علم الطب بالقيروان وذلك بما ألفه من كتب بقي بعضها حتى اليوم شاهداً على تفوقه، وهي تبين مدى استفادة هذا الطبيب من علوم الأوائل وإن كان سباقاً إلى أمرين في الطب اختص بهما دون غيره.

أ ـ طب الأطفال في كتابه «سياسية الصبيان وتدبيرهم»[1] يتناول فيه

---

(1) ابن الجزار القيرواني: سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس 1968م.

حياة الطفل منذ أن كان جنيناً في بطن أمه حتى سن الدراسة بالكتاب.

ب ـ زاد المسافر وقوت الحاضر[1]: ويشير ابن الجزار إلى الغرض من تأليف كتابه هذا بقوله: «. . . ويكون تذكرة للعالم الماهر وزاداً للمسافر إلى البلدان البعيدة التي لا يوجد بها طب. وقد وصل هذا الكتاب إلى الأندلس، وبلاد المشرق. فضلاً عن الكتب الكثيرة التي ألفها ابن الجزار والتي أشار إليها ابن أبي أصيبعة بقوله إن ابن الجزار ترك عند وفاته خمسة وعشرون قنطاراً من الكتب[2].

ومن مشاهير أطباء الأندلس نذكر:

4 ـ **أبو القاسم الزهراوي**: (ت 500هـ/ 1106م)

نبغ الزهراوي في علم الجراحة، واخترع كثيراً من آلاتها، وله كتاب: «التصريف لمن عجز عن التأليف» وهو الكتاب الذي ظل يُعول عليه الغرب الأوروبي بعد ترجمته إلى اللاتينية طوال بضعة قرون. هذا إلى أن الزهراوي باشر بعض الجراحات النسوية وخاصة فيما يتعلق بالولادة أو التوليد، واستخدم في ذلك بعض الآلات الجراحية التي وصفها ورسمها ولم تُعرف من قبل.

وقد اهتم الأطباء العرب بجميع التخصصات الطبية فبرع غير واحد منهم في طب العيون أو ما يُعرف بالكحالة، وكذلك عرفوا الأمراض النفسية، ووصفوا لها علاجات، وفسروا كثيراً من الاضطرابات التي تصيب الإنسان ـ وبخاصة الشباب في دور المراهقة ـ في ضوء العوامل النفسية.

وكان النشاط الطبي لعلماء المسلمين يتم في بيمارستانات (مستشفيات) وهي المراكز الرئيسية لذلك النشاط الطبي المتعدد التخصصات، حيث

---

(1) ابن الجزار: زاد المسافر وقوت الحاضر، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1718 د. بشير التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب، ج 2، ص 479.

(2) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص 481.

يتواجد الأطباء كما تتوفر الأدوية من معاجين ومساحيق وأشربة ومراهم يقوم بإعدادها صيادلة متخصصون.

علم الصيدلة (الأدوية):

أسهم العلماء المسلمون بنصيب كبير في علم الصيدلة، ولدينا كتب متعددة تبين جهود العلماء المسلمين. وقد كانت قبل تحضيرها ـ توجد في دكاكين العشابين (العطارين) التي تحتوي على نباتات ضرورية لصنع العقار إذ كانت أغلب العقاقير تحضر من الأعشاب الطبيعية، ولدينا مقال لأطباء مسلمين في كيفية تركيب الأدوية البسيطة أو المفردة أو المركبة وكذلك سميت الأدوية بحسب أثرها في العلاج مثل مسخن ـ ملطف مخشن، هاضم، لاذع، قابض، عاسر إلخ... وكان تحضيرها وتركيبها بعدة طرق منها: السحق، والدق، والنخل، والطبخ، والنقع.

ولعله من الطريف أن كثيراً من الأسماء التي أطلقها العلماء المسلمون على الأدوية ما زلنا نستعملها اليوم مثل الحبوب ـ والأقراص ـ والسفوف والمعاجين، والمراهم، والدهن. والكحل، والثلج، والغرغرة، والمضمضة والترياق، والأشربة، والحقنة، والضماد، والطلاء...

ولقد تقدم علم الصيدلة بفضل جهود عدد من العلماء المسلمين يمكن أن نختار أبرزهم على سبيل الاستدلال:

1 ـ أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد (ابن الجزار)

كان ابن الجزار طبيباً إلى جانب أنه كان صيدلياً فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان يضع على باب داره غلاماً يسمى رشيق أعد بين يديه جميع المعجونات والأشربة والأدوية، فإذا رأى القوارير بالغداة أمر بالجواز إلى الغلام وأخذ الأدوية منه نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئاً.

نستنتج من ذلك أن ابن الجزار كان قد خصص في داره، مكاناً لصرف الأدوية للمرضى، وبذلك فرّق بين «بيت العيادة» وهي بيت الوصف،

والصيدلة وهي «بيت الصرف» كما يتضح من مؤلفاته وتجاربه التي أوردها في كتبه، أنه كان يُعد الدواء بنفسه أو يقوم بالإشراف المباشر على تحضيره وتركيبه، أما الغلام رشيق ـ فهو مساعد تكلف بصرف الأدوية للمرضى حسب الوصفات التي يحررها ابن الجزار الطبيب.

ومن ثم يمكن القول إن ابن الجزار قد خطا خطوات فصل خلالها الطب عن الصيدلة ووضع التخصص في كل منهما، مع إثبات التكامل بينهما.

وقد ألف ابن الجزار الطبيب الصيدلي عدداً كبيراً من المؤلفات نذكر من بينها:

1 ـ كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة.

2 ـ كتاب إبدال العقاقير.

3 ـ كتاب العطور.

4 ـ كتاب البغية في الأدوية المركبة.

5 ـ كتاب السمائم.

6 ـ كتاب في الحيوان.

7 ـ كتاب في مصالح الأغذية[1].

والخلاصة فيما قدمه ابن الجزار لعلم الصيدلة أنه كان يعرف اسم النبات باللغات العربية واليونانية، وبالفارسية، والسريانية واللاتينية، ومن ثم يبين قوة الدواء من حار أو بارد أي درجة الحرارة والبرودة، من يابس أو رطب وبعد ذلك يتبعها بالتعريف العلمي وكان يصف الدواء بشكل مفصل أنواعه والرديء منه والجيّد، كما يتطرق إلى الخصائص العلاجية والحالات التي يؤخذ فيها الدواء حسب التنظيم الصيدلي المتبع كالأشربة ـ جوارش ـ جلاب ـ نقوع ـ حب، ثم يذكر طرق تحضير مثل هذه الأدوية، وذكر

---

(1) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص 482.

الجراعات. ويقول: الشربة منه كذا أو غير ذلك ويحذر من الغش في الأدوية، ويوضح ذلك بالاختبارات العلمية للوقوف عليها وأخيراً يركز على موضع إبدال الأدوية التي أعارها اهتماماً خاصاً، ووضع لذلك كتاباً خاصاً أسماه (إبدال الأدوية).

2 ـ ابن البيطار: (ت 646هـ/ 1248م).

صيدلي أندلسي ازدهر على يديه علم الصيدلة، زار بلاد اليونان ومصر في عهد الأيوبيين واستقر بها وتقلد وظيفة رئيس سائر العشابين أو كبير الصيادلة، وألف كتابه: الجامع الكبير لقوى الأدوية والأغذية الشهير بمفردات أو جامع المفردات، جمع فيه أكثر من أربعمائة وألف دواء مرتبة على حروف المعجم منها ثلاثمائة من ابتكاره وتجاربه، ومنها ما عرف من قبل اليونان ولا سيما ما ورد منها في كتاب ديسقوريدس (Dioskryrides) الذي شرحه ابن البيطار بنفسه، ومنها ما ورد في كتاب هندي عُرف باسم سر سردندان. ومع ذلك فإن ابن البيطار لم يشتهر شهرة كبيرة في أوروبا في العصور الوسطى ولعل ذلك يرجع إلى أن الدولة العربية كانت عصرئذ في أفول وعداء[1].

علم الكيمياء:

شهدت الحضارة العربية الإسلامية مولد علماء مهرة في علم الكيمياء منهم على سبيل المثال: جابر بن حيان، والرازي، وابن سينا، والجلدكي والمجريطي، وأبو المنصور الموفق، والطغرائي، وأبو القاسم العراقي، والإمام جعفر الصادق، وخالد بن يزيد بن معاوية، وأبو الريحان البيروني رائد التفاعلات الكيميائية، وأبو الفتح الخازني، وسواهم كثير.

وبلغ من اهتمام المسلمين بهذا العلم، أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموي (13 ـ 85هـ/ 635 ـ 704م) تخلى عن الحكم وتفرغ للعلم

(1) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص 251.

وبالذات علم الكيمياء، وأنه اعتمد على مصادر يونانية، غير أنه لم يؤمن بالعمل النظري ما لم يقترن بالتجارب والعمل المخبري، فقد توصل العلماء المسلمون إلى معرفة الكثير من أسرار علم الكيمياء فاستحضروا حامض الطرطير «النطرون» وحامض الكبرتيك، والماء الملكي. كما بدلوا الطرق البدائية في صهر المعادن، وتمكنوا من تحضير عدد كبير من المركبات الكيميائية، مثل الصودا الكاوية، وكربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم والزرنيخ، والقلويات، والنشادر ونترات الفضة، ثم استطاعوا التمييز بين الأحماض والقلويات، وعرفوا أن النار تنطفي إذ منع عنها الهواء، وعرفوا طرق التقطير المختلفة.

كما استطاعوا تحضير ماء الفضة (حامض النيتريك) وماء الذهب (حامض البيترو هيدروكلوريك) والسليماني (كلوريد الزئبق) والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق) وحجر جهنم (نترات الفضة) والزاج الأخضر (كبريتات الحديد) وسواها الكثير.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اكتشف الكيمائيون المسلمون طريقة فصل الذهب عن الفضة بواسطة حامض النيتريك، فضلاً عن استخدامهم ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج، وصنعوا البارود، والصابون والورق والحرير، والأصباغ، ودبغ الجلود والروائح العطرية، والمفرقعات. والزجاج والسكر والثلج، والشموع ومواد التجميل والزيوت النباتية وسواها.

وقد أشار الكيميائي محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (ت 366هـ/ 976م) في كتابه مفاتيح العلوم إلى أسماء بعض الأجهزة والآلات التي استخدمها العلماء المسلمين في علم الكيمياء ومن أبرزها:

- الأثال: آلة من الزجاج أو الفخار على هيئة الطبق ذي المكب.
- الأنبيق: آلة كالدورق لا ميزاب به.
- البوطق: البوتقة.
- البوط: آلة تستعمل في عملية الاستنزال.

ـ الراط: وعاء يفرغ فيه ما يذاب من ذهب أو فضة أو سواهما ويسمى المسبكة.

إلى جانب عدد كبير من الآلات التي استخدمت في تحضيرات كيميائية مختلفة نذكر منها:

ـ التقطير: كانت هذه العملية من أولى العمليات التي قام بها المسلمون والعرب. وبواسطته استطاعوا فصل الجسم المراد تحضيره، بتصعيده إلى بخار ثم تكثيفه إلى سائل.

ـ التسامي: وهي عملية فصل الجسم الطيار بتسخينه حيث يتكاثف بخاره إلى مادة صلبة دون المرور على الحالة السائلة.

هذا فضلاً عن عمليات كيميائية أخرى مثل: التكليس، والتبلور، والترشيح.

علم الطبيعة (الفيزياء)

يهتم علم الفيزياء بعلاج كثير من الظواهر الطبيعية المرتبطة بطبيعة المواد والصوت، والضوء، والمغناطيسية والحركة والروافع.

وقد أخذ المسلمون ـ بادىء الأمر ـ علم الفيزياء عن اليونان، وأضافوا إليه إضافات صائبة، فنقلوا عنهم رأيهم في إنكسار الضوء، والمرايا المحرقة والجاذبية والثقل النوعي، والقوانين المائية التي تحكم العيون والينابيع والآبار الارتوازية، وطبقوا نظرية الأواني المستطرقة تطبيقاً عملياً، وفسروا في ضوئها اندفاع الماء في الآبار الارتوازية والعيون، واستخدموها في النافورات الصناعية.

وتمكن العلماء المسلمون من تقدير الأوزان النوعية لعدد من السوائل والمواد الصلبة والمعادن، والأحجار الكريمة، واستخدموا أجهزة دقيقة لتقدير كثافة الأجسام.

وقد علل الفيزيائيون المسلمون انتشار الصوت في الهواء على شكل

موجات كروية تتسع وتقوى، وتضيق كلما بعدت. وعللوا صدى الصوت بأنه يحدث نتيجة لانعكاس الموجات الصوتية عند اصطدامها بحاجز «مثل جبل أو حائط واستخدم المسلمون النظريات التي وضعوها في الصوت لتطوير الآلات الموسيقية المعروفة لديهم، واختراع آلات جديدة. كما برهنوا على أن الضوء أسرع من الصوت وعللوا ذلك برؤية البرق قبل سماع الرعد.

ولعل أشهر علماء المسلمين في علم الفيزياء:

ابن الخازن البصري (ت 1038م) والبيروني (ت 1048م) وابن سينا (ت 1036م) والحسن بن الحسن بن الهيثم (ت 1038م) وقد تفوق ابن الهيثم في البصريات والضوء، ألف كتاب «المناظر» الذي عالج فيه تشريح العين، وكيفية الرؤيا، وانكسار الضوء وانعكاسه، وغيرها من البحوث التي أذهلت الأوروبيين، والتي بنوا عليها نظرياتهم الحديثة في علم الضوء. ولابن الهيثم عدد كبير من المقالات في علم الفيزياء منها (مقالته في الضوء) مقالة في المرايا المحرقة بالقطوع، ومقاله في المرايا المحرقة بالدوائر وغيرها.

ويتضح من خلال اهتمامات ابن الهيثم أنه بحث في أنواع المرايا وشكل الصورة على كل نوع، سواء كانت المرايا مستوية أو محدبة أو مقعرة، فضلاً عن بحثه في المرايا المحرقة وأهميتها في تجميع حرارة الشمس.

ويرجع الفضل للفيزيائي ابن الهيثم في وضع القسم الثاني من قانون الانعكاس وهو القسم الذي يثبت فيه أن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوى واحد. أما القسم الأول من القانون القائل بأن زاوية السقوط تساوي زاوية الانعكاس فقد وضعه اليونان، كما توصل ابن الهيثم إلى وضع جداول دقيقة ـ بعد تجارب مضنية ـ لتحديد معاملات الانكسار لبعض المواد.

علم النبات:

لعل مصدر اهتمام المسلمين بهذا العلم يرجع إلى أهمية النبات كمصدر لغذاء الإنسان والحيوان على حد سواء. فضلاً عن أهمية الخشب

واستخداماته في السكن والتدفئة وطهي الطعام وغيرها من الأغراض. لذا كان من الطبيعي أن يحتل الاهتمام بهذا العلم في حياة المسلمين العلمية والفكرية أهمية خاصة. فعالج بعضهم النبات من الناحية اللغوية، وعالجه آخرون من الناحية الدوائية والعلاجية، وعالجه فريق ثالث من الناحية الوظيفية والتركيبية.

وممن اهتم بعلم النبات من المسلمين الأصمعي، والدينوري صاحب كتاب النبات وأبو زيد الأنصاري صاحب كتاب الشجر الذي جمع فيه مؤلفه أكثر من ثلاثمائة نبات مقسمة إلى أنواع، منها الملحي، أي الحمضي - وغير الملحى، ومنها الحولي أو الموسمي - والمعمر، مع وصف دقيق لأشكالها وثمارها، وأشواكها وازهارها وما يطرأ عليها من تغيرات أثناء مراحل نموها المختلفة.

ولعل أبرز العلماء المسلمين في دراسة علم الأعشاب الدوائية هو ابن البيطار الذي قام بمعاينة النبات في منبته، وشد الرحال إلى كثير من البلاد في المغرب والمشرق لدراسة النباتات على الطبيعة، وأجرى التجارب على كثير من النباتات، وفحصها في منبتها فحصاً دقيقاً.

كذلك نذكر رشيد الدين الصوري الذي كان عند خروجه لمعاينة النبات في منبته، يصطحب معه رساماً ليرسم له بدقة النبات وأجزاءه.

ونتيجة لهذا الاهتمام الإسلامي بعلم النبات، توصل المسلمون إلى نتائج جديدة حول خاصية بعض النباتات وصفاتها، وجمعوا بين شجر اللوز وشجر الورد، وأوجدوا أزهاراً نادرة وجميلة، وتوصلوا إلى طريقة جديدة في تطعيم النباتات وتغير مذاقها.

ويرتبط تقدم المسلمين في دراسة علم النبات بدراسته التربة وأنواعها وأحوالها، والسماد وأصوله وأنواعه ومتى وكيف يتم استخدامه، كما عرفوا طرق الري وتنظيمها والإفادة منها.

وبعد فإن موضوع العلوم عند المسلمين موضوع ضخم ومتشعب نظراً لما قدمه علماء المسلمين في الحياة الفكرية الإنسانية، ولا تكفي للإلمام به

مثل هذه العجالة في كتاب راعينا فيه الاكتفاء بذكر نماذج من أوجه النشاط الفكري والعلمي في الحضارة العربية الإسلامية حتى لا يخرج الكتاب ضخماً ومتشعباً بدرجة لا يكفي سنة واحدة لدراسته والإلمام بكل جوانبه، فضلاً عن التوازن بين فصول الكتاب.

ج ـ العلوم الفلسفية، والرياضية، والفلكية:

1 ـ الفلسفة:

الفلسفة كلمة يونانية معناها الحكمة، وفيلسوف معناها محب الحكمة وقد تعارف العرب قديماً على أن كلمة الحكمة يقصد بها المعرفة بالرياضيات والطب والفلك والموسيقى. . .

وكان اهتمام المسلمين بالفلسفة متأخراً إذ يرجع إلى ما بعد عصر الترجمة الذي ازدهر بداية من عصر أبي جعفر المنصور ووصل قمته في عصر الخليفة المأمون الذي استطاع بفضل جهوده أن يحضر كتب الفلسفة اليونانية إذ كانت القسطنطينية عاصمة الروم ـ تعرف بمدينة الحكمة ـ وبفضل جهود المترجمين تمكن المسلمون من ترجمة كتب فلسفة أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان.

ولم يكتف المسلمون بالترجمة والنقل عن الكتب اليونانية، ولكنهم أضافوا شروحاً وافية، ثم إنهم حاولوا إدخال الفلسفة اليونانية في شرح الدين الإسلامي وجعلوها سنداً للعقيدة، إذ اهتدوا إلى ضرورة اتفاق العقيدة مع العقل، ولذا أطلقوا على الفيلسوف الإسلامي «إمام». وقد ترك الإسلام حرية البحث في الفلسفة خلافاً للأديان الأخرى مثل المسيحية، التي كانت تعتبر التكلم في الفلسفة اليونانية، رجوعاً إلى الوثنية الإغريقية. فإلى المسلمين وحدهم يرجع الفضل في ازدهار الفلسفة اليونانية فهم الذين أذاعوها في العالم، إضافة إلى أنهم أصبحوا يمثلون في الفلسفة عصراً جديداً في الفكر. وقد لاحظ مؤرخو الإسلام أن الفلسفة عند الروم كانت قد تلاشت، ولم تنتعش في أوروبا إلاّ في القرن (8هـ/14م) وذلك بعد ازدهارها في الشرق.

وقد أهتم الفلاسفة المسلمون بفلسفة أرسطو (384 ـ 322 ق. م) أكثر من اهتمامهم بأي فيلسوف آخر، وإن جاء أفلاطون[1] Platan (427 ـ 347 ق. م) في المرتبة الثانية. واعتبروها مدرسة واحدة وهذا لا يعني أنهم لم يعرفوا سوى هذين الفيلسوفين لا بل انهم عرفوا معظم فلاسفة اليونان بما فيهم سقراط، وحتى مذاهبهم الفلسفية المختلفة، فإلى أرسطو نسبوا فنوناً كثيرة، وعرفوا كثيراً من كتبه التي ترجموها إلى العربية، ويبدو أن تميزه يرجع إلى المنطق السليم الذي استخدمه. وكان له عدة كتب قد ترجموا بعضها، وكانوا ينظرون إليه بأنه المعلم الأول، وسيراً على منواله، استخدم الفلاسفة المسلمون المنطق وطوروه على أيديهم إلى علم بقصد استخلاص الحقائق، واستخدموه في جميع علومهم[2].

ومن الصعوبة بمكان إيجاد مذاهب خاصة بفلاسفة الإسلام أو معرفة الفروق بينهم، وذلك بسبب ضياع أغلب مؤلفاتهم فضلاً عن صعوبة معرفة أسلوبهم الفلسفي ومع ذلك فإن الثقة تبدو في مؤلفاتهم، وهم جميعاً كانوا يعرفون لغة اليونان التي ساعدتهم على فهم الفلسفة اليونانية، وقد تعرضوا في فلسفتهم إلى مسائل دقيقة مثل خلق العالم والزمن، والعقل والنفس، والخير والشر، فهم بذلك وسعوا في التفكير العالمي عامة والإسلامي بوجه خاص.

ولعل أول من اعتنى بالفلسفة عبدالله بن المقفع الفارسي (ت 240هـ/ 757م) الذي تولى الكتابة لدى الخليفة الثاني أبي جعفر المنصور العباسي فترجم كتب أرسطو الفلسفية، وربما عن الفارسية، وإن لم يظهر ابن المقفع آراء فلسفية، كما أن ترجماته لم تصلنا.

وبعد ذلك جاء، أبو يوسف يعقوب الكندي (ت حوالى 260 هـ/ 873م)[3] الذي كانت له آراء فلسفية عن أرسطو وأفلاطون، وذلك لعلمه

(1) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص 128.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 388.

(3) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص 103.

باليونانية والسريانية، وقد ألف خمسين تأليفاً في أكثر العلوم من بينها الفلسفة ـ حيث ذكرها المؤرخون ـ ونعرفها بالاسم فقط مثل كتاب التوحيد المعروف بفم الذهب، وكتاب إثبات النبوة، وأما ما تبقى من كتبه الفلسفية بين أيدينا فهي قليلة بعضها لا يزال مخطوطاً، ولم ينشر منه بالعربية إلاّ القليل، كما توجد له ترجمات لاتينية فلسفية واضحة.

على أن اهتمام العرب بالفلسفة لم يتوقف إذ ظهرت مدرسة فلسفية قائمة بذاتها تتمثل في الفارابي، وابن سينا وكلاهما له تآليف نفيسة في الفلسفة حتى قيل إن الحكماء أربعة إثنان قبل الإسلام هما سقراط وابقراط، وإثنان بعد الإسلام هما الفارابي وابن سينا.

أما الفارابي (259 هـ 339هـ/ 872 ـ 950م) فهو أبو نصر محمد من أصل تركي ولد بفاراب على نهر جيجون، وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها، ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة الحمداني، وتوفي بدمشق، وكان الفارابي زاهداً إلاّ في العلم، لا يحفل بأمر مسكنه أو ملبسه، وقد قيل أنه يتقن سبعين لغة وتصانيفه في الفلسفة على نسق كتب أرسطو[1]. ومن ثم أطلق على الفارابي المعلم الثاني حيث أن المعلم الأول هو أرسطو، وبفضل الفارابي وصلت فلسفة أرسطو إلى أقصى ما تصل إليه من ازدهار، وإن كان قد اهتم بفلسفة أفلاطون أيضاً. وبفضل شروح الفارابي للفلسفة اليونانية وتحليله لأبعادها تمكن من تقريبها إلى الفكر الإسلامي، مما لم تعرف قبل على يد الكندي، حتى سماه صاعد الأندلسي فيلسوف المسلمين بالحقيقة، وللفارابي آراء في المدينة الفاضلة لأفلاطون وصنف كتاباً بخصوصها أسماه كتاب في مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة التي تحتاج إلى ناموس نبوي ـ أي من قبل الوحي ـ وله كذلك رسالة فصوص الحكم.

أما ابن سينا (370 ـ 428هـ/ 980 ـ 1037م) فهو أبو علي عبد الله من

(1) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص 138.

أصل تركي أيضاً. ولا تقل شهرة ابن سينا الطبيب عن شهرته كفيلسوف، حتى إنه لقب بالشيخ الرئيس وعُرف بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، ولابن سينا كتب كثيرة في فلسفة أرسطو وافلاطون، والافلاطونية الحديثة ـ نسبة إلى أفلوطين ـ تشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة وتطورها على يديه. ومن أشهر مؤلفاته الفلسفية كتاب الشفاء، وكتاب الإشارات، وتسع رسائل في الحكمة وغيرها.

الفلسفة في المغرب والأندلس.

ظهر في بلاد المغرب والأندلس عدد من الفلاسفة العظام منهم:

ـ ابن باجه (ت 523هـ/ 1138م)، من مدينة سرقسطة، وهو الآخر من شراح فلسفة أرسطو، وقد ألف كتابه تدبير المتوحد الذي لم يصلنا، وإن وصلت منه شروح فلسفية بالعبرية[1]. وابن الطفيل (ت 581هـ/ 1185م) وله كتاب حي ابن يقظان، وهو كل ما تبقى من مؤلفاته ـ ويعتبر مفخرة للفلسفة الإسلامية وأثراً عظيماً في العصور الوسطى. وفي حي ابن يقظان يرسم ابن الطفيل حياة طفل وُجد في جزيرة نائية، التقطته ظبية وحنت عليه، فلما كبر استطاع بتأمله أن يصل إلى معرفة الله وحقائق الوجود، فهو تحسس عقلي من الظلام إلى معرفة العالم، أو مناظرة بين قوى الإنسان وعقله.

وابن رشد (ت 595هـ/ 1198م) الذي يعتبر من أعظم شراح فلسفة أرسطو، حتى أطلق عليه اسم الشارح، فهو الذي ميز بين تعاليم أرسطو وأفلاطون وكان كثير التمحيص ناقداً لآراء أرسطو التي لا تتفق مع الدين ـ وهو ما لم يقم به سابقوه. وقد بلغت شهرة ابن رشد كل أنحاء العالم المتنور، ومن تآليفه الهامة «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال». كما توجد له عدد من الشروح الفلسفية.

وبالرغم مما قدمه فلاسفة الإسلام، إلا أن فئة من العلماء رفضوا

(1) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص 218.

الخوض في الفلسفة ومن بينهم الغزالي (ت 505هـ/ 1183م) الذي ألف كتاب «تهافت الفلاسفة» هاجم فيه الفلاسفة غير أنهم دافعوا عن أنفسهم، وعن ربط الفلسفة أشد الربط بالدين، ولا سيما ابن رُشد الذي ألف كتاب «تهافت التهافت» هاجم فيه الغزالي.

ومهما يكن فإن فلاسفة الإسلام قد قدموا خدمات عظيمة من خلال محافظتهم على فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان وبما قدموه من شروح ضافية حول آراء أرسطو وأفلاطون ونقد بعض تلك الآراء الفلسفية التي تتعارض مع الدين بوجه عام والدين الإسلامي بوجه خاص.

ب ـ الرياضيات:

كانت جهود القدماء في علم الرياضيات متواضعة، فلم تكن تعرف منها سوى مبادىء الحساب الذي كان متقدماً عند الهنود من الناحية العملية، وعند اليونان الذي سموه الارثماطيقي، وكذلك عرف المصريون القدماء مبادىء علم الجبر. أما علم الهندسة فقد تقدم في مصر القديمة من الناحية العملية، ومن الناحية العلمية في اليونان، وإن كانت الكلمة (هندسة) فارسية الأصل.

ويرجع الفضل للمسلمين في تقدم علوم الرياضيات، إذ اسهموا في فروعه المختلفة، فهم الذين نقلوا إلى العالم المتحضر طريقة الحساب بالأرقام وهي طريق العد المعروفة الآن، فسميت لهم بالأرقام العربية، ويُقال أنهم نقلوها عن الهنود، الذين أخذوا الصفر من الدائرة، والواحد من الخط المستقيم والمسلمون يذكرون ذلك في كتبهم. ومع ذلك فإن العد بالأرقام لم ينتشر عند العرب، إلا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. أما قبل ذلك فإنهم كانوا يستعملون الحروف في العد.

وللعرب الفضل في معرفة الأعداد وتغيير قيمتها حسب وضعها في خانة الآحاد أو العشرات أو المئات أو الألوف أو الملايين. فضلاً عن وضع العرب لأسس الحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة كسور، وعرفوا أسرار الأرقام.

ومجهودات المسلمين في علم الجبر ـ ويقصد به استخراج المجهول من المعلوم ـ كبيرة جداً، إذا لم نقل أن اختراع هذا العلم من أساسه من اختراع المسلمين فقد أوضح الخوارزمي (محمد بن موسى الخوارزمي) الذي عاش في زمن المأمون في مؤلفه (الجبر والمقابلة) أكثر المسائل المتعلقة بالجبر الحديث من معادلات وجذور وكسور. وإن مجهودات الخوارزمي في علم الجبر تعتبر مثالاً لعبقرية العلماء المسلمين في بداية عصور العلم، ذلك أن الخوارزمي يعتبر بحق مثالاً رائداً في الرياضيات وفي الجبر بصورة خاصة فهو أول من أطلق مصطلح الجبر الذي أخذ عنه الأوروبيين الكلمة الإنجليزية (Algebra)، ولقد ظل الخوارزمي محط أنظار الأوروبيون واهتمامهم، واعتمدوا عليه في كثير من أبحاثهم ونظرياتهم.

ويمكن القول إن الخوارزمي قد وضع علم الحساب وعلم الجبر للناس أجمعين.

ولم يتوقف علم الجبر عند المسلمين على ما قدمه الخوارزمي، ولكنهم طوروه إلى أبعد من ذلك حين حلوا معادلات الدرجة الثالثة، مما أدهش علماء الغرب ويتضح ذلك من خلال مؤلفات البتاني، وثابت بن قرة وغيرهم، كما بحث العرب في نظرية ذات الحدين التي يمكن عن طريقها رفع مقدار جبري ذي حدين إلى قوة معلومة أسسها عدد صحيح موجب. وفيما يتعلق بالجذور الصماء فقد قطع العرب شوطاً كبيراً في دراستها وفهمها. لقد كان الخوارزمي أيضاً يستعمل كلمة «أصم» لتعني العدد الذي لا جذر له.

إذن يمكن أن نقرر أن هذا الموجز البسيط لجهود بعض العلماء المسلمين منذ بداية عصر الخليفة العباسي المأمون يؤكد أن علماء المسلمين قد قطعوا شوطاً كبيراً في دراسة علوم الرياضيات وفهمها ووضع بعض أصول فروعها.

لكن حقيقة الأمر أن الأبحاث والدراسات الرياضية للمسلمين، قد

تطورت بعد عصر المأمون وبخاصة في عصر البيروني (ت 440هـ/ 1048م) الذي يصفه المؤرخون بأنه عقلية لا نكاد نجد لها مثيلاً، فهو من أبرز علماء ومفكري الإسلام الذين ظهروا في الفترة من منتصف القرن الرابع الهجري إلى منتصف القرن الخامس الهجري.

فقد عرف البيروني إسهامات الإغريق والهنود في الرياضيات، وفهم أن لهم الفضل في الكثير من الإنجازات العلمية لكنه أوضح جوانب القصور والضعف في هذا الإنتاج العقلي. ومن جهة ثانية يقول البيروني في فهمه لحساب المثلثات وارتباطه بالفلك ما نصه: «إن هذه الصناعة إذا أريد إخراجها إلى الفعل بمزاولة الحساب فيها، بالاعداد مفتقرة إلى معرفة أوتار الدائرة، فلذلك سمى أهلها كتبها العلمية زيجات... أعني الوتر، وسموا أصناف الأوتار جيوباً، وإن كل رسم الوتر بالهندية جيباً، ونصفه جيبارد... ولكن الهند إذا لم يستعملوا غير أصناف الأوتار أوقعوا اسم الكل على النصف تخفيفاً في اللفظ». لذلك وجدنا البيروني يهتم بالمسائل المتعلقة بجيب الزوايا، وتقسيم الزوايا واستخدام النسب المثلثية وإيجاد قيسم بجيوب الزوايا المطلوبة.

أما في مجال الهندسة فنجد البيروني يعالج الأشكال الهندسية المنتظمة، ويوجد أطوال الأضلاع عن طريق حلّ معادلات الدرجة الثانية والثالثة، وله معادلات في هذا الصدد توصل من خلالها إلى إمكانية إيجاد مقدار الجيب بأي عدد من الأرقام العشرية.

وأنه إذا كنا قد أشرنا على سبيل المثال لا الحصر - إلى ما قدمه الخوارزمي والبتاني، والبيروني في علوم الرياضيات، فإن مآثرهم عظيمة في تقدم العلوم الرياضية بصفة خاصة، لأنهم أول من أدخل النظام العشري في الأعداد الحسابية، ذلك أن اليونان كانوا يستعملون في العدد الحروف الأبجدية للعد من 1 حتى 999 ثم الشرطة، والشولة، والنقطة للعدد فيما بعد ذلك حتى الآلاف.

لذا قام علماء الرياضيات المسلمون بتهذيب وتصحيح ما قدمه علماء الهند واليونان والرومان في علم الرياضيات وبخاصة الأعداد التي اختصرها المسلمون وكونوا منها مجموعتين من الأرقام تعرف إحداهما باسم الأرقام الهندية، أما الأخرى فتعرف بالأرقام الغبارية. ويرى بعض العلماء ومن بينهم البيروني، إن السلسلة الغبارية مرتبة على أساس عدد الزوايا، وسبب تسميتها بالأرقام الغبارية هو أن أهل الهند ـ كما يشير البيروني ـ كانوا يأخذون غباراً لطيفاً وينثرونه على لوح من الخشب أو غيره. ثم يرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون إليها في عملياتهم الحسابية ومعاملاتهم الاقتصادية والتجارية.

ولم تتوقف جهود علماء الرياضيات في العصر الإسلامي (لوسيط) عند هذا الحدّ بل إنهم عكفوا على دراسة كتاب الأصول لاقليدس، وألفوا كتباً تفوقه في المستوى، وابتدعوا المسائل والتمارين التي لم يعرفها القدماء، وابتدعوا حلولاً لبعض المسائل تختلف عن تلك الحلول التي وضعها القدماء، بل لقد تنبه المسلمون وابن الهيثم بالذات إلى تطبيق الهندسة في الضوء، واستعانوا بهذا التطبيق في تعيين نقطة الانعكاس في المرايا الكروية والاسطوانية والمخروطية المحدبة والمقعرة، ولعله يكفينا أن نتبين ما قدمه العلماء المسلمون من إسهام في ميدان الجبر من خلال كتاب الخوارزمي (الجبر والمقابلة) الذي يمثل إنجازاً رائعاً في هذا العلم بناء على أحكام الشريعة الإسلامية.

علم الفلك (الهيئة):

يعتبر علم الفلك وما يتصل به من دراسات من أهم العلوم التي اعتنى بها المسلمون لأسباب كثيرة لعل أهمها أن هذا العلم يتصل بصورة مباشرة بالحياة العملية للمسلم مثل تحديد أوقات الصلاة والصوم والحج وجميع المناسبات والأعياد الدينية.

ويرجع اهتمام المسلمين بعلم الفلك إلى أواخر عصر الدولة الأموية إذ يذكر كارلو فلينو في كتابه «علم الفلك: تاريخه عند العرب في العصور

الوسطى» أن أول الكتابات الفلكية القديمة التي ترجمت إلى العربية كان كتاب هرمس، وأن الترجمة العربية لهذا المخطوط موجودة في المكتبة الأمبرسيانية في ميلانو بإيطاليا، ويشير أيضاً إلى أن هذه الترجمة لهذا الكتاب تمت في أواخر عهد الدولة الأموية ومن خلال النصوص يمكن أن نستخلص أن المسلمين تطلعوا إلى علم الفلك منذ ما قبل قيام الدولة العباسية. ولكن هذا لا يعني أنهم درسوا علم الفلك دراسة علمية منظمة في ذلك الوقت، وإنما الدراسة الجادة والفاعلة لعلم الفلك قد تمت في عصر الدولة العباسية مثل سائر العلوم الأخرى. وبالذات منذ خلافة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني (136 ـ 158هـ).

وعلى كلٍّ فإنه لا بأس من الإشارة إلى أن المسلمين قد ترجموا في أواخر عهد الدولة الأموية إحدى الكتابات الفلكية القديمة، وعكفوا على دراستها لكن الظروف كانت أكثر ملائمة في عهد الدولة العباسية للإبداع في ميدان علم الفلك وتأسيسه بصورة علمية.

والواقع أن علم الفلك قد اختلط مع أعمال التنجيم في بادىء الأمر ولعل الظروف السياسية التي مرت بها الدولة العباسية بداية قيامها هي التي جعلت أبا جعفر المنصور يحتفظ بعدد من المنجمين في بلاطه، وفي هذا العصر وجدنا أبا يحيى البطريق ينقل كتاب المقالات الأربع لبطليموس وهو في الفلك.

ولا يحق لنا بأي حال من الأحوال أن نزعم أن علم الفلك تقدم وتطور البحث فيه من خلال التنجيم. لأن الأسباب العامة التي تتصل بمصالح المسلمين كانت كافية ليهتم المسلمون بعلم الفلك إذ يحتاجون إليه في التقاويم، وضبط محراب الصلاة، ومعرفة ميلاد الهلال في الشهر القمري وشهر رمضان والمناسبات الدينية كالأعياد والوقوف بعرفة وغيرها.

والمسلمون بطبيعتهم أثناء بحثهم في العلوم إنما يحاولون وضع خطوات علمية يمكن أن يتأسس البحث عليها. لذا نجد أنهم اتبعوا المنهج

العلمي في مجال البحث في الفلك وطبقوا الرياضيات أبرع تطبيق واخترعوا وصمموا الآلات المعينة في مجال علم الفلك والتي يحتاج إليها الراصد في جمع معلوماته ومن ثم اتجهوا نحو بناء المراصد التي اشتهر منها الكثير في العالم الإسلامي ويقول حيدر بامات : «وقامت المراصد على نحو ما في كل مركز من المراكز الهامة في الامبراطورية الإسلامية، وقد اكتسبت مراصد بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة وسمرقند شهرة عن جدارة».

وقد زُودت المراصد بآلات من أهمها:

الاسطرلاب الذي اخترعت منه عدة أنواع منها الصفيحة الشاملة الذي ابتكره علي بن خلف وهو أحد علماء الأندلس في القرن الخامس الهجري، والصفيحة الزرقالية الذي ابتكره الزرقالي. والاسطلاب الخطي المنسوب إلى مظفر الدين الطوسي في القرن السابع الهجري، كما حول المرصد آلة ميكانيكية التي يمكن استخدامها في تحديد مواقع النجوم والكواكب، فضلاً عن عدد آخر منها. ذات الحلق، وذات السمت، واللبنة، والحلقة الاعتدالية، وذات الأوتار، وذات الشعبتين، وذات الجيب، والرقاص وغيرها[1].

وقد يعتقد البعض أن المسلمين نقلوا الكتب الفلكية القديمة ودرسوها وفهموها فحسب، ولكن هذا الاعتقاد خاطىء روج له أعداء التراث الإسلامي، إذ إن ما نقل من كتابات قديمة كان يُفند ويصحح، والدليل على ذلك أن كتاب المجسطي لبطليموس حين نقل إلى العربية قام بتفنيده الحسن ابن الهيثم ودرسه دراسة علمية دقيقة في (الشكوك على بطليموس).

وحتى نستطيع أن نلم بما قدمه المسلمون من إضافات في علم الفلك يمكن أن نوجز تلك الإضافات في الآتي:

1 ـ اشتهر المسلمون بوضع الأزياج، واعتنوا برصد حركات النجوم

(1) عمر فروخ وآخرون: تاريخ العلوم عند العرب، ص 481.

رصداً دقيقاً ويتضح لنا هذا من زيج البتاني الذي وضعه عام 299هـ.

2 ـ ضبطوا حركة أوج الشمس (الأوج أقصى حد في البعدين الأرضي والشمسي) وتداخل فلكها في أفلاك أخرى. وذلك بعد أن ساد الاعتقاد بأن الأوج ذو طول واحد لا يتغير، ويعتبر الزرقالي (من الأندلس) أول من أثبت حركة أوج الشمس بالنسبة لحركة النجوم وسجلها بقياساته حيث بلغت 12,04 دقيقة، ومن المعروف أن قياسها اليوم بالأجهزة العصرية بلغ 11,08 دقيقة.

3 ـ أجرى المسلمون أول قياس حقيقي لمحيط الأرض، وحسابات نصف قطرها بطريقة علمية صحيحة.

4 ـ يعتبر البحث في الفلك عند المسلمين بمثابة أول نقد حقيقي لفلك بطليموس وكتابه المجسطي الذي نقده الحسن بن الهيثم، وأبو الريحان البيروني وغيرهما من علماء الفلك المسلمين.

5 ـ إن المسلمين كانوا سباقين لبناء المراصد الفلكية بدأت بالمراصد التي بناها المأمون في دمشق وبغداد، كما استخدم المسلمون الآلات مثل الاسطرلاب، وذات الأوتار، وذات الرقاص، وذات السمت وغيرها من الأجهزة الفلكية، وبذلك فإنهم من المرجح أنهم أول من استخدم التجريب بالآلات الفلكية إضافة إلى المشاهدة الدقيقة.

الفصل الثامن عشر

الفنون الإسلامية

أولاً: الفن والثقافة والدين:

يعتبر الفن مظهراً من مظاهر الثقافة، فقد ترك لنا المسلمون ـ في العصور الوسطى ـ إرثاً هائلاً، مثل الذي تركه لنا العالم القديم، فالفن مرآة ناصعة للحضارة ولذا فإن الفن الإسلامي يعكس الروح العربية وروح الشعوب التي دخلت الإسلام بحيث تعددت تسميته بالفن العربي والفن الإسلامي، وهذا الفن أوسع الفنون انتشاراً، وأطولها عمراً، فقد كان الفن الإسلامي يمتد من الهند إلى الأندلس واستمر باقياً طوال العصور الوسطى، وحتى العصر الحديث.

ومنذ ظهور الإسلام ارتبط الفن الإسلامي بالدين، إذ الفن ولد في خدمة الدين، فقد أصبحت آيات القرآن وسوره توضع على كل شيء، على الأواني والحيطان والأسوار.

وقد كان الفن الإسلامي أول أمره فناً غير شعبي يتبع الحكام فكل عمل فني لا يكون إلا لهم، ولكن في القرنين الرابع والخامس الهجريين نجد أن الفن الإسلامي بدأ يأخذ الصبغة الشعبية، وأخذ الفنان يحاكي

المجتمع الذي يستمد منه فنه، وبذلك أصبح الفن في خدمة الجماعة. وذلك بالتأثير عليها، والوصول إلى غاياتها[1].

وعندما انقسم العالم الإسلامي إلى كيانات مستقلة بداية من القرن الثالث الهجري، تعددت أساليب الفن الإسلامي، وحدث تنافس شديد بين الدول المستقلة، وبالرغم من ذلك فإن روح الإسلام كانت حاضرة في كل بلاد الإسلام، وقد بذل الفنان المسلم جهده في إظهار العمل الفني وإخراجه بالصورة المناسبة، وبظهور نقابات لأصحاب المهن الفنية أدى إلى خلق نوع من التفاني في العمل، وأوجد متخصصين في كل فن. ولدينا صور متعددة للفن الإسلامي تبين مدارسه وأساليبه في مختلف بقاع العالم الإسلامي، وتظهر بجلاء في فنون:

أولاً: العمارة الإسلامية:

تطور فن العمارة الإسلامية بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى وبخاصة بعد فتح سوريا، ومصر، والعراق، وفارس. فتبنوا الفنون الرفيعة الراقية في هذه البلاد. إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن خلفاء بني أمية جلبوا مواد البناء، واستقدموا مهرة الصناع من شتى الولايات لإقامة المدن الجديدة، وإنشاء القصور والمساجد، فاستعانوا في بناء مسجد دمشق بعمال من السوريين والبيزنطيين بتجميله بالفسيفساء، في حين أشرف على عمارته مهندس فارسي[2]. ورحل عدد غير قليل من المصريين للعمل في تعمير بيت المقدس، ودمشق، ومكة، وقد سار العباسيون على نهج الأمويين في استجلاب الفنانين المهرة ومواد البناء من مختلف الأقاليم فقد ذكر الطبري أنه عند تأسيس بغداد جمع العباسيون لها العمال من سوريا وإيران والموصل

(1) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص 258.

(2) م. س. ديماند: الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة أحمد فكري. مصر، دار المعارف 1958، ص 24.

والكوفة وواسط والبصرة[1].

وبالرغم من ذلك فإن فن العمارة الإسلامية قد أخذ طابعاً مميزاً تمثل في الأعمدة التي اتخذت تيجاناً وعقوداً مذببة وروابط خشبية حتى أنه ظهر ما يُعرف بعلم عقود الأبنية. وقد أصبحت الأقواس التي أخذت شكل حدوة الفرس Horse - shoe تدل على الفن المعماري الإسلامي، وإن وجدت الأقواس قبل ذلك فإنها تغيرت في شكلها على يد المسلمين، كذلك كانت المقرنصات من سمات الفن المعماري الإسلامي وتعني الأجزاء المتدلية من السقف، وكذلك فإن بناء القباب والمآذن العالية دليل على براعة الفن الإسلامي. كما كان من مظاهر الفن المعماري الإسلامي بناء المشربيات للبيوت مخرمة أو مزخرفة، وتسمى قمرية إذا كانت دائرية، أو شمسية إذا كانت غير مستديرة.

وقد اختصت العمارة الإسلامية بخصائص ميزتها عن العمارة السابقة لها وأول خاصية تتميز بها العمارة الإسلامية، هي الامتداد الأفقي الذي قد يكون نابعاً من طبيعة الصحراء الساكتة حيث لا يرى إلاّ الأفق الممتد، كما يمثل الامتداد الأفقي المساواة بين الجماعة الإسلامية كوقوفهم صفاً واحداً في الصلاة، فكأن الأفقية في بيت الصلاة تعبير عن البساطة والتنزيه في الإسلام على عكس الامتداد الرأسي في الكنائس التي تمثل الطبقية في المجتمع الأوروبي.

وإذا كانت المئذنة بارتفاعها الرأسي تمثل استثناء من قاعدة الامتداد الأفقي في عمارة المساجد فإنها في الحقيقة ملحقة بالمسجد وليست جزءاً أصلياً في تخطيطه، أما عن ارتفاعها فيرجع إلى وظيفتها في الآذان وما لحق بذلك من الوظائف العارضة، مثل مراقبة الطرق حول المدينة، وإرشاد العابرين أو مراقبة العدو والتحذير منه، مما يرجع أصلاً إلى أبراج الحصون ومنارات الموانىء.

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 6، ص 230.

أما الخاصية الثانية للفن المعماري الإسلامي هو تعبيره في شكله الجمالي الآخاذ عن طرازه الإسلامي، فإذا كان العرب قد أخذوا كثيراً من عناصر فنهم المعماري من مختلف الأقاليم الإسلامية، فإن كثيراً من بلاد العرب الحضرية كانت لها فنونها العريقة كاليمن واليمامة والحجاز والحيرة وبصرى، ولا شك أنه كان لها دور هام في شكل فن العمارة الإسلامي، فقد ازدهرت بلاد اليمن قديماً بقصورها مثل قصر غمدان وقصر كوكبان، وقصر مدد في بلاد همدان، ومن قصر مدد وغيره أخذت تصاميم المسجد هناك. فقد بلغت من الدقة في الصنع وحسن الاستدارة وكأنما مفرغة في قالب[1]. وليس في شهرة قصور اليمن إلاّ قصور الحيرة وهي الخورنق والسدير التي بنيت على الطراز الساساني المعروف باسم (الحيري).

أما اليمامة فقد زهت بأبراجها الشاهقة التي عُرفت باسم «البتل» ومفردها «بتيل»[2] بينما عرفت مدن الحجاز الحصون والقصور التي عرفت باسم «الآطام» ومفردها «أطم» كما في يثرب والطائف وفدك وغيرها.

وقد شملت العمارة الإسلامية ما يأتي:

1 ـ تخطيط المسجد: يعتبر المسجد النموذج الأول للفن المعماري الإسلامي الديني الذي نشأ تلقائياً حسب متطلبات فريضة الصلاة، فإن البعض يرجع تخطيط ذلك النوع من المساجد ذات الصحن الأوسط الذي تكتنفه البوائك بأعمدتها وعقودها إلى تخطيط الدار السكنية القديمة ذات الفناء الأوسط المكشوف الذي تحيط به الغرف في جوانبه الأربعة، وعلى ذلك يمكن التأكيد أن أساس بناء المساجد الإسلامية نابع من فكرة بناء الرسول صلى الله عليه وسلم لمسجده بالمدينة المنورة وهي تتلخص في حماية المصلين من وهج حرارة الشمس عن طريق بناء سقيفة أو صفّة محمولة على

---

(1) سعد زغلول عبد الحميد وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، مصر، دار المعرفة الجامعة، 1999، ص 451.

(2) الهمداني: طبقة جزيرة العرب، ص 310.

أعمدة من الجذوع تتقدم الفناء المكشوف الذي انفتحت عليه مساكن النبي، فكان الجامع الأول في المدينة النبوية كان يجمع ما بين بيت الصلاة في السقيفة أو الظلة، وكذلك مكان اجتماع المسلمين في الفناء المكشوف أو الصحن.

ولما كان المسجد النبوي الأول قد تطور مع مرور الزمن إلى أن تكاملت عناصره عندما أُعيد بناؤه حوالى سنة 87هـ/ 706م، على عهد الوليد ابن عبد الملك، فاتخذ له المحراب في منتصف جدار القبلة، والميضأة في وسط الصحن، كما أقيمت له المآذن على نسق مآذن المسجد الأقصى، وجامع دمشق، فقد قيل إن المساجد الأولى قد تطورت على أساس الكنائس المسيحية التي تم تحويل بعضها في بلاد الشام إلى مساجد، وفي ذلك التطور يلاحظ البعض أن مساحة الكنيسة تحورت إلى صحن الجامع، وأن جنبة الهيكل تحولت إلى المحراب، وأن برج الناقوس أصبح المئذنة، وبالرغم من سلامة المقارنة فإن المهم في أمور العمارة ليس الشكل الخاص بالعنصر المعماري بل الوظيفة التي يقوم بها. والواقع أن عمليات النقل والاقتباس في تاريخ الحضارات لا تحدث تلقائياً لمجرد التقليد ولكنها تتم تبعاً لحاجات يتطلب الأمر اشباعها.

العمارة والزخرفة المعمارية في العصرين الأموي والعباسي:

أصبح المسجد الذي بناه الرسول في المدينة في هيأته البسيطة، ومكوناته الأساسية من: المصلى المستطيل الأفقي، والصحن والمجنبتين، والصفّة نموذج القيروان ولكنه بعد ذلك أعيد بناؤه في هيئة عمارة ضخمة يعمل فيها الروم والقبط، وتُقام فيها العناصر الجديدة كالمحراب والمئذنة والمنبر والمقصورة، وتستخدم فيها الفسيفساء الذهبية للزينة، وعلى عهد الوليد بن عبد الملك أصبح المسجد النبوي النموذج للفن المعماري في شكله الديني أي الإسلامي المقدس.

وبالرغم من أن المسجد النبوي كان النموذج الذي اقتدت به مساجد

الأمصار، فإن كثيراً من الباحثين يجعلون مسجد دمشق مشاركاً للمسجد النبوي بصفته نموذج المساجد الكبرى الأولى ذات الصحن المكشوف الذي تحيط به الأروقة، والذي تقوم المآذن في زواياه أو في منتصف مؤخرة الصحن ثم المحراب في منتصف جدار القبلة ويشتمل جامع دمشق مستطيلاً أفقياً طول ضلعه الجنوبي حوالى 136 متراً، وعرضه حوالى 97 متراً. ويتكون بيت الصلاة من ثلاث بلاطات موازية لحائط القبلة الجنوبي ويقطعها رواق أوسط إلى نصفين في كل منهما أحد عشر رواقاً جانبياً معقودة وواجهة الرواق الأوسط أكثر ارتفاعاً عن واجهتي الأروقة الجانبية، والرواق الأوسط يدخل منه الضوء إلى المصلى عن طريق ثلاث نوافذ في كل من جانبيه[1] أما القبة على وسط تقاطع البلاطات الثلاث والرواق الأوسط، فهي تشرف على الصحن، وكانت تُعرف بقبة النسر.

ويوجد في حائط القبلة أربعة محاريب، الكبير منها في نهاية الرواق القاطع (الأوسط) وواحد في منتصف جدار القبلة الشرقي وهو محراب الصحابة، وثالث في النصف الغربي والرابع في الطرف الغربي لجدار القبلة أيضاً وهو محدث. والبوائك حول الصحن أشبه ببوائك المصلى، أما عن سقفها فهو مغطى بألواح الرصاص وينحدر نحو الصحن، والعقود نوعان: فهي في المصلى أشبه بحدوة الفرس ومنها المذببة قليلاً، أما عن مستسبكات النوافذ المرمرية أي الشبابيك المعروفة بالشمسيات، فهي جميلة الشكل مصنوعة من الرخام المفرغ، وبعضها ذات هندسة بسيطة أشبه بشبابيك قبة الصخرة.

أما عن زخرفة الجامع الأولى فكانت فاخرة، إذ كانت الجدران مكسوة بالرخام الأبيض المخطط والمقسم إلى مربعات إلى ارتفاع حوالى 6 أمتار. وأعلى الكسوة الرخامية تبدأ كسوة الفسيفساء التي ترتفع حتى السقف إلى حوالى 15 متراً من الأرض في مناظر ريفية بديعة. وعن زخرفة المصلى فقد

---

(1) سعد زغلول، وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ص 481.

كانت الأفاريز تُرى مزخرفة بورقة العنب كما في بعض نماذج قبة الصخرة. وهكذا فعندما انتهى عمل الوليد بن عبد الملك، كان في جامع دمشق مسطح من الفسيفساء لا نظير له في أي من المباني الإسلامية الأخرى.

أما المنارات فكانت أصلاً من أبراج الحراسة في زوايا المعبد، باستثناء تلك التي في وسط مؤخرة الصحن.

والمهم في ذلك أن جامع دمشق كان له تأثير كبير على العمارة الإسلامية في العصور التالية، ويتضح ذلك جلياً في جامع حلب الذي بناه سليمان بن عبد الملك، وكذلك الحال بالنسبة لمصلى قصر الحائر ببلاطاته الثلاث، والرواق الشرقي لجامع حماة. أما البوائك الموجودة حول الصحن في جامع قرطبة والتي يتبادل فيها عمودان مع كل دعامة فهي منقولة من صحن جامع دمشق، وكذلك الأمر بالنسبة للعقود المزدوجة على مستويين في جامع قرطبة.

ومهما يكن من أمر فإن المسجد النبوي الشريف، كان له تأثير على شكل عمارة مسجد دمشق إذ بني الأول عام 90هـ/ 709م. بينما بني مسجد دمشق عام 96هـ/ 714م. مما يبنى عليه أن سلامة الحسّ تفضي بأن يكون التأثير أولاً لمسجد المدينة على مسجد دمشق.

ثانياً: مسجد عقبة بن نافع بالقيروان: يعتبر مسجد القيروان من أبدع مساجد الأمصار الأولى من الطراز العربي، وأقدمها، وإن كان بناؤه قد أعيد بعد تأسيسه عام 50هـ/ 679م. عدة مرات حتى اكتمل في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، على عهد الأغالبة حكام تونس، وكان بناؤه أول مرة على نسق المسجد النبوي بالمدينة ذي الصحن الأوسط المكشوف، وإن كان محرابه من أقدم المحاريب الإسلامية.

وقد طالت مسجد عقبة بن نافع بالقيروان عدة تعديلات على عهد ولاة الدولة الأموية والعباسية في أفريقية مثل حسان بن النعمان (76هـ/ 695م)، وبشر بن صفوان الذي ينسب إليه بناء المئذنة الحالية عام (105هـ/ 723م). ثم

يزيد بن حاتم عام (157هـ/ 774)[1] ويُقال إنهم كانوا يتركون منه المحراب تبركاً ببناء عقبة. وفي العهد الأغلبي جدد المسجد عدة مرات منها في عهد أبي إبراهيم أحمد (242 ـ 249هـ/ 856 ـ 863م) الذي يُنسب إليه عمل المنبر الجميل[2]، وعهد إبراهيم بن أحمد (261 ـ 289 هـ/ 873 ـ 902م)، غير أن المسجد تعرض لعدم التجديد فترة الهلاليين، ثم لقي عناية كبيرة في العهد الحفصي.

وصف المئذنة:

ومئذنة جامع عقبة تأخذ شكل البرج المربع الشكل بطبقات ثلاث، التي ترتفع إلى حوالى ثلاثين متراً، والطبقة السفلى تكوّن بدن المئذنة الرئيسي، وهي كتلة عظيمة مربعة الشكل مسحوبة نحو الداخل إلى أعلى طول ضلعها الجانبي حوالى عشرة أمتار وارتفاعها حوالى عشرين متراً، دون شرفاتها المسننة، ويُظن أنها ترجع فعلاً إلى سنة (105هـ/ 723م) حسبما تنص عليه بعض الروايات التاريخية، وبذلك تصبح أقدم المآذن الباقية لنا من العمارة الإسلامية الأولى. والطابق الثاني ارتفاعه خمسة أمتار، والثالث ارتفاعه حوالى ستة أمتار، وهما معتدلان غير مسحوبين إلى الداخل.

والمدخل، باب عرضه متر واحد، يعلوه عقد في شكل حدوة الفرس، ويؤدي إلى درج يدور حول أسطوان مركزي، ومغطى بعقود أزاج نصف إسطواني الشكل وهناك ثلاث نوافذ في الجانب الجنوبي الشرقي. تمدُّ درج السّلم بالضوء إلى جانب الفتحات الشبيهة بالمزاغل في الجانبين الشمالي الغربي والجنوبي الغربي.

الصحن والمصلى:

والصحن مربع طول أضلاعه يتراوح ما بين 65 متراً و50 متراً، والعقود

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 1، ص 79.

(2) النويري: شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، 1983، ج 24، ص 124.

من جهة الشمال قائمة على أعمدة ومن الجهات الأخرى على دعامات مربعة، وهي ما بين مذببة وحدوة الفرس شكلاً. والواقع أن كل العقود التي في الصحن من عمل الحفصيين.

أما المصلى فهو قاعة أعمدة عظيمة، بها 17 رواقاً عمودية على حائط المحراب وتيجان الأعمدة مختلفة الأشكال، وكثيراً منها لها قواعد ولكن بعضها بدون قاعدة والعقود كلها حدوة الفرس المتجاورة بعض الشيء.

المحراب والقبة أمامه:

يرجع المحراب والقبة إلى أعمال أبي إبراهيم أحمد الأغلبي، والمحراب حنية على شكل حدوة الفرس، عرضها حوالى مترين، وعمقها حوالى متر ونصف المتر ويحف بها عمودان من الرخام الأحمر والعقد في أعلى الواجهة مدبب خفيف.

والعقبة محمولة على أربعة عقود مدببة على شكل حدوة الفرس، ويبدأ الانتقال من الشكل المربع إلى المثمن في القاعدة على ارتفاع أحد عشر متراً. وترتفع منطقة الانتقال هذه إلى أكثر من مترين عن طريق ثماني عقود نصف دائرية، ويتحول المثمن إلى شبه الدائرة بفضل ثماني جوفات من حيث قبة أرقبة القبة التي تتكون من ثماني نوافذ معقودة، وست عشرة مشكاة شبيهة بها بحيث تنتظم نافذة ومشكاتان بشكل متبادل. وأهم ما يلاحظ على القبة أن العناصر المعمارية فيها مثل المشكاوات والحنيات والضلوع تشكل في نفس الوقت عناصر زخرفية المنبر والمقصورة.

ويعتبر منبر جامع القيروان أقدم المنابر الموجودة حالياً في مساجد الإسلام، فهو من عمل أبي إبراهيم أحمد[1]، ولكن حفره الخشبي يرجع إلى الطراز الأموي الذي ظل حياً في العصر العباسي الأول، والملاحظ أنه بالرغم من وجود حشوات ذات موضوعات بنائية أموية الطراز، فإن كل

(1) النويري: نهاية الأرب، ج 24، ص 124،

مساحة منها تبدو مستقلة برسمها النهائي المتشابك والمبتكر.

أما عن المقصورة في جامع القيروان فيرجع صنعها إلى سنة 430هـ/ 040م ويلاحظ فيها استمرار التقاليد العباسية مع التقاليد الفاطمية في شكل متوازٍ.

وبذلك يكون جامع القيروان قد جمع ـ أثناء عمليات إعادة البناء ـ الطرازين الأموي والعباسي، ولكنه يوضع ضمن طراز المسجد النبوي.

جامع قرطبة:

بدأ مسجد قرطبة عند إنشائه لأول مرة صغيراً شأنه في ذلك شأن مساجد الأمصار الأخرى، ثم إنه تعاظم واكتمل بفضل اهتمام وعناية خلفاء قرطبة.

وهكذا أعيد بناء جامع قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل سنة (169هـ/ 786م) وكان له أحد عشر رواقاً. أما المنارة فقد كانت من عمل ابنه هشام. بينما زاد عبد الرحمن الأوسط في طول الأروقة من جهة القبلة، وبنى عبد الرحمن الناصر سنة (341هـ/ 1952م) منارة جديدة تميزت بابتكار جديد وهو وجود درجين أحدهما للصعود والآخر للنزول. ثم قام الحكم المستنصر سنة (350هـ/ 961م) بالزيادة في طول أروقة المصلى الأحد عشر نحو الجنوب بمعنى هدم جدار القبلة مرة أخرى. أما عن أكبر الزيادات فهي التي تمت عام (337هـ/ 987 ـ 988م) على عهد هشام وذلك بإضافة ثمانية أروقة جديدة في الجهة الشرقية، فأصبح لبيت الصلاة تسعة عشر رواقاً. وبذلك وصل جامع قرطبة إلى منتهاه اتساعاً وعمارة وزخرفة إلى أن سقطت قرطبة عام (633هـ/ 1236م).

أما عن مساحة مسجد قرطبة واتساعه فإنه أقيم على مستطيل طوله حوالى 175 متراً على امتداد محور القبلة، وعرضه 125 متراً على امتداد جدار القبلة، وبذلك زادت مساحته على عشرين ألف متر مربع، وصار من أكبر مساجد العالم الإسلامي اتساعاً بعد مسجدي سامرا، وأبي دلف.

الصحن والمنارة: وفي شمال المسجد يقع الصحن، الذي شغل حوالى ثلث مساحة المسجد، وتحيط به أروقة مغطاة بسقف محمول على عقود، وفيه يصطف كل عمودين ودعامة بالتبادل، والعقود على شكل حدوة الفرس.

وفي منتصف الرواق الشمالي للصحن، في مواجهة بيت الصلاة، توجد المنارة التي عملها عبد الرحمن الناصر لدين الله، وهي في ذلك تشبه مثيلاتها في القيروان ودمشق.

بيت الصلاة والمحراب: وبيت الصلاة غابة من الأعمدة العجيبة، إذ يحوى 1293 عموداً مختلفة من الجرانيت والرخام الملون والمرمر الثمين، وهي ذات تيجان متنوعة منها الكورنثي ومنها المركب، والأعمدة بعقودها لا تقسم المساحة في بيت الصلاة أفقياً فقط إلى أروقة وبلاطات، بل إنها بفضل العقود المزدوجة تقسمها رأسياً بصفوف الأعمدة الراكبة العليا، وكل العقود السفلى في شكل حدوة الفرس. بينما تنوع العقود العليا ما بين نصف دائرة وحدوة الفرس والمقصص، وفي بعض الأحيان تتقاطع العقود[1] السفلى والعليا، بينما تعطي الحجارة البيضاء المتبادلة مع مداميك الطوب الأحمر منظراً جميلاً.

وهكذا تطور جامع قرطبة بأشكاله المبتكرة الطريفة، من بينها المداميك المتبادلة اللون، والعقود المفصصة، والمتقاطعة والمتشابكة، كما تطور التاج الكورنثي إلى شكل تجريدي. وبالرغم من التطور الذي شهده جامع قرطبة فإنه يظل مرتبطاً بجامع دمشق عن طريق العقد حدوة الفرس، والدعائم التي تحمل العقود المزدوجة على مستويين.

أما فن العمارة الإسلامية المتمثلة في المدن الإسلامية فنكتفي بذكر أربعة مدن هي: 1 ـ بغداد ـ 2 ـ سامراء ـ 3 ـ المهدية ـ قرطبة الزهراء.

(1) سعد زغلول وآخرون: تاريخ العمارة والفنون التشكيلية في دولة الإسلام، ص 500.

1 ـ بغداد المدورة:

بالرغم من أن معالم بغداد لم يبق منها إلاّ وصف الكتاب لها بأنها كانت مدورة ولها سوران من اللبن بينهما خندق يسمى الفيصل. ولها أربعة مداخل في الاتجاهات الأصلية توصف بأنها ضيقة ملتوية طويلة حتى يمكن الدفاع عنها، وأنها كانت مرتبطة بشارع دائري من الداخل والخارج. والأبواب الأربعة تؤدي إلى أربعة طرق تبدأ من مركز الدائرة وتسير إلى أطراف الأمبراطورية عن طريق الكوفة والبصرة والشام وخراسان. وبذلك كانت المدينة مقسمة إلى مناطق دائرية لها مركز واحد يقوم في قلبها قصر الخليفة المعروف بباب الذهب نسبة إلى بعض أبوابه المذهبة. وبالقبة الخضراء نسبة إلى القبة العالية التي كانت تغطي مجلسه، وإلى جانب قصر الخليفة كان المسجد الجامع.

ولقد أثبتت الكشوف أن جامع المنصور كان مستطيل الشكل، محاطاً بسور من اللبن، وأن جدرانه من اللبن أيضاً، وأعمدته وتيجانها من الخشب. ولم يبق من عناصره سوى المحراب المرمري من الطراز الأموي الذي نقله المنصور من الشام إلى بغداد.

2 ـ سامراء:

اختفت معالم سامراء مثلما حدث لبغداد. فقد خُربت سامراء بعد أن عرفت فترة ازدهار رائعة امتدت إلى ما يقرب من نصف قرن (223 ـ 270هـ/ 838 ـ 883م) امتدت خلاله على طول شاطىء دجلة الشرقي إلى حوالى 30 ك م. وقامت فيها القصور الخلافية الرائعة مثل: الجوسق الخاقاني ـ وقصر بلكوارا ـ وقصر العاشق. ولقد كشفت الحفائر عن كثير من شوارع سامراء الواسعة ومساجدها الجميلة، وقصروها البديعة، وأسواقها الكبيرة، وأحيائها السكنية المختلفة، وقد تبين أن مساكنها كانت تحتوي على حمامات ونافورات، وأنها كانت مزينة بالصور الجدارية، وهذا ما دعا إلى القول بإن تخطيط الدار العربية تبلور في سامراء من حيث اتخاذه شكل الفناء المركزي الذي تحيط به الوحدات السكنية.

ثانياً: مدن المغرب والأندلس:

المهدية:

اتخذ عبيدالله المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية في بلاد المغرب عاصمة الأغالبة القيروان عام 296هـ/ 908م. وبعد سنوات قليلة اتخذ عاصمة جديدة هي المهدية على ساحل البحر بين سوسة وصفاقس، بعيداً عن عامة أهل القيروان، وذلك عام 304هـ/ 915م. ولعل السبب في بنائها تلك المخاطر والمؤامرات التي تعرض لها حكمه في القيروان[1]. وهو ما عبر عنه المهدي عندما سكن المهدية عام 308هـ/ 921م. فقال: «اليوم أمنت على الفاطميات».

والحقيقة أن المهدية قد اكتسبت موقعاً استراتيجياً حصيناً فقد قال عنها ياقوت الحموي في معجم البلدان: بأنها كهيئة كف على زند فقد كانت ميناء حربياً وحصناً منيعاً بأبراجها وأبوابها الحديدية الضخمة التي تحمي قصور الإمام وولي العهد[2] والمسجد الجامع ومساكن الجند والحاشية والأعوان، وفيما يتعلق بفن زخرفة بعض معالم المدينة فقد كانت أبوابها الحديدية مزدانة بصور الأسود، أما عن جدران قصر ولي العهد التي كُشف عنها فكانت مغشاة بالفسيفساء ذات زخرفة نباتية من باقات الزهور.

قرطبة:

هي في الأصل ليست من بناء العرب، وإنما كانت عاصمة القوط، وهي أقدم مدينة في شبه الجزيرة الأيبرية أنشأها المهاجرون التجار الفينيقيون في نفس الوقت الذي أنشأوا فيه قادس وقرطاجة ومالقه وغيرها من جنوب شبه الجزيرة الإيبرية، فهي تدين في إنشائها إلى العرب القدماء. وقد اتخذها فاتح إسبانيا موسى بن نصير قاعدة له دعا فيها للخليفة الوليد بن عبد الملك. وكان اتخاذ الفاتحين المسلمين لقرطبة مقراً لهم مصدر ثورات وفتن

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 1، ص 184.

(2) البكري: المسالك والممالك: ج 2، ص 682.

ضد الوجود الإسلامي وحاول القوط استرجاعها دون جدوى، وعندما وصل عبد الرحمن الداخل وأسس الدولة الأموية الأندلسية أقام في قرطبة المباني الضخمة الكثيرة، والقصور الفسيحة الجميلة، والمساجد التي بلغ عددها ثلاثة آلاف مسجد، ويعتبر المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل من النماذج البديعة لفن العمارة الإسلامي.

وقد وصف الشعراء قرطبة، وتغنوا بجمالها فهذا أبو محمد بن عطية القرطبي يقول:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... وهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان، والزهراء ثالثة ... والعلم أكبر شيء، وهو رابعها

وقد ذكر الجغرافيون والمؤرخون قرطبة فقالوا إن سكانها بلغوا زمن خلافة عبد الرحمن الناصر إلى نيفاً وخمسمائة ألف، وأن دورها زادت عن الثلاثة آلاف، وكان لها ثمانية وعشرون ضاحية. وقد أطلق عليها الأوروبيون في القرن العاشر للميلاد اسم (جوهرة العالم).

الزهراء:

تقع إلى الشمال الغربي من قرطبة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 325هـ ـ على اسم جارية له ـ لحاجته بعد أن وطد حكمه وقضى على ثورة عمر بن حفصون[1] إلى مدينة عاصمة، وقد أبدعت يد البنائين في وضع الرخام المختلف الألوان الذي أوصى الناصر بإحضاره من كل مكان، وعمل في البناء عشرة آلاف عامل يومياً، واستمر العمل في عهد ابنه المستنصر بالله من بعده حتى سنة 365هـ، أي حوالى أربعين سنة!

وكانت مدينة الزهراء تشتمل على ثلاث مدن متدرجة في البناء على سفح الجبل ولكل منها سورها أعلاها فيها القصور، وفي الثانية الجنان والبساتين، وفي الثالثة الديار والجوامع، وبنى بها الخليفة الناصر قصره

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2، ص 171 ـ 172.

العظيم (دار الروضة) فغشى الجدران بالذهب، والرخام السميك الصافي، واتخذ قرميد السقوف من الذهب والفضة، وفي وسط القصر صهريج عظيم مملوء من الزئبق تنعكس أشعة الشمس منه على القصر فيصير من ذلك نور يأخذ الأبصار. هذا إلى جانب ما أبدعه الفنانون وصانعوا التماثيل ففي القصر تماثيل ذهبية لبعض الوحوش. أسد بجانب غزال بجانب تمساح، ينصب الماء من أفواهها في الأحواض!

وقد ذكر المقري في كتابه نفح الطيب ـ عند كلامه عن الزهراء ـ إن حيطان قصر الناصر كانت من الذهب والرخام السميك الصافي، وإن قراميده من الذهب والفضة، وفي كل جانب من جوانب القصر ثمانية أبواب انعقدت في حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر القائمة مع ساريات من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل من تلك الأبواب، فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نوراً يأخذ بالأبصار... ثم يصف حوضاً صغيراً أخضر منقوشاً بتماثيل الإنسان فيقول بأن الخليفة جعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدّر النفيس، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة! صورة أسد إلى جانبه صورة غزال، إلى جانبه صورة تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعُقاب، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس، ودجاجة وديك، كل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها.

وهكذا كانت المدن التي أسسها المسلمون أو التي تأسست قبلهم مثل قرطبة كانت تحتوي على تحف فنية قمة في الروعة تبين مدى ما وصل إليه فن العمارة الإسلامية من ذوق وجمال لم يكن له مثيل في العصر الوسيط.
أما ما يطلق عليه بعض المؤرخين بالفنون الصغرى، والتي تتمثل في الخزف، والنقش على الخشب، والخط العربي الكوفي والمغربي واستخدامه في تأكيد الفن الإسلامي فهي أكثر من أن توصف في بضع سطور، ولكن لتأكيد أهميتها يمكن إلقاء الضوء عليها في شيء من الإيجاز وهي:

1 ـ الخزف زمن الأمويين والعباسيين:

كان الفتح الإسلامي لكثير من الأمصار في المشرق والمغرب بداية عهد جديد في تاريخ الفنون وبخاصة الخزف. فقد اتبع الخزافون المسلمون ـ أول الأمر ـ الأساليب التقليدية التي كانت سائدة في مصر وسوريا والعراق وبلاد فارس، فقد أخذ الفنانون يبتكرون أساليب جديدة في زخرفة الخزف، فكانت لهم خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ابتكارات على جانب كبير من التنوع سواء في الزخارف أم في الألوان أم في الأساليب الصناعية، وأصبحت هذه الابتكارات من مميزات صناعة الخزف في العالم الإسلامي.

وقد توصل الباحثون في صناعة الخزف إلى أن الخزف «الإسلامي الأول والمتطور قد أخذ عن الخزف الصيني، وبخاصة في تشكيل الأواني. وقد سادت هذه الزخرفة في جميع الأقطار الإسلامية تقريباً بحيث يصعب أن نقول هذه زخرفة أندلسية وهذه مغربية وثالثة عراقية أو شامية أو غيرها. على الرغم من وجود أنواع واضحة يمكن نسبتها إلى أقليم معين.

وقد أتضح من خلال ما قام به بعض الأثريين أن الخزف الذي عثر عليه في مدينة سامراء يرجع إلى القرن التاسع الميلادي. مما يساعد على تأريخ الفخار المشابه له في بعض البلاد الأخرى. وكذلك تم اكتشاف عدة أنواع من الخزف في مدينة نيسابور بشرق إيران لأهميتها كمركز كبير لصناعة الخزف في العالم الإسلامي.

ويختلف الفخار الإسلامي اختلافاً كبيراً جداً ففي الوقت الذي نجد فيه ما عُمل للعظماء ورجال الحكم قد وصل إلى قمة الزخرفة والصناعة، فإن باقي الأنواع لا تعدو أن تكون إنتاجاً للتداول الشعبي وإن لم تعدم الزخارف الجميلة التي امتاز بها الفن الإسلامي[1]. ومن خلال تصنيف الخزف

---

(1) م. س. ديماند: الفنون الإسلامية، ص 164 ـ 165.

الإسلامي في إيران والعراق اتضح أنه ينقسم إلى عدة تصانيف من بينها ـ الخزف ذو الزخارف المحفورة والمطلية بلون واحد، ويتمثل في الجرار الكبيرة المغطاة بدهان براق أزرق أو أخضر أما زخارفها البارزة المكونة من أشرطة وتفريعات بنائية.

أما المجموعة الثانية:

فتتكون من ألوان أكثر رقة وتشتمل على صحون صغيرة وأكواب وأوان أخرى من بينها زخرفيات ذات حليات زخرفية بارزة مغطاة بدهان أخضر براق.

ب: الفخار المدهون ذو الزخارف المحزوزة:

وهي مجموعات فخارية عثر عليها في بلاد فارس وترجع إلى بداية العصر الإسلامي أي القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. تزينها زخارف محزوزة على قشرة رقيقة بيضاء يغطيها طلاء شفاف رصاصي اللون، أو أخضر أو أصفر سمني به بقع من ألوان أخرى مثل الأخضر والبني أو الأصفر والأخضر والأرجواني المنجنيزي. وكانت طريقة الزخارف بالزين من أبسط العراق المعروفة في كثير من البلاد خلال عصور طويلة كما وجدت مجموعات أخرى من الفخار معظمها سلاطين حمراء اللون عليها رسوم محزوزة من طيور وحيوانات وتفريعات من المراوح النخلية وكتابات كوفية داخل مناطق متشابكة وتحتوي رسوماً مختلفة. وهي في مجموعها تحمل مميزات العصر العباسي الأول أي في نهاية القرن الثامن وأوائل التاسع الميلادي.

جـ: الخزف ذو الزخارف المرسومة:

وقد تطور هذا النوع من الخزف على أيدي الخزافين المسلمين بموضوعات ترسم تحت طبقة شفافة من طلاء أو فوق طبقة معتمة منه. ففي الحالة الأولى ترسم الموضوعات عادة فوق طبقة رقيقة بيضاء. أو فوق طبقة أخرى من لون داكن. وأما المجموعة الثانية فترجع إلى أوائل العصر

الإسلامي. فقد رسمت الزخارف باللون الأزرق الزهري أو بألوان مختلفة من البريق المعدني فوق طبقة معتمة من دهان قصديري اللون.

ومن ثم يمكن القول إن هذه الأساليب الصناعية تدل على أن الحرفيين المسلمين وبخاصة في إيران والعراق ابتكروا أنواعاً من الفخار يمكن اعتبارها أصولاً ومصادر لأنواع فاخرة من الأواني تطورت في عصور لاحقة[1].

د: الفخار المرسوم تحت الطلاء:

لعل أهم ما أمدتنا به الحفريات في مناطق من إيران والعراق هي تلك الأشكال الهندسية المفردة، وأشرطة من الكتابة الكوفية، وتفريعات من المراوح النخيلية والتواريق والتوريدات والطيور والرسوم الأدبية، كل ذلك داخل وحدة متقنة تشغل الإناء كله.

وكذلك أنواع من السلاطين عميقة ذات لون برتقالي، وحددت رسوم السلاطين بخطوط ثقيلة سوداء أو أرجوانية فاتحة بداخلها ألوان صفراء وخضراء. ومن الأشكال الشائع استخدامها أشرطة من التفريعات النباتية المتشابكة على أرضية من الخطوط المتقاطعة، وتزينها مجموعة من أنصاف المراوح النخيلية والتفريعات النباتية والوريدات والأشكال المستديرة، مرسومة باللون الأرجواني الفاتح والأصفر والأخضر.

ونلاحظ في خزف نيسابور زخارف من رسوم الحيوانات والطيور والأشخاص، وكتابات كوفية باللون الأسود فقط أو بالأسود مع الأصفر والأخضر والألوان الأخرى. وفي كثير من القطع رسمت التعبيرات الزخرفية بطريقة تغطي سطح السلطانية من الداخل.

وهناك أيضاً نوع من الخزف الذي يشد النظر إليه ويمثل كتابات بلون بني أو أسود مائل للأحمرار على أرضية بيضاء والكتابات المستخدمة في الزخرفة تتكون إما من قلب الإناء أو مستعرضة فوق سطحه أو على طول

---

(1) م. س. ديماند: المرجع السابق، ص 170.

حافته، وهذه المجموعة من الخزف جيدة الصنع في الغالب، جميلة الزخرفة إلى حدٍ بعيد.

يضاف إلى ذلك ما عُرف في سمرقند من أنواع الخزف المرسوم بألوان مختلفة على أرضيات متعددة الألوان كالارجواني، والبني الفاتح (المنجنيزي) أو الأحمر الطوبي. ومن بين الأشكال المستخدمة في الزخرفة وريدات مع صفوف من اللآلىء، وغالباً ما يكون ذلك مع مراوح نخيلية على شكل زهرة الزنبق، كما أضيفت بعض قطع الخزف على تفريعات نباتية مجردة أو مراوح نجيلية أو نقط على شكل عناقيد وهذه التعبيرات هي موضوع الزخرفة عادة.

هـ: الخزف ذو الزخارف المرسومة بالبريق المعدني:

يعتبر الخزف العباسي المحلي بزخارف من البريق المعدني من أجود منتجات الخزف في العالم الإسلامي. إذ إن صناعة البريق المعدني كانت من الابتكارات العظيمة التي اهتدى إليها الخزافون المسلمون في القرنين الثامن والتاسع. ومع نهاية القرن التاسع صار الخزافون المسلمون سادة صناعة الخزف في منطقة الشرق الأدنى، وهو ما دفع البعض إلى القول بأن صناعة البريق المعدني عراقية الأصل. كما اشتهرت به كل من إيران ومصر.

ففي إيران وجدت أنواع من الخزف ذي البريق المعدني المتعدد الألوان، وفي مصر أيضاً ولكن خير ما عُرف منها ما اكتشف بسامراء. إذ نرى في مجموعة منه اللون الذهبي، والأخضر الزيتوني، والأخضر الفاتح، والبني المائل إلى الحمرة. أما زخارفه العباسية الأسلوب فتتكون من تفريعات نباتية بها تعبيرات زخرفية على هيئة الأقماع، وأشكال أزهار بعيدة عن الطبيعة، وتواريق متنوعة ومراوح نخيلية ثلاثية الفصوص، ومراوح نخيلية مجنحة في أسلوب ساساني، وزينت هذه الأشكال وما بينها من فراغ برسوم تشبه قطع الفسيفساء جمعت أشكال المعينات والفروع النباتية والدوائر المنقطة الخطوط المتوازية.

على أن أنواع الخزف قد تعددت وتطورت في العالم الإسلامي

وبخاصة على عهد الدولة العباسية حتى شمل الخزف ذو الزخارف المرسومة فوق الدهان والذي صنعت منه الأواني ذات البريق المعدني من طفل أصفر نقي غطي بطبقة من المينا القصديرية اللون، واشتهرت به مدينة سامراء، وقد احتوت زخارفه على كتابات كوفية باللون الأزرق مع بقع حمراء. بينما احتوت السلطانيات على أشكال من الأوراق النباتية أو السيقان المزهرة ذات المراوح النخيلية مرسومة بطريقة سريعة باللون الأزرق من الأزرق مع الأخضر.

وهناك أيضاً نوع من الخزف غير المدهون، والذي تتكون منه الجرار الكبيرة لخزن الماء وأباريق صغيرة، وقد وُجدت هذه الأنواع بأحجامها المختلفة في كل من سوريا والعراق وإيران. وزخارف هذا النوع ـ غير المدهون ـ مصنوعة بطرق مختلفة أبسطها نقش خطوط أفقية مستقيمة أو متموجة ورسوم بسيطة من النباتات والتفريعات، كما وجدت الزخارف المحفورة والبارزة. وهذه الزخارف البارزة غير متقنة في العادة، وتتكون من تعبيرات نباتية أو رسوم آدمية وحيوانية.

إضافة إلى ذلك فقد احتوت مجموعة أخرى من الخزف غير المدهون على زخارف بواسطة أختام مستديرة أو غير مستديرة، وتشتمل زخارف الأختام على رسوم حيوانات وطيور وأشكال آدمية ووريدات وكتابات كوفية.

وقد لجأ صناع هذا النوع من الخزف إلى إنتاجه بكميات كبيرة، وبخاصة الأباريق وغيرها وكان جسم الإناء المستدير يصنع عادة من جزئين منفصلين يضاف إليهما فيما بعد العنق والمقابض والقاعدة.

والخلاصة أن استخدام الخزف بأنواعه المختلفة قد تطور في العالم الإسلامي ووصل إلى قمته خلال العصر العباسي حيث تعددت أنواعه وألوانه وزخارفه وأغراضه وأشكاله، وتم إنتاجه بكميات كبيرة. وصل بعضها إلى قمة الجودة والاتقان وبخاصة تلك التي كانت تُصنع إلى الحكام والأغنياء كما كانت هناك صناعات خزفية شعبية لم تراع فيها الجودة ولعل ذلك يرجع إلى أن الغرض من استعمالها لا يستوجب الجودة مثل أباريق المياه، والجرار الكبيرة التي تستعمل لخزن الماء وغيرها.

2 ـ الخزف الأندلسي المغربي:

لعل ما كشف لنا عنه الأثريون من خزف الأندلس يرجع إلى النصف الأخير من القرن العاشر الميلادي، ويحتمل أن يكون معظم ما عُثر عليه هناك من صناعة الخزّافيين الأندلسيين بمدينة قرطبة. وتشتمل زخارفه على طيور وكتابات وتعبيرات مختلفة من الأزهار، مرسومة باللون الأخضر والأزرق والبني الداكن. ووجد بمدينة الزهراء بقايا من قطع الخزف ذي البريق المعدني.

وقد استمر إنتاج الخزف ذي البريق المعدني والخزف المرسوم خلال القرون الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، أنتج خلالها الخزفيون الأندلسيون أنواعاً جديدة من أغطية الآبار والأزيار وزينوها بالزخارف المختومة والمصنوعة بالقوالب، وطلي هذا النوع بطلاء أخضر أو تُرك دون طلاء. ومن أقدم الأمثلة المعروفة غطاء بئر إشبيلة، مؤرخة عام 430هـ/ 1039م. وعليها زخارف مصبوبة بطريقة القرطاس، وهي ضمن محتويات متحف الآثار بمدريد.

وكانت مدينة بطرنة (Paterna) قرب بلنسية، مركزاً هاماً لصناعة الخزف في القرن الثالث عشر والرابع عشر. ويمتاز منها نوع ذو زخارف موسومة بالأخضر والبني أو الأرجواني الفاتح على أرضية بيضاء. وتتكون زخارف مدينة بطرنة من رسوم محوّرة لحيوانات وطيور وأشكال آدمية.

وذاعت خلال القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر شهرة مدينتا مالقة وغرناطة في إنتاج الأواني والبلاطات والسلاطين ذات الرسوم الجميلة بالبريق المعدني ذي اللون الذهبي والأزرق. ومن أفضل القطع المعروفة، تلك البيضاوية الشكل ذات المقابض التي تشبه الأجنحة، والتي تُعرف باسم «قدور الحمراء» وترجع إلى القرن الرابع عشر[1].

---

(1) م، س، ديماند: المرجع السابق، ص 227 ـ 228.

لقد تطورت صناعة الخزف في بلاد الأندلس تطوراً كبيراً بحيث أصبحت كل مدينة تشتهر بنوع خاص من الخزف وبخاصة من حيث التصميم والزخرفة والألوان إذ اشتمل بعضها على رسومات بكتابات كوفية، وزخارف نباتية وحيوانات محورة كما يتضح من القدور المشهورة ـ بقصر الحمراء بغرناطة أيام دولة بني الأحمر، وقد تفوقت مدينة منيشة قرب بلنسية، في صناعة الخزف من القرن الرابع عشر حتى السادس عشر، وامتازت بإنتاج الصحون والقدور البرميلية.

وحتى بداية القرن الخامس عشر كان هناك نوع من الأواني الخزفية ذات البريق المعدني جرى الصناع في إنتاجه وفق أساليب مدرسة مالقة. وتشتمل تعبيراته الزخرفية على تواريق ومضفرات ومراوح نخيلية وأشكال تشبه الكتابات العربية، ومعظمها مرسومة بالبريق المعدني البني والأزرق.

وهكذا أسهمت الأندلس بفضل تواجد المسلمين بها مدة سبعة قرون تقريباً في صناعة الخزف المتعدد الأشكال والألوان والرسومات بفضل الصناع المسلمين المهرة واستمر الأمر في تطور مستمر بالرغم من تقلص وجود المسلمين في الأندلس مدة قيام دولة بني الأحمر في غرناطة حتى خروج المسلمين نهائياً من الأندلس عام 1492م.

ثالثاً: الزجاج والبلور:

اشتهرت بلاد المشرق وبخاصة سوريا ومصر بصناعة الأواني الزجاجية منذ ما قبل الإسلام. فلما جاء الإسلام إلى تلك البلاد ظل الصناع يمارسون تلك الصناعة في جميع بلاد العالم الإسلامي وفق الأساليب القديمة المعروفة، وقد استمد العلماء معرفتهم بصناعة الزجاج في العصور الإسلامية الأولى مما عثر عليه في الحفريات التي أجريت في سوريا ومصر والعراق. ويتضح من أواني سامراء الزجاجية المصنوعة في القرن التاسع الميلادي أنها استمرار لأشكال الأواني الساسانية التي كشف عنها بالمدائن وكش. كما اشتهرت بلاد فارس بصناعة الزجاج أيضاً، وبنفس الأساليب التي كانت معروفة في البلاد الأخرى.

وتشتمل منتجات الزجاج في العصور الإسلامية الأولى على زجاجات وقوارير وزهريات وأكواب للاستعمال المنزلي أو لحفظ الزيوت والعطور. وبلغت أشكال هذه الأواني وأحجامها من التنوع والكثرة مبلغاً يصعب معه حصر أنواعها. وأغلب ما تم التعرف عليه من أواني زجاجية من القرنين الثامن والتاسع الميلادي خالٍ من الزخارف، أما القليل الباقي في زخرفته أساليب مختلفة مثل الخيوط البارزة، وأشكال خلايا النحل والكتابات وغيرها من العناصر الزخرفية. ومن بين الأشكال التي عُثر عليها في مصر وسوريا والعراق وبلاد فارس أكواب وأباريق أشكالها على هيئة الكمثري. أما الأباريق المصنوعة في قالب من جزئين وكانت هذه الطريقة مألوفة في العصور الإسلامية الأولى[1].

وتوجد مجموعة طريفة من القوارير والأكواب والسلاطين، أكثرها باللون الأرجواني الفاتح، وعليها زخارف مضافاً إلى الخيوط البيضاء المتعرجة كتعريقات المرمر وبلون الإناء الأصلي. وكانت هذه الخيوط الزجاجية تسحب وهي ساخنة بآلة تشبه المشط فتكون منها أشكال عديدة مختلفة مثل أسنان المنشار (chevron) وضلوع السمك ونبات السرخس (Fern) وتمتاز القطع الإسلامية بغلظ جدرانها وأنها غالباً من اللون الأرجواني الفاتح أما الخيوط فبارزة نوعاً.

وبلغت صناعة الزجاج ذي الزخارف المقطوعة وروعتها على أيدي الصناع الفاطميين. وكان أسلوبها وعناصرها الزخرفية وثيقة الصلة بما هو متّبع في إنتاج تحف البلور الصخري التي أقبل عليها الخلفاء الفاطميين. ويذكر المقريزي في وصفه للمحنة الكبرى التي حلت بكنوز الخليفة المستنصر عام 1062م. عدداً كبيراً من الأواني البلورية المزخرفة وغير المزخرفة، وعلى كثير من هذه الأواني البلورية أسماء عدد من الخلفاء الفاطميين. وقد شاعت في العصر الفاطمي تحلية قطع البلور بالزخارف

(1) م. س ديماند: الفنون الإسلامية، ص 231 ـ 232.

النباتية المتنوعة ورسوم الطيور والحيوانات فرادى أو جماعات.

وقد تنوعت صناعة الزجاج وزخرفته بحيث شمل أنواعاً استخدمها الخلفاء والوزراء ومن في مستواهم من حيث صنعت أنواع أخرى أقل جودة للاستعمال اليومي أرخص ثمناً. ولا شك في أن هذه الأواني الزجاجية التي صنعت في مصر خلال القرن الحادي عشر أو الثاني عشر أن زخارفها الحيوانية المحفورة وثيقة الصلة بزخارف البلور الفاطمي.

ويمكن القول إن العصر الذهبي لصناعة الزجاج الإسلامي قد بدأ في ختام القرن الثاني عشر وكانت قمة تلك الصناعة في القرن الثالث عشر والنصف الأول من الرابع عشر واعتمدت الزخارف المذهبة. وكانت مدن دمشق وحلب تصدر كميات كبيرة من الصناعات الزجاجية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، واعتبرت منتجاتها في طليعة أبدع ما خلفته تلك الصناعة على الإطلاق![1]

النسيج:

كانت المنسوجات في أوائل العصر الإسلامي تصنع وفق الأساليب التي أتبعها الأقباط والساسانيون في تلك الصناعة، غير أن أسلوباً إسلامياً صحيحاً أخذ ينمو تدريجياً ويتطور ويسود جميع البلاد التي خضعت لحكم العرب.

ففي مصر مثلاً لم يحدث تغيّر قط في صناعة النسيج منذ أن فتحها العرب عام 641م. حيث كان الصناع مهرة، استخدمهم الفاتحون بكثرة في بناء المساجد والقصور، وفي العمل بمصانع النسيج الجديدة التي أنشأها العرب وهي المسماة بدور الطراز. وأطلقت لفظة «طراز» على ذلك الشريط المشتمل على كتابة منسوجة أو مطرزة كما أطلقت على الأقمشة المزخرفة بهذه الطريقة، وكذلك على المصانع التي تنتج هذه الأقمشة. وكان لإنشاء دور

(1) م. س. ديماند: الفنون الإسلامية، ص 237 ـ 238.

الطراز في أغلب الولايات الإسلامية أهمية كبرى عند الحكام في العصرين الأموي والعباسي. ونسجت بتلك المصانع التي كان بعضها قد أنشأ في قصور الخلفاء انقسم ـ ثياب فاخرة مُحلاة بأشرطة «الطراز» وجرت عادة الخلفاء على خلع هذه الثياب على كبار أصحاب الوظائف مرة على الأقل كل سنة، وأعتبرت هذه الخلع بمثابة الأوسمة والنياشين في العصور الحديثة.. وكان ينقش اسم الخليفة في شريط «الطراز» تسجيلاً لحكمه وسلطانه.

وقد اشتهرت دور الطرز في مصر بما أنتجته من المنسوجات الكتانية والحريرية التي صدرت منها في العهد الإسلامي إلى البلاد الإسلامية. كسوريا والعراق. وقد اشتهرت مدينة تنيس بالقرب من بور سعيد بكثرة الأنوال التي بلغت خمسة آلاف، وبأنواع الأقمشة المختلفة مثل القصب، وهو نسيج رقيق جداً من الكتان كان يُعمل للعمائم، والبدنة، وهو نوع من النسيج تصنع منه ملابس الخليفة، والبوقلمون، وهو النسيج المتموج المتغير الألوان، وتصنع منه كسوة السروج وأغطية المحاف الملكية، ويذكر لنا ناصر خسرو الرحالة الفارسي الذي عاش في القرن الخامس الهجري، أن إنتاج دور الطراز السلطانية في تنيس اقتصر على حاجات الخلفاء ولم يكن يتصرف فيه ببيع أو عطاء لأحد غيرهم[1]. وبالرغم من ذلك فإن مدينة تنيس لم تكن الوحيدة التي يصنع بها النسيج في مصر، بل وجدت إلى جانبها مدينة تونة حيث تصنع الكساوى الكتانية الفاخرة الخاصة بالكعبة، وهي الكساوى التي حرص الخلفاء ورجالهم على عملها بدور الطراز وإرسالها سنوياً إلى مكة. كما اشتهرت مدينة ديبق بمنسوجاتها الحريرية، ودمياط بأقمشتها الكتانية البيضاء البديعة، كما تمت صناعة الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة بالألوان المتعددة من الصوف والكتان، واشتملت أشرطة «الطراز» في منسوجات العصر العباسي بمصر على كتابات كوفية متنوعة، وتوجد نماذج من تلك

---

(1) ناصر خسرو: سفرنامة، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، 1970، ص 77.

المنسوجات بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

أ ـ الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة بالألوان المتعددة من الصوف والكتان: ظلت صناعة هذه المنسوجات متبعة في مصر أيام حكم العرب. ولهذا لا يظهر اختلاف كبير بين الأقمشة الذي كان يصنعها نساجو القبط لذوي ملتهم، وبين ما كانوا يصنعونه للعرب في عهد الدولتين العباسية والطولونية. وكان قماش الشاس المستخدم عادة في العمائم ينسج من الكتان الأسود أو من الصوف المحلى بالأشرطة المنسوجة. وتشتمل أشرطة «الطراز» في منسوجات العصر العباسي بمصر على كتابات كوفية متنوعة.

أما الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة والمطرزة بالحرير، فقد جرت العادة أن تزين الأقمشة المنسوجة وبخاصة الكتانية بزخارف من الحرير كانت خاصة بالخلفاء، ونلاحظ في الكتابات الكوفية التي كانت تزين منسوجات العصر العباسي تنوعاً زخرفياً كبيراً، إذ تنتهي حروف بعضها بأنصاف مراوح نخيلية (الكوفي المشجر).

ويرجع أعظم ما عُثر عليه من الأقمشة ذات الخيوط المذهبة إلى القرن العاشر الميلادي ومع أن معظم الأقمشة ذات الرسوم الآدمية والحيوانية ـ القبطية الأسلوب مصنوعة من الصوف، وبعضها مصنوع من الحرير تزينها تعبيرات زهرية نسجت باللون الأبيض والأصفر والأزرق والأخضر والأحمر على أرضية حمراء.

وقد استمرت صناعة المنسوجات في تطور مستمر من حيث الزخرفة والجمال حتى بلغت درجة عالية من الدقة في العصور اللاحقة.

الغناء والموسيقى:

لكل عصر من العصور فنه الموسيقي، ولكل أمة من الأمم تراث غنائي وموسيقي وضعه المهتمون بذلك، وأصبح سائداً في المجتمع يتغني به في أفراحه ومناسباته السعيدة وقد صحب ذلك الغناء بعض الآلات الموسيقية سواء البسيطة منها أو التي طُورت بعد ذلك فاستعمل النقر على الدفوف والنفخ في المزامير، وطرائق إيقاعية على الات اللهو والطرب.

تطور الموسيقى والغناء منذ العصر الجاهلي حتى العصر الأموي:

كانت الموسيقى والغناء عند عرب الجاهلية توافق طبعهم وخشونة حياتهم، فقد عرف البدو نوعاً من الحداء، الذي يستعملونه في البادية عند مسير الأبل، وقد ساعدهم على ذلك نهضة الشعر وترنيماته. وفي الحضر عرفوا بعض الآلات الموسيقية التي أخذت أسماؤها من بعض الأسماء البابلية والآشورية والآرامية والحميرية[1].

وكان للحداء وقع حسن عند العرب فقد استعذبته نفوسهم، ويعتبرونه أقدم أنواع الغناء.

ولما جاء الإسلام نهى عن اللهو الذي يكون سبباً في إضاعة وقت العبادة بصورة خاصة وإن كان العرب وفي أول أمرهم، لم يهتموا بالغناء والطرب لانشغالهم بالفتوح، ولكن بتغير المجتمع العربي من الخشونة والبداوة إلى حياة الحضر والنعيم نتيجة تدفق الأموال بعد الفتوح، ومجيء أسرى كثيرين من الفرس والروم إلى مكة والمدينة وغيرها من أمهات القرى كل ذلك أدى إلى ظهور نواة نهضة موسيقية وغنائية في بلاد العرب. حتى اشتهرت بوجود أمهر المغنيين فيها. ولقد قدم بعض الفلاسفة المسلمين فن الموسيقى على كل الفنون، من حيث تحقيق الفوائد المعنوية والعملية جميعاً. وهكذا قال الفارابي: «إن الغاية القصوى من السماع ليست اللعب إذ إن اللعب ليس يُطلب لذاته، وإنما لينال به بعض الأشياء التي توصل إلى السعادة، وعن هذا الطريق يمكن أن يكون لأصناف اللعب، مثل الغناء والموسيقى، مدخل في الإنسانية»[2]. وفي كل الأحوال فقد أصبحت مقولة أفلاطون التي تنص على أن الموسيقى تغرس الفضائل في النفوس مع الرياضة شعاراً يرفعه فلاسفة المسلمين.

---

(1) للتفصيل انظر (فارس: تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة نصار، القاهرة، 1966، ص 5، 23.

(2) سعد زغلول عبد الحميد، وآخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، دار المعرفة الجامعية، مصر 1999، ص 403.

ولعل قيام دولة بني أمية قد ساعد على قيام نهضة غنائية موسيقية إذ يُقال عنهم بأنهم أول من أوجد الملاهي، وربما شجعوا عليها ليشغلوا الناس عنهم.

ومهما يكن فإن الغناء في بدايته كان بسيطاً تمثل في الحجر والرجز والحداء وتطور مع مرور الوقت إلى أنواع جديدة من الغناء هي النصب والسناد والهزج[1].

وينسب إلى طويس (أي الطاووس الصغير 632 ـ 715م. واسمه عيسى بن عبدالله بن الدائب) أنه رائد الغناء المتقن في الحجاز إلى جانب ابتداعه للهزج والرمل فالمقصود بالمتقن هو الحسن الصنعة بشكل عام، وقد اتفق على أن طويس قد تفوق في نوع الهزج حتى ضرب به المثل (أهزج من طويس). أما عن الثقيل من الغناء فكان فضل السبق فيه لابن محرز الذي يُوصف بأنه «أحسن الناس غناء في الثقيل»[2].

وقد ارتبط الغناء بالمناسبات المفرحة، وكذلك بالمناسبات الحزينة بما يناسبها من الأقوال والألحان، مما كان يحدث في الاحتفالات الأليمة من الجنائز والنعي والرثاء، وهو ما عُرف بالنواح، وبذلك امتزج الفرح بالترح في مجال السماع، وفي ذلك قيل: «لم تمتلىء دار قط فرحاً إلاّ امتلأت حزناً». ومن ثم انقسم الطرب عندهم إلى شجن وحزن وفي ذلك يقول يحيى البرمكي: «الغناء ما أطربك فأرقصك، وأبكاك فاشجاك»[3].

وقد رافقت رحلة «تطور الموسيقى والغناء العربي ظهور وابتكار العديد من آلات العزف من بينها آلات فارسية وأخرى هندية ويونانية وعربية، قد أصبح لهذه الآلات سوق خاص في منطقة المشرق مثل سوقها في القاهرة[4]. ومن هذه الآلات ما هو للنفخ مثل: المزمار أو الزمور، والصفارة، والناي،

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 6، ص 27.
(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 4، ص 223.
(3) الأصفهاني: كتاب الأغاني: ج 4. ص 219.
(4) المقريزي: الخطط، ج 2، ص 209.

والقصابة، والبوق وهو من نحاس أجوف والقيثار الذي لعله يوناني Kithara، والطنبور وهو يشبهها والشبابة وهي قصبة جوفاء فيها ثقوب عليها سوارة، وهي تقطع بوضع الأصابع من اليدين في وضع متعارف، والأرغن أو الأرغانون وهو منفاخ من جلود الجاموس من آلات الروم.

وهناك آلات للقرع مثل الدف، والصنج، والجلاجل، والطبل أو النقارات وهي ذات شكل إسطواني مجوف من الداخل مشدودة بالجلد من الناحيتين، والكوسات ـ كوس ـ وهي طبل شكلها نصف دائرة مشدودة بالجلد من ناحية واحدة، وبعضها بالأوتار التي توضع على بسائط آلات مشدودة في رأسها وتفرع الأوتار بمعزف ولعل أهمها العود الذي يسميه النويري ملك الآلات، وهو اسم عربي لآلة فنان يصنع من خشب العود، ولعل أول ما استعمل في عهد هارون الرشيد، وقد تطور على أيدي المسلمين حتى أن المؤلفين خصوه بالعناية في مؤلفاتهم فخففوا من وزنه وزادوا في عدد أوتاره، واخترعوا أوتاره من قوادم النسر. وأيضاً الرباب، وهو ذو وتر واحد، يُعزف عن طريق قوس، وإن أصبح له أربعة أوتار، وقد أطلق الفرس عليه الكمان أو الكمنجة، والقانون وهو ذو سبعة أوتار.

وكذلك توجد أسماء لآلات أخرى مثل: غربال ومُصافق، وكنكله وكنارة وقضيب وسلباق وعير وأصف، والمستق.

كما برزت طبقات عديدة من المغنيّن، لم تعرف الشعوب قبلهم كثرة وهم رجال ونساء ـ وقيان ـ على السواء يذكرهم المؤلفون في كتب خاصة، أشهرها كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي قضى خمسين عاماً لتأليفه، وطبقات المغنيين للجاحظ في العصر الإسلامي الأول حتى العصر الأموي. ولنذكر أسماء بعض من برزوا في فن التلحين والعزف والغناء منهم: نشيط الفارسي، وطويس وسائب (أو سلم) خاثر، وابن سريج، وابن محرز ومعبد، ومالك، ومن المغنيات: جميلة وسلامة القس وعزة الميلاء وحبابة وبُلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء وعقيلة وخليدة حتى نهاية العصر الأموي.

الغناء في العصر العباسي:

جاءت نقلة الغناء بين العصرين الأموي والعباسي بعد وقفة ترقب قصيرة لم يُقدر لها أن تطول كثيراً. فإذا كان السفاح قد فضل العلم في مسامرة الرجال على الجهل في مجالسة النساء، فإنه كان يقعد للسماع من وراء ستار. وإذا كان الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور وولي عهده عيسى بن موسى لم يستسيغا هذا التقليد، فإنه بولاية المهدي تحولت الخلافة من حكم خشن متقشف إلى دولة مترفة ناعمة بعد أن هوى المهدي لسماع الغناء والطرب مما حدا بالشاعر بشار بن برد أن يقول:

بني أمية هبوا طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا   خليفة الله بين الناي والعود

وقد ظهر أثر انغماس المهدي وشغفه بالغناء والموسيقى في ابنه إبراهيم الذي ملأ الدنيا غناء وطرباً وأخته عُليّة بنت المهدي.

والمهم من كل ذلك أن الغناء الذي كان قد انتشر في المدينة على أواخر عهد الأمويين، ظل كذلك على أوائل عهد العباسيين، فقد أخذ المغنون المخضرمون الذين عاصروا الدولتين على عاتقهم مسؤولية انتقال الغناء والموسيقى من عصر إلى عصر ومن هؤلاء المغنين مالك بن أبي السمح (المدني) تلميذ جميلة (معبد) يعتبر من المخضرمين الذين عاصروا «الدولتين» إذ مات في خلافة المنصور (136 ـ 158هـ/ 754 ـ 775م) وعبد الرحمن بن عمر «المدني» المشهور بدهمان، والذي جمع ما بين الصلاح والغناء وكان يقول: ما رأيت باطلاً أشبه بحق من الغناء[1]، وقد دخل دهمان في خدمة المهدي ونال أعطياته الجزيلة. ومن هذه الطبقة من المغنين الموسيقيين عبدالله بن وهب المكني بـ «سياط» الذي كان مقدماً في الغناء والموسيقى معاً، فلقد اشتهر بالضرب على العود، كما كان أستاذاً لمشاهير

---

(1) الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 6، ص 21.

المغنين العباسيين، مثل ابن جامع وإبراهيم الموصلي[1].

والحقيقة أنه إذا كان الغناء في العصر العباسي امتداداً للغناء في العصر الأموي، فإن هذه الظاهرة سرت في جميع العلوم والفنون والآداب وغيرها من مظاهر الحضارة التي ورثها العباسيون عن الأمويين، غير أن الغناء قد شهد دفعة قوية أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد تتناسب ومكانة بغداد، فكان أن ظهرت أسر بكاملها تحترف الغناء وتبدع فيه وتتوارثه، كما كان الحال في تنظيمات أصحاب المهن والحرف والصناعات، ففي مجال الغناء ظهرت أسرة آل الموصلي التي توارثت هذا الفن ابناً عن أب، والتي وصلت به إلى ذروة أعلى مستوى وصله الفن العربي الإسلامي بفضل جهود إبراهيم الأب، وإسحاق الإبن، ثم حمّاد الحفيد، كما ظهرت إلى جانب هذه الأسرة شخصيتان هامتان في عالم الغناء هما: ابن جامع السهمي، والأمير المطالب بالخلافة إبراهيم بن المهدي الذي كان مغنياً عظيماً وراغباً كبيراً للفن. وبذلك سار العباسيون على نفس النهج الذي سنه الأمويون وإن أصبح ذلك، على عهد العباسيين تقليداً كسروياً أكثر تطوراً وتقدماً بطبيعة الحال.

الفن والغناء في المغرب والأندلس:

بالرغم من وجود تراث فني في بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي، فإن أول اهتمام بفني الغناء والموسيقى في بلاد المغرب والأندلس، ظهر مع وصول زرياب (علي بن نافع) أيام الأغالبة عندما نزل على الأمير الأغلبي زيادة الله الأول (201 ـ 223هـ/ 817 ـ 838م) ولكن لم يحالفه التوفيق بسبب الثورات القائمة ضد الأغالبة في أفريقية (ثورة منصور الطنبدي) فسارع زرياب بركوب البحر متجهاً نحو الأندلس حيث نزل على أميرها عبد الرحمن بن الحكم الذي أحسن استقباله. ومنذ ذلك الوقت حلت موسيقى بغداد المتطورة في الأندلس محل موسيقى الحجاز التقليدية التي كانت قد دخلت

(1) الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج 6، ص 127.

قرطبة عن طريق القيان، بل ولقد اعتبر المهتمون بالغناء العربي وتاريخه أن لزرياب وبنيه من بعده الفضل في حمل الأندلس لواء الموسيقى منذ ذلك الحين عوضاً عن بغداد. إذ أن الفن في بغداد قد تأثر كثيراً بضعف الخلافة العباسية وبخاصة أيام الحنابلة الذين دعوا إلى التشدد في منع شرب الخمر وتكسير آلات اللهو.

لقد تطور فن الغناء في الأندلس بفضل التجديد في الشعر الغنائي، حيث قاد الأندلس لواء الموشح والزجل بطابعهما الشعبي و(الرومانسي) فكان ذلك فتحاً جديداً في دنيا الموسيقي والغناء الذي تأثر بالظروف البيئية والطبيعية في الأندلس.

وقد انتقل هذا الفن الأندلسي المتطور إلى بلاد المغرب عقب خروج المسلمين من الأندلس بعد سقوط غرناطة 1492م، أو قبل ذلك.

وفي بلاد المغرب لدينا معلومات حول الموسيقى في العصر الصنهاجي الذي أخذ فنه عن العصرين الأغلبي، والفاطمي. فقد كان المعز بن باديس «عازفاً بعدة صنائع من الألحان والتوقيعات»[1] ويبدو أن الذي شجع هذا الفن بوجه خاص هو عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب أحد معاصري الرقيق وكان: «واحد عصره في الغناء الرائع والأدب البارع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق. وكان قد قطع عمره، وأفنى دهره في اللهو واللعب والفكاهة والطرب، أعلم بضرب العود واختلاف طرائقه، وصنعة الألحان، كثيراً ما يقول الأبيات الحسنة في المعاني اللطيفة، ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة العجيبة، اختراعاً منه وحذقاً، وكانت له قريحة وطبع، فكان إذا لم يزره أحد من إخوانه، حضر مائدته وشرابه عشرة من أهل بيته، منهم ولده وعبدالله بن أخيه وبعض غلمانه. كل هؤلاء يغنون ويجيدون، فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب، فيدعو بالعود ويغني لنفسه ولهم. وكان

(1) ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس 1968، ص 82.

بشارة الزامر الذي يزمر عليه من حذّاق زمرة المشرق، وكان بعيد الهمة سمحاً بما يجد.

ولعل الغناء والموسيقى المغربية قد تأثرت بما يفد عليها من المشرق ومن الأندلس إذ تشير المعلومات المتوفرة أن التأثيرات الأندلسية في المغرب لم تظهر إلا بعد غزوة بني هلال بقليل، وأن أبا الصلت أمية بن عبد العزيز (ت 529هـ/ 1135م) هو الذي أدخل الموسيقى الأندلسية إلى أفريقية (تونس).

أما الآلات الموسيقية التي كانت مستعملة عصرئذٍ في بلاد المغرب فهي العود والرباب، والناي والطبل والدّف[1].

وهكذا كانت الفنون الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس قد وصلت إلى ذروتها في العصر الإسلامي الوسيط مما أكسبها شهرة تجاوزت العالم الإسلامي إلى كثير من البلاد الأوروبية بفضل مراكز الإشعاع الإسلامي التي تطل على أوروبا وبخاصة الأندلس، وصقلية، وما جرى من احتكاك بين المسلمين والأوروبيين في الحروب الصليبية.

---

(1) الهادي روجي إدريس الدولة الصنهاجية، تاريخ أفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م. نقله إلى العربية، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، ج 2، ص 442 ـ 443.



الباب التاسع عشر

أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا
وفي القارة الأفريقية جنوب الصحراء

أولاً: أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا:

شهدت الإنسانية على مرّ عصور التاريخ عدداً من الحضارات التي سادت ثم بادت، فهناك حضارة مصر القديمة وحضارات بلاد ما بين النهرين أشورية وبابلية إلى جانب حضارات متفرقة في بلاد الشام، وبلاد المغرب. بما عهدته هذه المناطق من حياة الاستقرار مكنت شعوب تلك المناطق من تطوير نمط حياتها.

ثم كانت الحضارة الإغريقية التي نشأت في جزء من أوروبا فأخذت من حضارة الشرق وبخاصة بعد حملة الإسكندر الأكبر، واستقرار الإغريق واختلاطهم بأصحاب الحضارة.

وعندما ورث الرومان الحضارة الإغريقية عملوا على نشرها في امبراطوريتهم المترامية الأطراف، فكانوا نقلة للحضارة دون أن يكونوا مبدعين لحضارة جديدة.

وبظهور الإسلام بدأت الحضارة العربية الإسلامية تأخذ مكانها بما اختصت به من قيم إنسانية كانت وستظل خالدة ثابتة في نظمها الاجتماعية، والاقتصادية وفنونها وعلومها، فضلاً عن استقرارها السياسي في ظل الدين الإسلامي ـ آخر الأديان ـ الذي كان يحارب الجمود ويحث على العلم والخلق والإبداع.

ومع اتساع رقعة العالم الإسلامي صار عدد من مناطق الحضارات القديمة جزءاً من بلاد الإسلام وبخاصة بلاد فارس، ومناطق الشرق التي كانت تحت النفوذ البيزنطي.

كانت بلاد الإسلام قد شهدت خلال العصور الوسطى حضارة مزدهرة انطلقت من شبه الجزيرة العربية، وتمركزت في بلاد الشام ثم في العراق، وضمت ساحة جغرافية شملت مناطق شاسعة في جميع قارات العالم القديم آسيا وأفريقيا وأوروبا. وكانت تلك السيطرة الإسلامية بفضل الحضارة المزدهرة والمتميزة التي صنعها المسلمون.

وعندما حاول الأوروبيون في بداية عصر النهضة أن يتلمسوا الطريق إلى الحضارة كانت الحضارة العربية الإسلامية قد وصلت ذروتها، وكان الأوروبيون أنفسهم يعيشونها، وربما شارك بعضهم بدور فيها، وبخاصة في:

1 ـ الاندلس:

استقر العرب في شبه الجزيرة الأيبيرية زهاء ثمانية قرون وربما أكثر من ذلك لأن التأثيرات الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية لم تنته بخروج العرب منها عام 1492م. لا بل استمرت حتى بعد ذلك لقرون.

كانت الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس تشع من عدة مراكز مثل: قرطبة (Cordoba - Corduba) وإشبيلية (Savilla) وغرناطة (Granada, Granata) وطليطلة (Toledo)، حيث كان العرب والمغاربة هم أداة تلك الحضارة، وهم الذين يسميهم الأوروبيون بالمور أو الموريسكيون (Moros - Morlscos). وقد كان معظم سكان الأندلس ـ وهم من المسيحيين ـ قد

شبعوا بالحضارة العربية الإسلامية لغة وممارسة فقد هجروا لغتهم الأصلية واتقنوا اللغة العربية كما سادت بينهم حياة المسلمين وتقاليدهم وعُرف هؤلاء بالموزآراب (Mozarabes) وهي كلمة تعني مستعرب بالعربية، واضطر الأساقفة من رجال الدين أن يترجموا الإنجيل إلى العربية، وكذلك فعل اليهود بالتوراة - وهم أقلية كبيرة في الأندلس - استعربت منذ وقت مبكر فأخذوا لغة العرب وملابسهم واندمجوا معهم. فقاموا بدور هام في نقل الحضارة العربية الإسلامية عن طريق الترجمة أو ذهاب هؤلاء المستعربين من النصارى واليهود إلى قصور الأمراء والملوك في أوروبا. وكان النابهون من الأوروبيين يفدون إلى مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس يتعلمون لغة العرب ويترجمون علومهم وينقلونها إلى بلادهم.

ولما أفل نجم المسلمين في الأندلس وتفرقت كلمتهم وبدأ الأسبان حركة استرداد الأراضي من المسلمين «Reconquista» نجد أن ملوك الأسبان وأمراءهم يغترفون من حضارة المسلمين ويحاكونها في كل مظاهرها، ولا يستطيعون تجاوزها لتفوقها فكان الذين ينقلونها يُعرفون باسم المدجنين Mudèjares. أي المقيمين وكانوا من الأسبان أو العرب الذين أرغموا على التنصر أو الهجرة، وكان تجمع معظم هؤلاء في مدينة طليطلة، فنسمع عن الملك الفونسو العاشر الملقب بالحكيم (Alfonsoel Sabio) (1252 - 1284م) قد فتح في عاصمة ملكة مدرسة للترجمة في طليطلة استخدم فيها علماء مسلمين لنقل العلوم العربية إلى الأسبانية أو اللاتينية. في وقت كانت البلاد الأوروبية القريبة من أسبانيا يحيط بها ظلام الجهل. ومن ثم تسرب شعاع الحضارة الإسلامية من الأندلس إلى ربوع أوروبا.

2 - صقلية:

لا تقل صقلية في مساهمتها الحضارية في أوروبا عن الأندلس، فقد فتح المسلمون صقلية زمن الأغالبة الذين أقاموا دولتهم في (تونس وطرابلس الحاليتين) في عهد الخلافة العباسية، وذلك في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي بعد أن كانت تشكل خطراً على البلاد

الإسلامية، وعندما قضى الفاطميون على الإمارة الأغلبية وغيرها من إمارات بلاد المغرب أصبحت صقلية تابعة لهم. فتابعوا تأكيد فتحها، واستولوا على أهم مدنها مثل (بلرمو Palermo) ومسيني (Messine) وباري (Bari) وغيرها من المدن التي أصبحت مراكز للحضارة الإسلامية في إيطاليا.

وعندما قضى النورمان (Normands)[1] على سيطرة المسلمين على صقلية وجنوب إيطاليا خلال القرن الخامس الهجري لم يقض على الحضارة الإسلامية بها بل إن النورمان احتفظوا بصناع تلك الحضارة فكانوا عاملاً فاعلاً في زيادة نشرها.

والواقع أن النورمان ظلوا مسالمين للمسلمين بعد انتهاء المرحلة الأولى من استيلائهم على صقلية وتحرشهم بالشمال الأفريقي وبلاد الشام ومصر.

وقد وصف ابن جبير سياسة ملوك النورمان بأنها كانت تتسم بالمسالمة مع المسلمين بدليل تلك الخطابات المتبادلة بين روجر الثاني Roger II (1130 ـ 1154م) والخليفة الحافظ الفاطمي (524 ـ 544هـ/ 1130 ـ 1149م) وقد أخذ النورمان يتذوقون الحضارة الإسلامية ويتوجون أنفسهم بعبارة لا إله إلاّ الله ويتخذون شارات ملوك الإسلام: «الحمد لله حق حمده» ويضعون العمائم على رؤوسهم مثل العرب، ويسلكون قصرهم مسلك ملوك الإسلام[2]. كما كان عمالهم وجواريهم وعبيدهم ومنجميهم وحظاياهم أيضاً من المسلمين، كما لقي علماء المسلمين في صقلية اهتماماً من جانب أمراء النورمان فهذا الشريف الإدريسي الجغرافي الكبير يهدي كتابه (إلى الملك روجر الثاني، ويسمى كتابه الروجاري. كذلك خلفه ويليام (William) الذي كان شديد الإعجاب بالحضارة الإسلامية فكان يقرأ ويكتب بالعربية، ونجد ملكاً آخر من أسلافهم وهو فردريك الثاني Federico (1193 ـ

---

(1) النورمان: عناصر مسيحية من أهل الشمال الأوروبي استولوا على صقلية من أيدي الفاطميين.

(2) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص 315.

1250م يشجع الترجمة للكتب العلمية الإسلامية كما كان يفعل ملوك الأسبان. وأسس جامعة نابلي حتى أنه كان متهماً بالتحيز للمسلمين. وعندما ذهب إلى المشرق في حملة صليبية عام 1327م صالح سلطان المسلمين مما حدا بالبابا إلى إصدار قرار الحرمان بحقه.

أما الطريق الثالث لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا هو مجيء الصليبيين إلى الشرق الإسلامي. واستقرارهم به زهاء قرنين من الزمان (القرن الخامس إلى السابع الهجري/ الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي) فكانوا على اتصال دائم ومستمر بالحضارة الإسلامية المتفوقة التي ادهشتهم، والذي يمكن أن نلمسه من خلال أحاديث الرّحالة والملوك الأوروبيين. وعلى العكس فإن الأوروبيون غجر متخلّفون في أعين المسلمين. وبالرغم من استمرار الحروب الصليبية خلال قرنين إلاّ أنها لم تكن حروب متصلة فقد سادتها فترات من الهدوء تمكن خلالها النبهاء من الأوروبيين من الاطلاع على حضارة المسلمين في الشرق ونقلوا كثيراً من خصائصها بالممارسة والمشاهدة.

كما أسهم التبادل التجاري الذي كان قائماً أثناء وبعد الحروب الصليبية في نقل السلع ومنتجات الشرق إلى أوروبا عن طريق الأساطيل التجارية للمدن الإيطالية مثل بيزه Piza وجنوه Genova، والبندقية Venezia، ونابولي Napoli وفلورنسا Fifenze، وهي المدن اتي نهضت فيها حركة النهضة الأوروبية التي مهدت للحضارة الأوروبية الحديثة.

وليس من الصعوبة التدليل على مدى ما قدمته الحضارة الإسلامية للحضارة الأوروبية الحديثة، تلك الكتب العديدة التي تم ترجمتها عن العربية إلى اللغات الأوروبية المتعددة وهي الكتب التي كانت تملأ مكتبات أوروبا منذ زمن مبكر، وعكف الأوروبيون على دراساتها في جامعاتهم الناشئة في عصر النهضة، كما وجد الأوروبيون كتب الطب والفلسفة الإغريقية مهذبة ومشروحة فيما ألفه المسلمون من كتب في هذه العلوم فأخذوها مما يؤكد أن كل حضارة جديدة مدينة في نهضتها للحضارة السابقة لها.

ولعل أهم ما اهتم به الأوروبيون من كتب المسلمين في بداية عصر النهضة كتب الفلسفة التي تعالج العقيدة أو بمعنى آخر الفلسفة اللاهوتية، والتي عرفت بالفلسفة المدرسية لأنها كانت تناقش في المدارس أو من يقومون بها يسمون بالمدرسين (Doctores Scholastiel) فكان معظم ما كتب عن الفلسفة اليونانية أو الرومانية موجودة بين دفتي كتب العرب المسلمين. واهتم الأوروبيون كذلك بعلم الطب فأخذوا عما كتبه العلماء المسلمون في هذا المجال من أمثال ابن سينا والرازي حيث ترجمت كتبهم إلى اللغات الأوروبية، وتم تدريسها في جامعاتهم حتى نهاية القرن الثامن عشر. وبخاصة في جامعة سالرنو «Salerno» والتي تعتبر أول معهد طبي في أوروبا[1]. ولا تزال اسما الطبيبين المسلمين الشهيرين ابن سينا والرازي يوجدان في كلية الطب بباريس، وإن نظريات ابن خلدون ظلت مثار أعجاب وتقدير من علماء أوروبا حتى اليوم.

ويستطيع المتقصّي لفضل العلماء المسلمين على الحضارة الأوروبية أن يستجمع عدداً غير قليل من أسماء المترجمين للكتب العلمية الإسلامية منذ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي حتى أواخر العصور الوسطى من بينهم جربير «Gerberto» الذي صار فيما بعد بابا روما باسم سلفستر الثاني Silvestreii. وأودلاد أوف بات «Adelard of Bath» وقسطنطين الأفريقي، وجيرار الكريموني، وروجر بيكون Roger Bacon، وميشيل سكوت «Michel scot» وفيليب الطرابلسي Philippe de Tripoli وغيرهم كثيرون.

وكذلك نجد السمة العربية على كثير من مظاهر الأدب الأوروبي بفضل ما تم ترجمته عن اللغة العربية مثل كتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب كليلة ودمنة، فمثلاً أنشودة رولان Chanson de Roland التي ظهرت عام 1080م. التي تعتبر إحدى دعائم الأدب الغربي المبتكر، ما كان لها أن تقوم لولا اتصال الأوروبيين بالمسلمين عبر جبال البرتات. وكذلك ما نقله دانتي

(1) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص 283.

Dante في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، أكبر شعراء إيطاليا مؤلف الكوميديا الإلهية «Divina Commedia» التي اعتمد فيها على رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وكذلك نجد في الأدب الأوروبي الحديث كثيراً من التأثيرات الإسلامية. فما كتبه شكسبير «Shakespeare» وهو من أكبر أدباء إنجلترا تأثر كثيراً بحكايات الشرق وبخاصة في روايته روميو وجوليت، وفولتير Voltaire الرومنسي مدين لقصة ألف ليلة وليلة، ولسورة الكهف بروايته صادق «Zadique» وجوته «Goethe» في شعره متأثر بالإسلام، وله رأي في شعر العرب. وأخيراً فإن الشعر الرومانتيكي، وهو الغزل الرقيق، الذي كان من مميزات الأدب الأوروبي انتقل من الشرق إلى أوروبا إذ هو الحب العذري أو الموشحات أو الأزجال، وذلك عن طريق التروبادور «Troubadours» وهي محرفة من كلمة طرب أو طروب، فهؤلاء الشعراء يتغنون بالشعر على أنغام آلاتهم الموسيقية، ويتجولون عند بيوت الخاصة[1].

على أن التأثيرات الإسلامية في الحضارة الأوروبية قد شملت كل مظاهر الحياة المتحضرة في أوروبا ولا أدل على ذلك من غزو اللغة العربية واستعمال مفرداتها حرفية في اللغات الأوروبية حتى وقتنا الحاضر، وهي حيز شاهد على رسوخ الحضارة الإسلامية، وتوجد في اللغات الحديثة الإسبانية والبرتغالية والطليانية وغيرها وتشمل مفردات في مصطلحات الحياة والعلوم، ويمكن أن نأتي على بعض منها، فمثلاً Chiffre وهي كلمة صفر العربية تدل على انتقال طريقة الترقيم العربية وكلمة «Admiral» أو «Amiral» وهي كلمة أمير البحر. و Arsenal هي دار صناعة و Bpussola، وهي البوصلة وCable وهي حبل، وكلها تدل على تطور المسلمين في علوم البحار. أما في الملابس فكلمة Jube الجبة تدل على تقدم الزّي الإسلامي، وكذلك كلمة «Sirop» أي الشراب الدوائي هذا فضلاً عن عدد آخر من الكلمات العلمية التي استخدمها الأوروبيون ولا يزالون حتى اليوم

(1) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص 286.

في مفرداتهم العلمية مثل كلمة Chemie الكيمياء و Algébre لتعنى الجبر.

كما يظهر تأثير المسلمين في الموسيقى وبخاصة في تلك الجهات التي كان بها حضور المسلمين لقرون مثل إسبانيا. فالموسيقى الأسبانية تعتبر بحق موسيقى عربية في إيقاعها والتي لم تكن محدودة في أسبانيا ولكنها انتشرت مع حركة الاستعمار الأسباني في أمريكا الجنوبية. وقد عرف الأوروبيون أسماء كثير من الآلات الموسيقية في لغتهم مثل القانون Kanoon، والطبل Timbal والنقارة Naker والرباب Rebec وغيرها.

أما في العمارة فإن مظاهر المعمار الأوروبي المعروف باسم الأرابسك «Arabesque» الذي هو فن معماري عربي، يميل إلى التكوينات الهندسية، وهي جوهر الفن الإسلامي[1].

أما في النباتات والمحاصيل الزراعية فقد دخل بعضها إلى أوروبا عن طريق البلاد الإسلامية مثل الكافور «Camphre»، والزعفران «Safran» والحنة Henné، والليمون Lemon، وقصب السكر Sucre والموز Banane ـ إشارة إلى طوله كالأصبع ـ والقهوة Café، وطواحين الهواء «Tahone» والسواقي Assaquia... إلخ.

أما في مجال الكشوف الجغرافية الأوروبية فهي مدينة لما قام به المسلمون، فكريستوف كولمبس «Cristophe Colombs» اطلع قبل رحلته على خرائط العرب التي شاعت في أوروبا فضلاً عن شيوع كروية الأرض عند العلماء المسلمين. التي مهدت لهذه الاكتشافات، وكذلك يذكر الإدريسي بفضل المغامرات العربية في محاولة لكشف أمريكا.

أما فاسكو داجاما Vasco de Gama فقد اصطحب معه مرشداً ودليلاً عربياً في رحلته وهو المعلم أحمد بن ماجد أثناء رحلته إلى طريق الهند.

من ذلك يتبين أن الحضارة الإسلامية كان لها الفضل فيما وصلت إليه

---

(1) ديماند: كتاب الفنون الإسلامية، ص 91.

حضارة أوروبا الحديثة والتي لا تزال شاهدة على ذلك حتى اليوم.

ثانياً: أثر الحضارة العربية الإسلامية في أفريقيا وراء الصحراء:

يُرجع بعض المؤرخين التواصل العربي الإسلامي مع أفريقيا جنوب الصحراء إلى حوالى الألف الرابعة قبل ميلاد المسيح عليه السلام. على أقل تقدير، مستدلين في ذلك بالطريق الرابط بين بحر القلزم وبحر الظلمات أي بين البحر الأحمر، والمحيط الأطلسي، والذي لم تكن القصة فيه سوى طوله الممتد إلى ستة آلاف كيلو متر تقريباً.

وقد أصبح هذا الطريق سبباً في الغزوات التي تمت على شاطىء البحر المتوسط، كما كان سبباً في الهجرات العربية الإسلامية إلى جنوب الصحراء على امتداد العصور واختلافها. أما الصحراء الكبرى فإنها لا تمثل عقبة كأداء حتى قبل استعمال الجمل في الألف الأول قبل الميلاد وكواسطة من وسائط عبورها، إذ إن البراري كانت أقل خطراً مما هي عليه اليوم، فقد كانت تشقها طرق تشير إلى حركة الإنسان الدائمة بين الساحل والصحراء ووجود محطات مصنوعة من الصخور تدلل على وجود عربات تجرها الخيول[1].

طرق التواصل العربي مع القارة الأفريقية:

لقد أدى وجود ثلاث طرق تربط القارة الأفريقية بأجزاء من العالم الإسلامي منذ القديم إلى متانة العلاقات والتبادل التجاري والحضاري المشترك وهذه الطرق هي:

أولاً: طريق الشمال الساحلي الذي كان يربط آسيا بأفريقيا بواسطة برزخ السويس، وكان يمر بواحة سيوه، والجغبوب ثم يمتد بعد ذلك في سلسلة في السهول المرتفعة، من إقليم برقة والجزائر إلى المغرب الأقصى.

---

(1) دنيس بولم: الحضارات الأفريقية، ترجمة علي شاهين، دار مكتبة الحياة، بيروت 1974، ص 33، وما بعدها.

ثانياً: منخفض «بينويه» الممتد من وادي نهر «الوجون» حتى بحيرة كوار (تشاد).

فقد قام هذا الطريق بدور مهم في إنشاء مواصلات تربط بين المحيط الأطلسي، والبحر المتوسط، سواء كان ذلك عن طريق البحر أم الساحل الداخلي، أم عن طريق القوافل عبر الصحراء.

وقد ساعد هذا الطريق في مد جسور الاتصال بين الشمال ومناطق ما وراء الصحراء، وتبع ذلك تأثيرات اجتماعية وثقافية واقتصادية في كلا الاتجاهين.

ثالثاً: طريق يمر عبر البحيرات في مناطق جنوب شرق أفريقيا عبرته القبائل العربية حتى وصلت إلى جنوب القارة الأفريقية مروراً بوسطها منذ قرون عديدة.

وإلى جانب هذه الطرق الرئيسية الثلاث توجد عديد من الطرق الفرعية ساهمت في الهجرة بين مناطق القارة الأفريقية شمالها وجنوبها ووسطها، وحتى الاتصال بين قارتي أفريقيا وآسيا.

وقد أشار المؤرخ الأغريقي هيرودوتس[1] عن العلاقات التجارية الوطيدة التي تربط بين حوض المتوسط والساحل الأفريقي، حيث تحدث عن الطرق والمسالك الصحراوية، وعن وسائل النقل والسلع المتبادلة، وعن القلاع والمحيطات والمراكز التجارية في المنطقتين. وتؤكد الرسومات الراسخة في جبل العونيات، وأيندي وتبستي وتاسيلي والهوقار، الواقعة في طريق العبور بين المنطقتين صدق ما ذهب إليه هيرودوتس في تاريخه الكبير ومشاهداته التي دونها عند رحلاته في آسيا وأفريقيا.

ولعل أهم دور قديم ربط بين منطقة الساحل والصحراء ما قام به

---

(1) هيرودوتس (484 ـ 425 ق. م) مؤرخ ورحالة يوناني زار العالم المعروف آنذاك وكتب عنه.

الأنباط بوضع اللمسات الفنية للحروف الهجائية العربية المتعارف عليها الآن، والتي أصبحت مستخدمة في شمال القارة وجنوبها[1].

انتشار الإسلام في القارة الأفريقية

دخل الإسلام أول الأمر شرق القارة الأفريقية في وقت مبكر عندما بعث الرسول الكريم عليه السلام عدداً من الصحابة إلى بلاد الحبشة بعد أن اشتد أذى كفار قريش على المسلمين، وأعني بذلك هجرة الصحابة الأول إلى الحبشة، وما ترتب عليها من نتائج حسنة في شرق أفريقيا.

كان من الطبيعي بعد دخول الإسلام إلى شمال القارة وشرقها أن يدخل الإسلام إلى المناطق الواقعة في وسط القارة وغربها وجنوبها وبخاصة أن الإسلام رسالة عالمية لا تقف في وجهها الحواجز المائية أو الجبلية أو الصحراوية أو البشرية، فكما أن البحر الأحمر لم يحل دون وصول المسلمين إلى شرق أفريقيا، كذلك فإن الصحراء لم تكن عائقاً بقدر ما كانت عامل اتصال عبر شبكة من الطرق كانت تؤدي إليها وتتفرع منها.

ويمكن القول إن إقليما فزان وكوار يحتلان مكاناً هاماً في نشر الإسلام في القارة الأفريقية، لأنهما معاً يكونان الطريق الأوسط الذي يبدأ من القيروان مروراً بطرابلس ومرزق وبلماء وينتهي عند النيجر عاصمة مملكة كانم التي تقع على ضفاف بحيرة تشاد شمالاً، وهو الطريق المفضل لدى القوافل التجارية، والرحالة والدعاة والمهاجرين واللاجئين السياسيين. لأنها أيسر الطرق الصحراوية وأكثرها مباشرة وهذا لا يعني أنها الطريق الوحيد للاتصال بين شمال القارة الأفريقية وجنوبها ولكن كان هناك عدد من الطرق هي:

ـ طريق توات تنبكتو، جاو، سكتو، كانوا، النجيمي، وادي، دار فور

(1) عبد الفتاح عبادة: انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي، مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة (بلا)، ص 5: 11.

درب الأربعين، أسيوط، القلزم، المدينة المنورة، مكة المكرمة وبالعكس.

- طريق القيروان ورقله، غدامس، توات، غات، مرزق، بلما، النجيمي.

- طريق فاس تلمسان، غرداية، توات، غات، مرزق، بلما، النجيمي.

- طريق تاهرت، غرداية، ورقله، غدامس، زندر، كانوا، النجيمي.

- طريق القيروان، توات، أغادس، زندر، كانوا، النجيمي.

- طريق توات، مرزق، بلما، النجيمي.

وعند النجيمي ينهي الطريق الهابط من مصر الذي عرف بطريق الأربعين[1].

هذه الطرق وغيرها كان لها دور كبير في توثيق الصلات بين المغرب والسودان الأوسط سواء كان ذلك لنقل حضارته، أم بتعزيز الروابط التجارية أم بهما معاً.

ولعلنا نسأل ما الذي كانت تحمله القوافل المتجهة إلى السودان الأوسط في العصر الوسيط؟

كانت هذه القوافل تحمل إلى السودان الأوسط: الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية إذ أصبح كل من اعتنق الإسلام يتعلم على الأقل ما يكفيه لإداء شعائر دينه بحفظ ما تيسر من آيات الذكر الحكيم ليصلي بها، وكانت هذه مقدمات لمعرفة اللغة العربية وانتشارها بين معتنقي الإسلام، بل والناس أجمعين.

---

(1) عبد الرحمن الماحي: مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية، والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الأفريقي، بحث قُدم في ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، تنظيم كلية الآداب (تطوان)، جمعية الدعوة الإسلامية (طرابلس، الجماهيرية) مراجعة عبد الحميد الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية، طرابلس، الطبعة الأولى 1999، ف، ص 66.

لقد دعا الإسلام إلى العلم والتعلم وجعلها من مزايا المسلم، فضلاً عن تنقية المسلم من رواسب الماضي الذي يتسم بالتعصب والقبلية إلى مجتمع أرحب وأوسع يسوده الإخاء والمحبة ويظلله الوفاء والتعاون، مجتمع المعيار فيه التقوى والعمل الصالح.

أثر المسلمين الحضاري في القارة الأفريقية:

إذا كانت الهجرات الأولى للمسلمين صوب القارة الأفريقية فراراً بدينهم من بطش قريش فإن الهجرات التي تلت ذلك قد أكدت على دور المسلمين الحضاري في القارة الأفريقية، إذ إن هجرة المسلمين في عهد الدولة الأموية وبخاصة من أهل الشام المناوئين لسياسة الحجاج بن يوسف الثقفي. وكانت تلك الممرات من منطقة الخليج من البحرين وعمان والإحساء وحضرموت ومعهم صور من الحضارة العربية الإسلامية التي كانوا يعيشونها قبل هجرتهم إلى أفريقيا مثل أعمال العمارة، وأعمال الخشب وغيرها بالإضافة إلى أعمال الزراعة، ويعتبر المسلمون أول من أدخل الجمل إلى أفريقيا وبه تغيرت معالم الحياة في القارة.

وقد انتشر الإسلام وحضارته بفضل المسلمين المهاجرين في أنحاء عديدة من القارة الأفريقية وصلت إلى جزر القمر، ومدغشقر وسيشل والكونغو ومورشيوس. وغيرها كما أدخل المسلمون إلى أفريقيا معارف ومحاصيل زراعية جديدة مثل القرنفل، والأرز، والقطن، وقصب السكر فضلاً عن صناعة الأسلحة.

لقد أتاح الإسلام الفرصة أمام الأفارقة للاتصال بالحضارة العربية الإسلامية منذ وقت مبكر، وذلك بما أحدثه هذا الدين الجديد من نشاط ثقافي واجتماعي واقتصادي عظيم للغاية. مكن الأفارقة من التبادل التجاري، وتبادل السلع والمنافع، وأدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية على أوسع نطاق في القارة الأفريقية، فقد حمل الدعاة المسلمون إلى أفريقية الإسلام، وحملوا معهم العادات الحميدة الحسنة في التعامل، واختلطوا مع السكان

المحليين وفي كل مكان من القارة الأفريقية الأمر الذي أدى إلى تحول أعداد كبيرة من الأفارقة إلى الإسلام بفضل المعاملة الحسنة والمساواة بين المسلمين انتشر الإسلام على نطاق واسع في القارة الأفريقية.

وإذا كان دور الدعاة في القارة الأفريقية قد أدى إلى اعتناق اعدادٍ كبيرة من الأفارقة للإسلام فإن دور التجار لا يقل أهمية عن دور الدعاة بفضل السلوك الحسن الذي كان يسلكه التجار المسلمون في التعامل مع أهالي القارة. . .

ثم كان الحج أداة الاتصال بين الأفارقة المسلمين وبين المسلمين من كافة أنحاء المعمورة حيث يلتقي المسلمون من جميع القارات لإداء مناسك الحج فيجتمعون وهم يؤدون مناسك الحج فيشعرون بشعور الأخوة والمساواة والكمال الخلقي والروحي الذي يتحلى به المسلمون حقاً في الحج.

وبفضل الحج تيسر للزنوج والمغاربة والصينيين والفرس والترك والعرب وغيرهم وعلى مختلف مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية بعيداً عن فوارق الجنس واللون والقومية، فضلاً عن المنافع الجمة التي يحصل عليها الحاج أثناء تلك الزيارة فقد كان بعض الحجاج الأفارقة يمكثون في طريق العودة مدة طويلة في مكة أو المدينة أو القاهرة أو بلاد المغرب لتلقي العلم، وكان الغالب على هؤلاء أن يتحولوا إلى دعاة إلى هذا الدين وبهذا انتشر الإسلام في القارة الأفريقية وأعتنقه الحكام والرعية لما في الإسلام من سجايا حميدة ومساواة لا تقيم للون أو الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي مكاناً وتكتفي من المسلم بالتقوى والعمل الصالح.

وهكذا انتشر الإسلام في القارة الأفريقية وترسخ داخلها شامخا رغم محاولات جماعات التبشير والتنصير التي صاحبت حركة الاستعمار في القارة ولكنها لم تحقق ما حققه الإسلام من انتشار في القارة الأفريقية دينا ولغة وحضارة.

الخاتمة

لعلنا نستطيع بما أوردناه في هذا الكتاب أن نقول إن المسلمين بحكم موقع أقطارهم أثبتوا أنهم قادرون على أن يقدموا حضارة معجزة ومستمرة على امتداد التاريخ، وإن كان لكل حضارة خصوصيتها ودورها وأثرها في تقدم الإنسانية.

لقد وجدت في العالم الإسلامي ـ منذ القدم ـ حضارات بابل وآشور ومصر، وفارس، واليمن، وشمال أفريقيا. وأخيراً حضارة الإسلام التي تميزت وحدها في العصور الوسطى مما يجعلنا نأمل الخير في المستقبل.

وقد أصبحت الحضارة في ظل الإسلام ذات أسلوب يختلف عما قبله. إذ تميزت بأنها مطبوعة بدين له وجهة نظر جديدة في الاعتقاد والحياة. وهذا لا يعني أنه لا فضل للحضارات السابقة أو إنكار لدورها وأثرها على الحضارة العربية الإسلامية، ولكن المسلمين أخذوا بطريقة انتقائية من الحضارات السابقة للإسلام بما يتمشى وروح الإسلام وتوجيهاته وبإضافات جديدة. لقد اهتم المسلمون ـ وهم يبنون حضارتهم ـ بالتفكير العقلي مبتعدين بذلك عن الخرافات والأساطير التي كانت عالقة بأذهان الناس في العصور الغابرة. وهذا أمر طبيعي لحضارة الإسلام إذ العقيدة الإسلامية لا تحجر على العقل وإنما تدعو إلى إمعان العقل والتدبر في كل ما خلق الله سبحانه وتعالى.

وإلى جانب اهتمام الدين بالعقل فإن الملفت للنظر أن الحضارة العربية الإسلامية قد أوجدت قواسم مشتركة بين جميع المعتنقين للإسلام مهما

تباعدت المسافات بينهم. إذ عملت على توحيد شعوب كثيرة وكأنها صهرت تلك الشعوب لتبقى على مظهرها الإنساني، ولذلك فهي لم تكتمل في عصر الدولة العربية (الأموية) ولكنها اكتملت في عصر الدولة العباسية التي أسهم المسلمون جميعاً في قيامها. فهي مزيج من أفكار وأجناس انصهرت في بوتقة الدين الإسلامي.

لقد أكد الدين الإسلامي على اتباعه أن يكونوا على خلق، إذ وصف الله نبيه محمداً بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وقد ترددت كلمة الأخلاق في كتب المؤلفين، وأشادوا بتلك الصفة عند الخلفاء والعلماء وأصحاب الحرف والكتاب والمعلمين، وحتى الفرد العادي يجب أن يتصف بالأخلاق ولا عجب فإن الإسلام وجد في أرض فيها أخلاق نبيلة من شهامة ومروءة ورجولة أضاف إليها الإسلام من زاده الروحي مما لم تعرف له الإنسانية مثيلاً من قبل.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

* ابن الأبار، محمد بن عبد الله: (ت 658 هـ)
التكملة لكتاب الصلة، جزءان، مدريد 1886م.
* ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم: (ت 630 هـ)
الكامل في التاريخ
بيروت، دار الكتاب العربي، ط 3، ج 2، 1980.
* ابن أبي دينار، محمد بن القاسم: (ت 1092 هـ)
المؤنس في أخبار أفريقية وتونس
تحقيق محمد شمام، تونس 1967.
* ابن بطوطة:
تحفة النظار في غرائب الأسفار.
القاهرة، طبعة بولاق، 1934.
* ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي: (ت 367هـ)
صورة الأرض
بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979.
* ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة: (ت 668 هـ)
عيون الأنباء في طبقات الأطباء
شرح وتعليق، نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت 1965.
* ابن بسام المحتسب:
نهاية الرتبة في طلب الحسبة
تحقيق حسام الدين السامرائي
بغداد، مطبعة المعارف، 1968.
* ابن جبير، أبو الحسن محمد:
رحلة ابن جبير

بيروت، دار مكتبة الهلال 1981.

* ابن الجزار، أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد: (368 هـ)
سياسة الصبيان وتدبيرهم
تحقيق محمد الحبيب الهيلة تونس، 1968.

* ابن الجزار:
زاد المسافر وقوت الحاضر
مخطوط الخزانة العامة، الرباط رقم 1718 د.

* ابن جعفر، قدامة:
الخراج وصناعة الكتابة
شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي
بغداد، دار الرشيد للنشر، 1981.

* ابن الحجاج، الإمام مسلم:
صحيح مسلم بشرح النووي
تحقيق، عبد الله أحمد أبو زينه
القاهرة، دار الشعب، ج 4. (د. ت)

* ابن خلدون، عبد الرحمن: (808 هـ/ 1406 م)
المقدمة
بيروت، دار الفكر، (د. ت)

* ابن خلكان، شمس الدين (ت 681 هـ)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
تحقيق إحسان عباس
بيروت، دار الثقافة، الجزء الثاني 1968.

* ابن رسته، أحمد بن عمر: (ت 310 هـ أو 337 هـ)
الأعلاق النفيسة
بيروت، دار صادر (عن طبعة ليون) المجلد السابع 1894.

* ابن سحنون، محمد: (ت 256 هـ)
أدب المعلمين

تقديم، حسن حسني عبد الوهاب، تونس 1972.

* ابن سلام، أبو عبد الله القاسم:
كتاب الأموال
القاهرة، الجزء الأول، 1353 هـ.

* ابن صاعد الأندلسي:
طبقات الأمم
تحقيق، حياة العبد بو علوان
بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى، 1985.

* ابن عذاري، محمد: (كان حيا 712 هـ)
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب
تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال
لبنان ـ بيروت. دار صادر، ط 2، ج 2، 1980.

* ابن الكردبوس
تاريخ الأندلس
تحقيق، أحمد مختار العبادي
مدريد، معهد الدراسات الإسلامية 1970.

* ابن منظور، جمال الدين مكرم
لسان العرب
بيروت، دار صادر، الجزء التاسع (د. ت)

* ابن النديم، أبو الفرج محمد: (ت 438 هـ)
الفهرست
تحقيق، رضا مجدد، طهران 1971.

* ابن هشام، أبو عبد الملك:
السيرة النبوية
بيروت، دار الجيل، 1975.

* أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: (ت 182 هـ)
كتاب الخراج

تحقيق، محمود الباجي
تونس. دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع (د. ت)
* البعطوري، مقرين بن محمد: (القرن السادس الهجري)
كتاب سيرة أهل نفوسة
مخطوط خاص.
* البلاذري، أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر: (ت 279 هـ)
فتوح البلدان
تحقيق عبدالله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع
لبنان، بيروت، منشورات مؤسسة المعارف للطباعة والنشر1987.
* الجاحظ، عمر بن بحر: (ت 155 هـ)
رسائل الجاحظ
تحقيق عبد السلام هارون
القاهرة، مكتبة الخانجي، مكتبة القاهرة، الجزء الأول، 1964 ـ 1965.
* الحصري، إبراهيم بن علي: (ت 403 هـ)
زهر الآداب وثمر الألباب
تحقيق محمد علي البجاوي
الجزء الثاني، القاهرة، 1953.
* خسرو، ناصر:
سفرنامة
نقلها إلى العربية، يحيى الخشاب
بيروت، دار الكتاب الجديد، 1970.
* الزبيدي، أبو بكر محمد:
طبقات النحويين واللغويين
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة 1953
* السيوطي، جلال الدين: (ت 911 هـ)
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة، 1963.

* الشيزري، عبد الرحمن بن نصر: (ت القرن السادس الهجري)
كتاب الرتبة في طلب الحسبة
تحقيق، الباز العريني
بيروت، دار صادر، ط 2، 1981.

* الطبري، محمد بن جرير: (ت 310 هـ)
تاريخ الأمم والملوك
تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم
بيروت، دار سويدان، الجزء الثاني (د. ت)

* القفطي، جمال الدين:
أنباء الرواة على أنباء النحاة
القاهرة، دار الفكر العربي، الجزء الثالث، 1986.

* القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: (821 هـ)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا
القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، الجزء الأول، 1963.

* الماوردي، عبيد بن محمد بن حبيب: (ت 450 هـ)
الأحكام السلطانية والولايات الدينية
بيروت، دار الكتب العلمية، 1978.

* مجهول:
أخبار مجموعة في فتح الأندلس، وذكر أمرائها - رحمهم الله - والحروب الواقعة بينهم
تحقيق: إبراهيم الإبياري،
بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، 1981.

* المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: (ت 346 هـ)
التنبيه والاشراف.

بيروت، دار مكتبة الهلال، 1981.

* المسعودي، أبو الحسن علي:
مروج الذهب ومعادن الجوهر 4 أجزاء، مصر، (د. ت)

* المقدسي، شمس الدين عبد الله: (ت 387 هـ)
كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

* المقري، أبو العباس أحمد التلمساني: (ت 1041 هـ)
نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب
تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد
مصر، الجزء الأول 1976.

* المقريزي، تقي الدين أحمد: (845 هـ)
كتاب الخطط المقريزية أو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
مصر، مطبعة النيل، الجزء الأول 1324 هـ.

* النويري، أحمد بن عبد الوهاب: (ت 732 هـ)
نهاية الأرب في فنون الأدب
تحقيق حسين نصار
مصر، المجلس الأعلى للثقافة. الجزء الرابع والعشرون، 1983.

* اليعقوبي، أحمد بن واضح: (ت 284 هـ)
تاريخ اليعقوبي
لبنان، بيروت، دار صادر، المجلد الثاني، (د. ت).

ثانياً: المراجع العربية، والأوروبية المعربة

* الأحمدي، سامي سعد:
العراق القديم
بغداد، منشورات كلية الآداب، الجزء الأول، 1978.

* أحمد، مصطفى أبو ضيف:
دراسات في تاريخ العرب
الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1982.

* إدريس، هادي روجي:

الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي
بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1992.

* الباشا، حسن:
دراسات في الحضارة الإسلامية
القاهرة، دار النهضة العربية، 1992.

* بزج، واليس:
الديانة الفرعونية
ترجمة، نهاد خياطة، دمشق، دار العربي 1986.

* براستيد، جيمس هنري:
العصور القديمة. ترجمة، دار قربان
بيروت، عز الدين للطباعة والنشر 1883.

* البرغوثي، عبد اللطيف
التاريخ الليبي القديم
بيروت، دار صادر 1971.

* بُولم، دنيس:
الحضارات الأفريقية
بيروت، دار مكتبة الحياة، 1974.

* التليسي، د. بشير رمضان:
الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي
أطروحة دكتوراه، منشورات دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان.

* توينبي، أرنولد:
مختصر دراسة للتاريخ. ترجمة فؤاد محمد شبل
القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، 1960.

* جاردنر، ألف:
مصر الفرعونية، ترجمة، نجيب ميخائيل إبراهيم
القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973.

* حركات، إبراهيم:
المغرب عبر التاريخ
الدار البيضاء، دار الرشاد، ط 2، الجزء الأول 1984.
* حسن، إبراهيم حسن:
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي
القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 7. الجزء الأول 1964.
* حسن، حسين الحاج:
حضارة العرب في عصر الجاهلية
بيروت، المؤسة الجامعية للدراسات والنشر، 1984.
* حسن، علي حسن، والتوم الطالب محمد:
تاريخ الحضارة العربية الإسلامية
الكويت، مكتبة الفلاح، 1986.
* الديباني، عبد المجيد عبد الحميد:
المدخل إلى دراسة الفقه الإسلامي
بنغازي، منشورات جامعة قار يونس، 1994.
* ديماند، م. س:
الفنون الإسلامية
ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة أحمد فكري
مصر، دار المعارف، 1958.
* ديورانت، ويل:
قصة الحضارة، ترجمة، زكي نجيب محمود
القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، 1965.
* ديلا بورت. ل:
بلاد ما بين النهرين: الحضارتان البابلية، والآشورية
ترجمة، محرم كمال، القاهرة، سلسلة الألف كتاب (د. ت)
* الرحموني، محمد الشريف:
نظام الشرطة في الإسلام إلى أواخر القرن الرابع

طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1983.
* الرفاعي، أنور:
الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية
بيروت، دمشق، دار الفكر 1997.
* سالم سيد عبد العزيز
تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي
مصر، دار المعارف، ط الأولى 1961.
* سليمان، عامر، وأحمد مالك الفتيان:
محاضرات في التاريخ القديم
بغداد، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.
الجزء الأول (د. ت)
* شعبان، زكي الدين:
أصول الفقه الإسلامي
بنغازي، منشورات جامعة قار يونس. ط 4، 1979.
* الشيخ، رأفت غنيمي:
فلسفة التاريخ
القاهرة، دار الثقافة 1961.
* الصالح، صبحي:
النظم الإسلامية نشأتها وتطورها
بيروت، دار العلم للملايين، 1976.
* ضيف، شوقي:
تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)
مصر، دار المعارف. ط 8. 1966.
* طرخان، إبراهيم علي:
مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة 1382 ـ 1517 القاهرة 1960.
* عاشور، سعيد عبد الفتاح، وآخرون:

دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية
مصر، دار المعارف الجامعية 1999.
* عاقل، نبيه:
تاريخ العرب القديم وعصر الرسول
بيروت، دار الفكر، ط 3، الجزء الأول، 1975.
* عباده، عبد الفتاح:
انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم العربي
القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية (د. ت)
* العدوي، إبراهيم:
النظم الإسلامية في صدر الإسلام والعصر الأموي
الطبعة الثانية، مصر مكتبة الأنجلو المصرية، 1958.
* عصفور، محمد أبو المحاسن:
معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم
ط 3، بيروت، دار النهضة العربية 1984.
* عطية، جورج:
من حضارتنا
بيروت، دار النشر للجامعيين 1956.
* علي، جواد:
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام
بيروت، ط 2، الجزء الأول، 1976.
* فخري، أحمد:
دراسات في تاريخ الشرق القديم
القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية. ط 4، 1984.
* فروخ، عمر:
العرب في حضارتهم وثقافتهم
بيروت، دار العلم للملايين. الطبعة الثانية 1981.
* فروخ، عمر:

تاريخ العلوم عند العرب
بيروت، دار النهضة العربية، 1995.

* القره غولي، جهادية:
العقلية العربية في التنظيمات الإدارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول 132 ـ 232 هـ
بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط الأولى، 1986.

* الكاشف، سيده إسماعيل:
مصر منذ فجر الإسلام. من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية.
مصر، دار النهضة المصرية، الطبعة الثانية 1970.

* كاستيلان، جورج:
تاريخ الجيوش. ترجمة كمال دسوقي
سلسلة الألف كتاب، مصر، مكتبة النهضة المصرية 1956.

* كانون، ليونيل:
رواد البحار. ترجمة جلال مظهر
القاهرة، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، 1966.

* كرو، الهادي:
أصول التشريع الإسلامي
ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1976.

* ماجد، عبد المنعم:
تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى
مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط الرابعة 1973.

* متز، آدم:
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري
تعريب، محمد عبد الهادي أبو ريده، بيروت. دار الكتاب العربي، ط الرابعة 1967.

* منصور، علي علي:
نظم الحكم والإدارة في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، ط الثانية، 1971.

* مهدي الرحيم، عبد الحسين:
تاريخ الحضارة الإسلامية
طرابلس، الجامعة المفتوحة، 1995.

* الناظوري، رشيد:
المغرب الكبير
بيروت، دار النهضة العربية، الجزء الأول، 1981.

* هيكل، محمد حسين:
حياة محمد،
القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 13، 1968.

* اليوزبكي، توفيق سلطان:
دراسات في النظم العربية والإسلامية
جامعة الموصل 1977

المراجع الأجنبية

* The Encyclopédia Britannica. 15 th Ed. vol. 4, The university of chicago 1973-1974.
* Rouben Levy: The social structure of islam. Cambridge - 1962.

المحتويات

الفصل الأول: الحضارات العربية قبل الإسلام 9
الحضارة: تعريفها ومفهومها 9
شروط ونظريات قيام الحضارة 10
حضارات وادي الرافدين 13
عصور ما قبل التاريخ 13
السومريون 14
الأكديون 15
البابليون 16
الآشوريون 18
حضارة وادي النيل 20
عصور ما قبل التاريخ 20
المراحل التاريخية لمصر 20
جوانب الحضارة المصرية 22
الحضارة السورية 25
عصور ما قبل التاريخ 25
الأموريون 25
الكنعانيون (الفينيقيون) 26
الآراميون 28
حضارة المغرب العربي 29
عصور ما قبل التاريخ 29
عهد الفينيقيين 31
حضارات شبه الجزيرة العربية 33
دول شمال شبه الجزيرة العربية 34
الأنباط 34

تدمر 35
الغساسنة والمناذرة 36
دول جنوبي الجزيرة العربية (اليمن) 37
الدول المعينية 38
الدولة السبئية 38
الدولة الحميرية 39
دولة كنده (أواسط شبه الجزيرة العربية) 40
ملامح الحضارة في شبه الجزيرة العربية 40
حياة العرب الاجتماعية 40
حياة العرب الاقتصادية 43
الحياة الدينية 44
وظائف مكة الدينية 45

الفصل الثاني: ظهور الإسلام وانطلاق الحضارة العربية الإسلامية 47
ظهور الدعوة الإسلامية 47
مصادر التشريع في الإسلام 49
أثر الإسلام على العرب 53
حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم 55

الفصل الثالث: الخلافـة 61
ظهور نظام الخلافة 61
الخلافة: شروطها وواجباتها ورسومها 62
شروط تولي الخلافة 62
واجبات الخليفة 63
ألقاب الخلافة 64
رسوم الخلافة 65
الخلافة في العصر الراشدي 11 ـ 41 هـ 66
خصائص الخلافة في العهد الراشدي 69
الخلافة في العصر الأموي 41 ـ 132هـ 71
خصائص الخلافة في العصر الأموي 72

الخلافة في العصر العباسي 132 ـ 656هـ 74
الفصل الرابع: الـوزارة 81
التطور التاريخي لمنصب الوزارة 81
معنى كلمة الوزير 81
الوزارة حتى نهاية العصر الأموي 82
الوزارة في العصر العباسي 83
الوزارة في الدولتين الفاطمية والأموية في الأندلس 86
أنـواع الـوزارة 87
وزارة التفويض 87
وزارة التنفيذ 88
الفصل الخامس: الحجابـة 91
الفصل السادس: الكتابة 95
التطور التاريخي لوظيفة الكتابة 95
صفات وشروط الكاتب 97
الفصل السابع: التطور التاريخي للإمارة 101
أنواع الإمارة 105
الفصل الثامن: الدواوين 107
الفصل التاسع: الشرطة 115
تطور نظام الشرطة 115
صفات صاحب الشرطة 118
مهام ووظائف الشرطة 119
الفصل العاشر: القضاء، والنظر في المظالم 121
القضـاء 121
القضاء في عهد الرسول 122
القضاء في عهد الخلفاء الراشدين 124
القضاء في عهد الدولة الأموية 127
القضاء في العصر العباسي 128

مرتبات القضاة 130
النظر في المظالم 131

الفصل الحادي عشر: الحسبة 135
معنى الحسبة 135
ظهور الحسبة 136
أعمال المحتسب 136
شروط من يتولى الحسبة 137
مجلس المحتسب وراتبه الشهري 138
العقوبات التي يصدرها المحتسب 139

الفصل الثاني عشر: الجيش 141
لماذا فُرض الجهاد في الإسلام؟ 142
المقاتلون في صدر الإسلام 144
وصايا أمراء الجيوش 144
الجندية الإجبارية 146
دخول العناصر غير العربية إلى الجيش وأثره 148
تدريب الجيش وتعبئته 150
فرق الجيش 151
تطور عدد الجند في الإسلام 154
نظام الخدمة العسكرية 156
طرق الاشتباك في الحرب 157
أسلحة الجيش 161
المعدات الحربية والتحصينات العسكرية 161

الفصل الثالث عشر: الأسطول الإسلامي 171
أولاً: البحرية في الإسلام 171
ثانياً: نشأة الأسطول وتطور فن الملاحة عند المسلمين 172
ثالثاً: الوقائع البحرية الهامة بين المسلمين
وبين البيزنطيين زمن الأمويين 176

السفن الحربية الإسلامية وأنواعها 178
أسلحة الأسطول 180
إمرة الأسطول 181
القواعد البحرية ودور صناعة السفن 182
الفصل الرابع عشر: الإدارة المالية 185
أولاً: بيت المال 185
ثانياً: موارد بيت المال 187
ثالثاً: الخراج 191
رابعاً: الموارد غير المشروعة 195
نفقات الدولة 196
النقد 198
دار ضرب النقود 199
الفصل الخامس عشر: الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية 201
تكوين المجتمع الاسلامي 201
المجتمع الإسلامي وحركة الفتوح 202
المجتمع الإسلامي في العصر الأموي 202
المرأة في المجتمع الإسلامي 204
المجتمع الإسلامي في العصر العباسي 207
أنواع التسلية في المجتمع 212
الاحتفالات 215
الحياة في العائلة الإسلامية 216
طبقات المجتمع العربي الإسلامي 219
الفصل السادس عشر: الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية 229
أولاً: الصناعة 229
الطوائف الصناعية 231
نماذج لبعض الصناعات في بعض المدن الإسلامية 233
ثانياً: التجارة 239
ثالثاً: الزراعة والري والمحاصيل الزراعية 244

الفصل السابع عشر: الحركة العلمية في الإسلام 253
الإسلام والعلم 253
التعليم في المسجد 255
حركة الترجمة قبل الإسلام 288
علم الصيدلة (الأدوية) 297
الفصل الثامن عشر: الفنون الإسلامية 315
أولاً: الفن والثقافة والدين 315
العمارة والزخرفة المعمارية في العصرين الأموي والعباسي 319
الباب التاسع عشر: أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا وفي القارة الأفريقية جنوب الصحراء 349
أولاً: أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا 349
ثانياً: أثر الحضارة العربية الإسلامية في أفريقيا وراء الصحراء 357
الخاتمة 363
المصادر والمراجع 365
أولاً: المصادر 365
ثانياً: المراجع العربية، والأوروبية المعربة 370
المراجع الأجنبية 376
ملحق الصور 383



ملحق الصور





مشهد داخلي لجامع رستم باشا في إسطنبول، 1561 يظهر زخرفة البلاط الملون.

طبق من السيراميك المزجج، فاس، أوائل القرن التاسع عشر، باريس متحف الفن الإفريقي والأوقياني.



سليمان القانوني جالساً على عرشه، أحمد فريدون 1569، إسطنبول متحف الباب العالي.

سجادة أوشاك، تركيا، نحو 1573، 670×350 سم، إسطنبول، متحف تركيا والفن الإسلامي. تأتي هذه السجادة من مسجد الوزير بيالي باشا، وقد أكملت سنة 1573. يتميز السجاد المصنوع في غربي الأناضول بحجمه الكبير وتصاميمه العربية الأنيقة.

قفطان، تركيا، أواخر القرن السادس عشر، مصنوع من الحرير، إسطنبول متحف الباب العالي. يتميز تصميم هذا القفطان الحريري، المزين بالفرو عند الرقبة، بشبكة الأشكال البيضوية المدببة التي اشتهرت في القرن السادس عشر. وقد ظهر السلطان سليم مرتدياً مثل هذا القفطان في صورة رسمها مصور القصر نيغاري.



▲ ملحق بناه الحكم الثاني، 926 - 966، بني هذا الملحق بالمسجد الكبير بقرطبة في عهد الحكم الثاني، يتميز بكثرة أعمدته التي تعطي انطباعاً بالاتساع.



مصباح زيتي نحاسي فترة الإمارة القرن التاسع، غرناطة، متحف الحمراء.

قسم من بلاط ناقر من مقبرة بيرم خان في فتح أباد، أوزبكستان، أواخر القرن الخامس عشر، متحف فيكتوريا وألبرت، لندن، الطول 1.52 م.

▼



▲ فسيفساء بجانب فناء المتوضأ، الجامع الأموي الكبير بدمشق، 706 - 715/714

▼ طراز حريري، القرن العاشر، متحف اللوفر باريس 94×52 سم





▲ اسطرلاب، طليطلة، 30/1029، برلين.

◄ الزاوية الشمالية لمسجد الحاكم بأمر الله في القاهرة 990 ـ 1013



طبق، العراق، القرن التاسع، فخاري مطلي بالأزرق على خلفية بيضاء مزججة، قطره 23.5 سم، متحف ستاالتليش للفنون الشعبية، ميونيخ



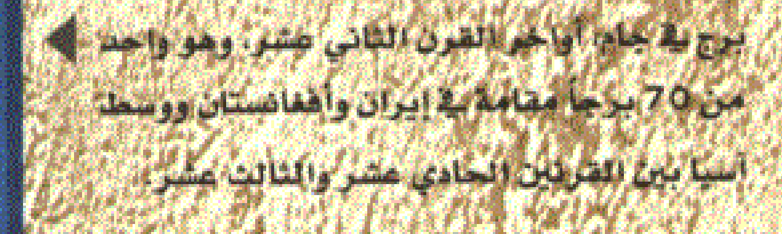
زبدية من السيراميك، السعد، مصر، القرن الحادي عشر، العمق 10 سم، القطر 5 . 23 سم، لندن متحف فيكتوريا والبرت



مصباح معلق، القاهرة أوائل القرن الرابع عشر، برلين متحف الفن الإسلامي. يحمل هذا المصباح اسم السلطان ناصر محمد وعلى رقبته آية من سورة النور (24 . 35) «الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري».



▲ انتصار بابر في معركة بانيبات سنة 1526 ، منمنمة من بابرنامة، لاهور 1597/98.



برج في جام، أواخر القرن الثاني عشر، وهو واحد من 70 برجاً مقامة في إيران وأفغانستان ووسط آسيا بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر.

بابُر يقترب من القلعة عند سماعه الأخبار عن حادثة والده، منمنمة من بابُرنامة، 1595 - 1602، نيودلهي المتحف الوطني.



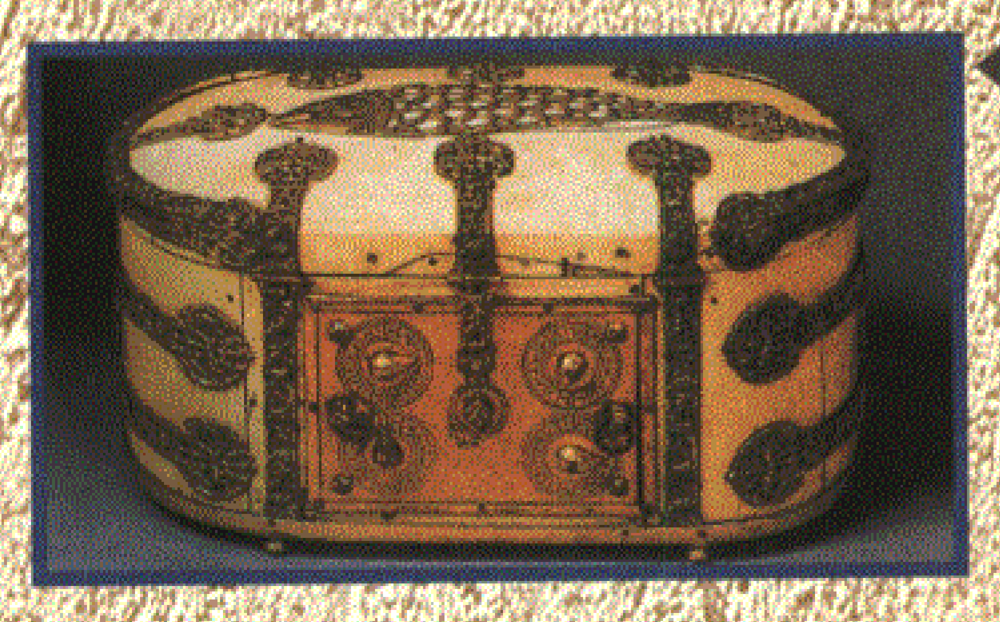
طبق مزخرف، أبو زيد، كاشان، 1210، قطره 35 سم، واشنطن غاليري فرير الفني. صنعه الخزاف أبو زيد سنة 607 للهجرة.



تمثال
الفيلسوف ابن رشد
(1126 - 1198م)
في قرطبة

مطرزة حريرية
المغرب، أواخر
القرن السابع عشر
221 × 126 سم
مجموعة خاصة

▲ قاعة الصلاة في المسجد الكبير بقرطبة 785 ـ 988 . كان هذا المسجد ولا يزال معلماً رئيسياً من معالم المدينة ويشكل البؤرة الدينية لأكثر من 500 مسجد كانت موجودة في قرطبة زمن الخلافة.



◄ صندوق من العاج ذو قفل رقمي، سوريا، نحو 1200 م استرخت، سانت سرقاس.



▲ مشهد داخلي لقبة الصخرة التي بنيت
سنة 691/692



◄ محرابه بغداد المتحف الإسلامي



طبق، إيران أو ما وراء النهر، القرن العاشر، إناء فخاري مزجج قطره 37,5 سم، باريس، متحف اللوفر.

تيمورلنك يتجه إلى سمرقند على رأس قواته، منمنمة فارسية في ظفرنامة 1486م، إسطنبول، متحف الفن التركي والإسلامي.



▲ هوماي عند وصوله إلى قلعة هومايون. بغداد، 1396م. لندن المكتبة البريطانية.



▲ تيمور لنك يستقبل حفيده بير محمد في مولتانا، منمنمة من ظفرنامة، لندن المكتبة البريطانية.